تاريخ الإسلام في أفريقيا



د. بشار أكرم جميل الملاح



تاريخ الإسلام
في أفريقيا

961

د. بشار أكرم جميل الملاح

تاريخ الاسلام في افريقيا

عمان - دار الفكر ناشرون وموزعون 2014

ر.أ.: 2013/6/1955

الواصفات: التاريخ الاسلامي// افريقيا

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الأولى، 2014 - 1435

www.daralfiker.com

المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان

ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

هاتف: 4621938 6 962+ فاكس: 4654761 6 962+

ص.ب: 183520 عمان 11118 الأردن

بريد الكتروني: info@daralfiker.com

بريد المبيعات: sales@daralfiker.com

ISBN: 978-9957-92-049-4

تاريخ الإسلام في أفريقيا

د. بشار أكرم جميل الملاح

الطبعة الأولى
1435-2014



الفهرس

المقدمة

تُعد إفريقيا جنوب الصحراء واحدة من المناطق التي وصلها الإسلام وانتشر فيها سلماً يحمله رجال لم يكن من بينهم من هو متخصص في نشر الدعوة فالإسلام لا يضم طبقة كهنوتية كما هو الحال في الديانة المسيحية، فكل المسلمين يحملون في داخلهم القدرة على إقناع الآخرين بدخول الإسلام، وربما يكون التجار الواصلين إلى إفريقيا هم أول من أدخل الإسلام إلى هناك واستطاعوا بأخلاقهم وحسن تصرفهم من أن يتقربوا من السكان وينشروا الإسلام بينهم، وبالمقابل فإن الأفارقة الذين كانوا يقدسون آلهة متعددة بين الطوطمية وتقديس الأصنام والملوك وغيرها تحولوا لعبادة إله واحد في السماء.

وبينما كان التجار يعملون في تجارتهم ويجذبون السكان الأفارقة إلى الإسلام بحسن تصرفاتهم وصدقهم وبمنظر ملابسهم النظيفة والمحتشمة، كان المهاجرون الواصلون إلى إفريقيا يؤدون الدور نفسه لاسيما أولئك الصحابة الواصلين إلى الحبشة مع بدء الدعوة في مكة.

إن واجبنا كمسلمين يحتم علينا معرفة تاريخ الإسلام وحضارته في إفريقيا جنوب الصحراء وما فعله أخوان لنا في الدين هناك حيث أقاموا دولاً مسلمة هناك أسهمت في انتشار الإسلام وتثبيت أقدامه كدولة غانة ومالي والسنغاي وسكوتو في غرب إفريقيا، وممالك الطراز الإسلامي في شرقها، فضلاً عن دولة الكانم برنو في وسطها، تلك الدول التي قامت وبُنيت بيد أبناء المنطقة المسلمين وحاربوا القبائل الوثنية وانتصروا عليها واقنعوا الكثير من أبنائها بدخول الإسلام.

وفي الوقت الذي كان المسلمون في مشرق العالم الإسلامي ومغربه يمارسون ما تفرضه الشريعة الإسلامية بحرية كان المُسلم في إفريقيا يعاني من الظلم والاضطهاد والاسترقاق وربما القتل على يد المستعمرين البرتغاليين الذين احتلوا المنطقة وحرقوا قراها وسبوا نسائها وقتلوا رجالها واسترقوا شبابها وأخذوا الكثير منهم للعمل في مزارع البرتغال وإسبانيا ومن ثم إلى أمريكا بعد اكتشافها، ولم يكتفي المستعمر بذلك بل قرر تحويل الأفارقة عن دينهم الإسلامي إلى النصرانية بالقوة، كما طمس المستعمرون هوية ولغة وتاريخ المنطقة واستبدلوها بهويتهم وتاريخهم ولغتهم.

ولكل ذلك كان حرياً بنا أن نعرف ونفهم شيئاً عن تاريخ وحضارة تلك المنطقة، والذي يحاول الكتاب جاهداً أن يبينها، لذلك فقد تم تقسيم الكتاب إلى ستة فصول تناول الفصل

الأول أهمية القارة الأفريقية من خلال الكلام عن موقعها وأقاليمها، فضلاً عن التسميات التي أطلقت عليها، كما تناول الفصل مسألة التركيبة السكانية في إفريقيا من خلال عرض المجموعات الرئيسة، فضلاً عن المعتقدات الموجودة في إفريقيا قبل وصول الإسلام إلى المنطقة.

أما **الفصل الثاني** من الكتاب فقد تناول الطُرق والمعابر التي وصل من خلالها الإسلام إلى إفريقيا والتي توزعت بين مناطق إفريقيا المتنوعة، كما تناول الفصل في قسمه الثاني وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا والتي تنوعت بين ما هو رئيس وثانوي، فالتجارة والهجرات كانت المساهم الأول في إدخال الإسلام إلى إفريقيا وانتشاره، كما كان للدعاة والفقهاء دور واضح في انتشار الإسلام، فضلاً عن الزواج والمصاهرة التي كان لها دور في نشر الإسلام بين الزوجات الأفريقيات وعوائلهن ومن ثم المجتمع.

وفي **الفصل الثالث** تم تناول انتشار الإسلام في سودان وادي النيل والحبشة من خلال الإشارة إلى إسلام بلاد البجة وبلاد النوبة وقيام دولة الكنوز الإسلامية في المنطقة وعلاقات تلك الدولة مع دولة المماليك في مصر، وفي الشق الثاني من الفصل تم الحديث عن بلاد الحبشة وعلاقاتها بالعرب ومن ثم علاقاتها مع المسلمين ووصول الصحابة الأوائل إليها وصولاً إلى قيام ممالك إسلامية فيها وعلاقتهم بنصارى الحبشة والتي كانت تتسم بالصراعات المستمرة نتيجة الاعتداءات المتكررة من قبل ملوك الحبشة النصارى على تلك الممالك.

أما **الفصل الرابع** فقد تناول انتشار الإسلام على الساحل الشرقي الإفريقي على يد الكثير من الهجرات الإسلامية إلى الساحل، كما تم تناول مسألة قيام إمارات إسلامية على الساحل لاسيما إمارتي مقديشو وكلوة ودورهما في انتشار الإسلام، فضلاً عن أثر العمارة الإسلامية على الساحل ومدنه ولاسيما عمارة المساجد والمنازل وظهور النقوش والكتابات الإسلامية فيها، وتناول الفصل وصول البرتغاليين واحتلالهم للساحل وتصدي المسلمين سكان الساحل لهم فضلاً عن الدور العُماني في الساحل.

وفي **الفصل الخامس** تم الحديث عن الإسلام في السودان الأوسط وانتشاره، كما تناول الفصل قيام دولة الكانم في الجزء الشرقي من بحيرة تشاد ومن ثم الانتقال إلى البرنو والتي تمثل الجهة الغربية للبحيرة، ومن جانب آخر تناول الفصل أشهر حكام الدولة الذين برز دورهم في الجهاد ضد القبائل الوثنية والقوى المتحالفة معها، كما يتناول الفصل المؤثرات الحضارية الإسلامية في السودان الأوسط .

وحينما نصل إلى الفصل السادس والأخير نلاحظ أنه قد تناول السودان الغربي وانتشاره وقيام الدول الإسلامية فيه والتي لعبت دوراً بارزاً في تاريخ المنطقة كدولة غانة ومالي ومن ثم السنغاي، كما تناول الفصل دعوة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية وتأسيسه لدولة سكوتو، وتم إدراج العلاقات الدبلوماسية للسودان الغربي لاسيما دولتي مالي والسنغاي مع مصر والمغرب في عهد الدولة المرينية ، فضلاً عن ذلك فقد تم استعراض أبرز المظاهر الحضارية في المنطقة.

تم وضع بعض الملاحق المهمة والخرائط التي توضح حدود المنطقة وأقاليمها المتعددة ، ومصادر ومراجع الكتاب.

وهنا لابد من الإشارة إلى استخدام العديد من المصادر والمراجع المهمة في الكتاب ومنها كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لأبن فضل الله العمري والذي أفاد الكتاب في معالجة ظهور ممالك المسلمين في الحبشة وتاريخها وعلاقتها بنصارى الحبشة، فضلاً عن تناوله للسودان الغربي لاسيما في عهد دولة مالي.

كما كان لكتاب المُغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب لمؤلفه أبو عبيد البكري والذي تناول على نحو كبير غرب إفريقيا في عهد دولة غانة ، فضلاً عن حديثه عن ديانة السكان قبل الإسلام ومعتقداتهم الدينية ، كما ضمت مصادر الكتاب العديد من المصادر الأولية.

وفيما يتعلق بالمراجع فقد تم الإفادة من كتاب انتشار الإسلام في غرب إفريقيا ومناهضة الغرب له لمؤلفه محمد عبد الله النقيرة والذي تحدث على نحو مفصل عن شرق إفريقيا والهجرات الإسلامية إليه ، فضلاً عن الدول التي قامت هناك والغزو البرتغالي للمنطقة ، كما تم الإفادة من كُتب المؤلف إبراهيم علي طرخان الثالثة امبراطورية غانة الإسلامية ودولة مالي الإسلامية وامبراطورية البرنو الإسلامية .

وهنا لابد من ذكر كتاب تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء لمؤلفه الأستاذ الدكتور دريد عبد القادر نوري والذي مثل نموذجاً رائعاً لوصف المنطقة على نحو عام، فضلاً عن الإفادة من التعاريف للشخصيات والأماكن والتي وضعها في خاتمة الكتاب ، كما تم الإفادة من العديد من الدوريات والرسائل الجامعية المتعددة .

وفي الختام أتمنى من الله أن يكون عملي هذا قد أضاف إلى المعرفة بمنطقة إفريقيا شيئاً مفيداً ومن الله التوفيق.

الفصل الأول

إفريقيا
(الأقاليم والسكان والمعتقدات)

أولاً : أهمية إفريقيا وأقاليمها

ثانيا :التركيب السكاني

ثالثاً : المعتقدات الدينية للأفارقة قبل الإسلام

1- عبادة أرواح السلف (الأجداد)

2- الطوطمية

3- عبادة الأصنام

4- تقديس الحكام

5- المجوسية

6- تقديس أله السماء

7- اليهودية

8- النصرانية

أولاً :أهمية إفريقيا وأقاليمها :

تُسمى المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى في العصور الحديثة والمعاصرة باسم إفريقيا جنوب الصحراء، وهي تسمية أُطلقت على المنطقة من قبل المؤرخين الغربيين وتم التعامل معها واستخدامها تبعاً لموقع المنطقة، إلا أنها عُرفت من قبل المؤرخين والجغرافيين العرب المسلمين باسم بلاد السودان فهم أول من أطلق عليها وعلى سكانها ذلك الاسم فقالوا: ((السودان بعد أن استوحوا لون بشرة القوم))[1]، ويشير القلقشندي إلى أن ((أهلها- بلاد السودان - طوال في غاية السواد وتفلفل الشعور...))[2] وهناك دلائل أخرى تؤكد الترابط بين التسمية ولون بشرة السكان، إذ أكد ابن خلدون ذلك بقوله: ((وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض، فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام، وبالعكس ...))[3]، ويلاحظ من خلال النص التأكيد على اللون وارتباطه بالمناخ، والتي من خلالها تمت تسمية المنطقة .

وكان استخدام مصطلح السودان تمييزاً لهم عن سكان الصحراء المغاربة، إذ تم استخدام المصطلح من قبل المؤرخين السودان كذلك[4]، كما تم استخدام مصطلح بلاد التكرور كمرادف لبلاد السودان ولاسيما من قبل المؤرخين المغاربة،إذ إن أغلب المصادر المغربية والسودانية بعد البكري قد استخدمت مصطلح (بلاد التكرور) كمرادف لمصطلح بلاد السودان[5]، في حين جعلته المصنفات المشرقية خاص بأحد طوائف السودان (جنس أو أمة) [6]، الساكنين في المنطقة الواقعة بين نهر النيجر والنيل المصري أي المنطقة المعروفة بالسودان الأوسط[7].

إفريقيا جنوب الصحراء أو كما سميت ببلاد السودان يحدها من الشرق البحر الأحمر، والمحيط الأطلسي من الغرب، ويحدها من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الجنوب الغابات الاستوائية ((الخراب مما يأتي خط الاستواء))[8]، وبلاد السودان واسعة وكبيرة، إلا أنها ((قفرة في معظمها وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب لصعوبة المسالك))[9]، وبقيت كذلك حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حيث اكتشفت عدة مسالك أخرى للوصول إليها من الشرق ومن الشمال[10]، ففي الفترة السابقة لم يكتب الجغرافيون العرب القدامى شيئاً مفصلاً عن أرض السودان فيما عدا الحديث عن منطقة الواحات، وبعض الشيء عن خطوط التجارة، حتى مجيء المؤرخ العربي البكري المتوفى سنة 487هـ/1094م، والذي تحدث عن بلاد السودان على نحو أوسع مركزاً على مدنه الكبيرة واتصال بعضها ببعض، والمسافات بينها[11].

لقد تعرف المؤرخون والجغرافيون المسلمون على إفريقيا جنوب الصحراء من خلال وصول التجار والمهاجرين العرب المسلمين إلى مدنها عاماً بعد آخر، وكذلك من خلال ظهور الدول والممالك الإسلامية في المنطقة، لذلك نجد أن من تعرض لتلك المنطقة من الكُتّاب لم يترك تحديداً واضحاً ودقيقاً للمنطقة ككُل، بل اقتصر كلامهم على المناطق التي زاروها، أو سمعوا عنها فقط[12]، على أن هذا لا يمنع من تأشير حدودها.

فإذا ما تمت العودة إلى معرفة المؤرخين والجغرافيين المسلمين على المنطقة معرفة تدريجية، فسنلحظ أن المدة المحصورة بين عصر الفزاري[13]، وابن حوقل خالية من زيارات المنطقة باستثناء وصول ابن حوقل إلى مدينة أودغست لتسجيل ملاحظاته ومشاهداته[14]، أما الآخرون فقد كانوا يعتمدون في معلوماتهم عن المنطقة على المعلومات التي تصل إليهم من هناك، أو نقل الحكايات الأسطورية عنها والموروثة عن العصر القديم، ولهذا فقد اختلط الواقع بالخرافة وجاءت معلوماتهم غامضة ومضطربة، فضلاً عن حاجز الصحراء فقد ساهم البعد الجغرافي للمشرق الإسلامي عن المنطقة في تكثيف حالة الضبابية التي تكتنف المعلومات المتوافرة[15]، ومن الجدير بالذكر أن العديد من مناطق بلاد السودان ظلت مجهولة بالنسبة لمؤرخينا إلى مدة متأخرة حتى أن المؤرخ الوزان، اعترف بجهله ببعض المناطق، وذكر أنها تُقسم إلى عدة ممالك وأن بعضها مجهولاً بالنسبة لهم وتكون بعيدة عن مدى تجارتهم[16].

كما أن من البديهي أن يكون هناك تفاوت في تحديد الموقع الجغرافي بين المؤرخين والجغرافيين، فكتابات ان عبد الحكم مثلاً كانت تقتصر على المناطق الملاصقة للصحراء، وذكر الحملات الاستطلاعية الإسلامية عليها، وقد أشار إلى فتح القائد عقبة بن نافع الفهري لمدينة كوار[17]، سنة (46هـ/ 666م)، وحملة عبيد الله بن أبي عبيدة إلى أرض السودان سنة (116هـ/734م)[18]. لذا جاءت معلومات ذلك المؤرخ عن موقع بلاد السودان مقتصرة على معلوماته عن المناطق التي وصلتها تلك الحملات. وكان الأمر مختلفاً عند المؤرخ اليعقوبي الذي تكلم على نحو أكثر تفصيلاً عن منطقة السودان الغربي ولاسيما دولة مالي[19]، واستمر الأمر عند بقية المؤرخين بعده من خلال الكلام عن موقع بلاد السودان على نحو مختصر، حتى تحديده بدقة من قبل الجغرافيين الواحد تلو الآخر.

فقد أشار ابن حوقل المتوفى سنة (367هـ/977م) إلى بلاد السودان بدقة من خلال وصف حدودها، ذاكراً: ((أن حداً لها ينتهي إلى البحر المحيط، وحد لها ينتهي إلى برية بينه وبين أرض المغرب، وحداً له ينتهي إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحداً له

ينتهي إلى البرية التي لا تنبت ولا عمارة فيها لشدة الحر))[20] .ويبدو من خلال النص وضوح الرؤية بالنسبة لابن حوقل فيما يتعلق بالموقع الجغرافي. على الرغم من أنه لم يتوغل داخل المنطقة واكتفى بالوصول إلى مدينة أودغست[21]، وبقية المدن الصحراوية القريبة من بلاد السودان.

ويركز الجغرافي الزهري على المدن الواقعة على حدود بلاد السودان في تحديد الموقع الجغرافي، فيذكر: ((أنه أكبر جزء في معمور الأرض فحده في الشمال من ساحل البحر في المغرب إلى بلاد ازقي[22]، إلى بلاد المرابطين إلى مدينة وارقلان[23]، إلى صحراء المغرب إلى أول عمل مصر، وكذلك حده في الجنوب من مدينة ازقي في الشمال إلى خط الاستواء في الجنوب))[24] ويتضح من خلال وصف الجغرافي الزهري لموقع بلاد السودان الجغرافي، أن أولئك الجغرافيين قد تعاملوا مع مفهوم المكان بوصفه معطى مجرد، (تقسيم الأرض إلى أقاليم)، أو معطى جغرافي، ((رصد مواقع بلاد السودان ومدنها ومسالكها))، وأنهم يتكلمون على نحو عرضي عن القبائل السودانية التي تشغل المنطقة[25]، كما لم يختلف الجغرافي القزويني عن سابقيه في وضع حدود بلاد السودان – سوى في التسمية–، فجعل حدّها من الشمال بلاد المغاربة، ومن الجنوب إقليم المغرب ومصر،ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشرق بلاد الحبشة[26]، إلا أن هذا التقسيم لا ينطبق والواقع إذ إن جنوب بلاد السودان تقع منطقة الغابات الاستوائية .

لقد تم تقسيم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام[27]، وهي الشرقي والغربي والأوسط حسب الموقع الجغرافي لكل منها، ومن الجدير بالذكر أن هذا التقسيم لم يكن معتمداً من قبل المؤرخين المسلمين، إذ تعاملوا مع المنطقة كوحدة متكاملة تحت اسم ـ بلاد السودان ـ ، إلا أن ذلك لم يمنع من أنهم تحدثوا عن كل جزء منها ـ ولاسيما الجغرافيون منهم ـ بعد تقسيمها إلى أقاليم وأرباع، فحينما يتم الحديث عن السودان الشرقي والذي يشمل الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل وروافده جنوب بلاد النوبة[28]، نلاحظ أن أحدهم قد جعل معظم مدنه في الربع الرابع الواقع جنوب بلاد المغرب ويقول عنه: ((وهو بلد السودان من الزنج والحبش والبجة والنوبة وفزان ...))[29]. كما يجعل المؤرخ ابن خلدون المنطقة واقعة ضمن الإقليمين الأول والثاني، ويذكر أن سكانها ((هم الحبشة والزنج والسودان)) [30]

ثانياً : التركيب السكاني :

إن مسالة دراسة التركيب السكاني في إفريقيا جنوب الصحراء واسعة ومتشعبة، وتحتاج

إلى دراسة خاصة إذا ما أريد تغطيتها على نحو كامل، وفي سياق دراسة الموضوع سيتم التركيز على أبرز المجموعات السكانية في المنطقة قبيل الإسلام، وكما موضح أدناه:

1- **مجموعة شعوب الخوسان** وتشمل (البشمن والهوتنوت) المتواجدة في مناطق متفرقة من إفريقيا، إلا أنهم لا يمثلون اليوم سوى أقلية في جنوب وجنوب شرق إفريقيا وغربها، ويمتاز أبناء هذه المجموعة بقصر القامة أما لون بشرتهم فهو بُني أو أصفر، ويمتاز من ينتمي إلى هذه المجموعة بالشعر المفتول، إلا أن ما يميزهم عن بقية المجموعات السكانية أنهم يمتلكون عجز ضخم لاسيما لدى النساء وأنهم من زمر دموية مختلفة، ويُعتقد أنهم أصل سكان القارة الإفريقية[31].

2- **الأقزام**: ويمتاز أبناء هذه المجموعة بكونهم قصار القامة ويمتلكون لون بشرة بُني، ويتركز أبناء هذه المجموعة في الغرب الأفريقي إلا أنهم اختلطوا مع الزنوج في الشمال والبشمن في الجنوب إذ تركزت في مناطق الكونغو والساحل الغربي[32].

3- **المجموعة الزنجية**: وهي من أكثر المجموعات السكانية انتشاراً في المنطقة وتتفاوت ألوان بشرة السكان حسب مناطق سكنهم، ففي غرب إفريقيا يكون لون البشرة أسود فاحم، وفي شرق وجنوب إفريقيا يكون لون البشرة بُني فاتح، ويسمى أبناء المجموعة الأولى بالزنوج الحقيقيين[33]، وهم سكان المنطقة الممتدة من جنوب مقديشو[34] إلى سفالة[35] جنوب الساحل الشرقي لإفريقيا[36]، وقد بدأت طلائعهم الأولى بالخروج من داخل القارة الإفريقية إلى الساحل قرابة منتصف القرن الأول الميلادي[37]، أما المجموعة الثانية فتسمى (بزنوج البانتو) ويقترب أبناؤها من قصر القامة ويسكن أغلبهم غرب أفريقيا، وتضم المجموعة الزنجية أيضاً الشعوب النيلية ذوي الأجسام الطويلة والألوان الفاتحة[38].

ويذكر المسعودي أن الزنج قد اتخذوا بلاد الواق واق – أقصى جنوب سفالة – دار مملكة، واتخذوا لهم ملكاً أطلقوا عليه لقب (وقليمي)[39]، وينقسم الزنج إلى قبائل عديدة وكل قبيلة لها منطقة نفوذ خاصة بها، ويعيشون حياة بدائية طابعها النزاع المستمر، ومنهم ((أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً))[40].

4- **المجموعة القوقازية** : ويتواجد أبناء تلك المجموعة في شمال وشمال شرق إفريقيا، فالشماليون يسكنون مناطق البحر الأبيض المتوسط، وألوانهم بين الأبيض الفاتح والبُني الفاتح، أما الساكنين في شمال شرق إفريقيا فألوانهم تميل إلى الأسود في الصومال، وعلى العموم شعرهم متموج ومنهم من يكون شعره مُرسل ومنهم من يمتلك شعر مفتول[41].

وكانت مجموعات منهم قد مدت مناطق سكناها إلى أغلب مُدن الساحل الشرقي لإفريقيا والبحر الأحمر[42].

لقد اقتضت متطلبات البحث التنويه إلى بعض المجموعات السكانية التي تفرعت عن المجموعات السكانية التي تم التطرق إليها في بداية الفصل والتي لعبت دوراً أساسياً على مسرح الأحداث وورد اسمها في ثنايا الكتاب، ويأتي في مقدمتها الماندنجو الذين تأسست على أيديهم دولة مالي، وتقع مواطنهم الأولى في منطقة كانجابا في الأودية العليا لنهر السنغال[43]، والتسمية المتداولة لهذه القبائل فضلاً عن اسمها الأصلي الماتنكا أو الماندن، وكلمة ماندنجو تعني في لهجة السوننك (عند السيد)، كما أن هناك تفسير آخر للكلمة وهو (ابن الأم)[44]، وربما يكون التفسير الثاني هو الأقرب للصحة انسجاماً مع تمسك السودان على نحو عام بالنسب للأم. ويبدو أن قرب إفريقيا جنوب الصحراء من المغرب العربي والعلاقات التجارية القديمة بينهما ووصول الكثير من قبائل المغرب إلى إفريقيا جنوب الصحراء والتي كانت تؤمن ولفترات متأخرة بذلك النسب كانت سبباً في نقل تلك الفكرة إلى المنطقة .

والماندنجو هم إحدى القبائل الناطقة باللغة الماندية، والتي من أهمها السوننك[45] ويعرفون أيضاً بالمانديين الشماليين تمييزاً لهم عن الماندنجو الذين يعرفون بالمانديين الجنوبيين، ويكَون مجموع القبائل الناطقة باللغة الماندية وحدة لغوية، إلا أنهم يتمايزون في تنظيمهم السياسي، وبعض الشيء في معتقداتهم، ولكنهم وعلى العموم عملوا على نشر النظم الماندية في مجال الزراعة والمعتقدات، والأبعد عمقاً من ذلك نشاطهم في تحقيق وحدة حضارية للشعب السوداني[46].

وهناك فئة سكانية أخرى وهم السنغاي، الذين ترجع أصولهم إلى سكان مناطق الهوسا جنوب نهر النيجر في أقسامه الشرقية، وقد هاجر السنغاي منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي قاصدين المناطق القريبة من ثنية نهر النيجر وعملوا بصيد الأسماك، ولم تكن لهم صلة بحضارة الماندنجو إذ إن لهم لغتهم وتقاليدهم الخاصة المختلفة عن بقية الشعوب الناطقة بالماندية[47]، فضلاً عن ذلك فإن للبربر دور واضح في تكوين الخارطة السكانية بعد الإسلام لاسيما بعد تدفقهم إلى الصحراء الكبرى والمناطق الواقعة جنوبها بحكم التبادل التجاري المستمر بين جانبي الصحراء وما نجم عنه من تداخل وتزاوج بينهما، إذ كان سيل الوافدين إلى المنطقة تجاراً ومهاجرين مستمراً طيلة أيام السنة، كما كان لبعض الأحداث السياسية الجارية في بلاد المغرب دور في دفع أعداد من السكان باتجاه الصحراء، ومن ثم إلى داخل إفريقيا جنوب الصحراء .

وبمرور الزمن أصبحت بعض المدن في إفريقيا جنوب الصحراء مليئة بالمغاربة، فكانت مدينة أودغست الواقعة على الحدود بين الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء تضم عدداً كبيراً من بربر مسوفة[48] ومن بينهم حاكم المدينة أيضاً، كما كان حاكم مدينة تكرور وارجابي بن رابيس في المدة المرافقة لدخول المرابطين إلى غانة 469هـ/1076م من المغاربة [49].

كما تشير بعض الآراء إلى أن حكام دولة غانة الأوائل، والذين أُطلق عليهم لقب (الحكام البيض) كانوا من المغاربة القادمين من مدينة برقة[50] فضلاً عن أن سكان مدينة تادمكة من المغاربة وهم يتلثمون كما يتلثم بربر الصحراء[51]. وفي السودان الأوسط ولاسيما في منطقة بحيرة تشاد كان للزغاوة[52] دور كبير في صنع تاريخ المنطقة، إذ تنسب إليهم حكومة كانم الأولى[53].

وهناك قبائل وشعوب أخرى في السودان الغربي من بينها التكرور، عرُفت بلادهم ببلاد التكرور وهم أكثر الشعوب تفاعلاً مع الآخرين حيث استوعبوا عناصر من قبائل الولوف والسيرر[54] المجاورين لهم ، مستفيدين من التجارة عبر الصحراء[55].

وتتخذ قبائل التكلور منطقة تقع شمال منطقة الغابات في الغرب ـ في فوته ـ وعلى امتداد شاطئ نهر السنغال[56]، وقد جعلهم هذا الموقع يندمجون مع بقية سكان المنطقة. فضلاً عن وجود مجموعة سكانية أخرى تعود أصولها إلى المغاربة ألا وهي التيبو (التدا)[57].

أما العرب في إفريقيا جنوب الصحراء فوجودهم يمتد إلى فترات قديمة وهم ذوو جذور تاريخية عميقة، إذ من المعروف تاريخياً أن عرب اليمن قد هاجروا إلى الحبشة ونشروا فيها الثقافة العربية منذ أكثر من ألفي سنة، فقبيلة الأجاعز استقرت في الأقسام الجنوبية من مرتفعات أريتريا[58]، ومنها انتشرت لغتها الجعزية وهي لغة مكتوبة بين سكان الهضبة[59]، كما أن قبيلة حبشات عبرت البحر إلى الحبشة واستقرت إلى الجنوب من المناطق التي تركزت فيها قبيلة الأجاعز[60]. وفوق هضبة إريتريا وهضبة الحبشة.

وكانت تلك القبائل اليمانية وعلى الرغم من قلة عددها متفوقة حضارياً على السكان المحليين وقد اتسع نفوذها تحت زعامة الأجاعز، وسيطروا على الجزء الشمالي من الحبشة، ثم على سائر البلاد[61]، ونقلوا معالم حضارتهم والمتمثلة باللغة المكتوبة والمهارات الزراعية المتقدمة، والأساليب المتطورة للتحكم بمياه الأمطار والسيول، عن طريق إنشاء السدود والمدرجات والمسطحات على سفوح الجبال وزراعتها[62]، كما نقلوا معهم فنونهم المعمارية من حجر وبناء للقصور[63]، وجمال وخيول، وأهم من ذلك المحاريث[64].

ومن الجدير بالذكر أن هذه الهجرات قد جلبت معها المدنية، وأحدثت في المنطقة وسكانها تغييراً كبيراً، إذ كان الزنوج قبل هجرات العرب حفاة عراة يعيشون حياة بدوية متأخرة، ويعتمدون في عيشهم على الصيد والرعي والقتال، وكانت معرفتهم بطرائق الزراعة بدائية فضلاً عن جهلهم بسمات الحضارة والتمدن[65]، وقد أكد تلك الصلات الإفريقية منذ القرن الأول للميلاد تاجر إغريقي في كتابه (الطواف حول البحر الاريتري) والذي يُعد من أقدم المصنفات التاريخية عن المنطقة، وقد ذكر أن سكان الساحل الشرقي لإفريقيا كانوا يعيشون على شكل جماعات مستقلة (مدن صغيرة أو مراكز تجمع تجاري)، ولكل جماعة منهم زعيم عربي يحكمها بموجب حق قديم يخضعها لسيادة دولة سبأ[66]، ومن الجدير بالذكر أن العرب وصلوا إلى أقصى الساحل الشرقي لإفريقيا ((وهي أقاصي بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين))[67]، وإلى جزيرة مدغشقر[68] المقابلة للساحل في طرفه الجنوبي، وقد دلَّ على ذلك العملات النقدية التي وجدت في الجزيرة والعائدة إلى مطلع القرن الرابع الميلادي[69].

وكانت تلك المراكز التجارية يقصدها سكان الداخل السوداني ومعهم العاج والذهب وسن الفيل والرقيق[70]، ليبادلونها بالبضائع العربية من خناجر ورماح وأقمشة وملابس عربية مطرزة وبطانيات وعطور، ولم يقتصر دور العرب هناك على التجارة فقط، بل كانوا يتزاوجون معهم ويعرفون الساحل بالكامل ويفهمون اللغة[71].

ثم استمر بعد ذلك توافد العرب على ساحل شرق إفريقيا من خلال وصول العديد من الهجرات إليه فاتسعت أسواقهم ومدنهم الساحلية وازداد نفوذهم، وترسخت أقدامهم، إلى أن ظهر الإسلام فأصبحوا وأتباعهم ناقلين له ولتعاليمه ومؤثراته[72].

وكان هناك أعداد كبيرة من الزنوج اختلطت على مر العصور بالعناصر الأخرى الموجودة أصلاً في المنطقة، أو الوافدة إليها، إذ اختلطوا بالأقزام[73] والبشمن[74]، كما اختلطوا بالمهاجرين العرب وتزاوجوا معهم، وقد أُطلق على ذلك التزاوج اسم (البانتو الشرقيين)[75] كما تأثروا ببقية الأفارقة الشماليين، ولاسيما الأقوام المهاجرة إلى إفريقيا من المشرق الإسلامي، وجنوب شرق آسيا، ويظهر ذلك جلياً من خلال لون البشرة الفاتح، واعتدال نسبة الأنف والشفتين وطول القامة[76].

ومن الفئات السكانية الأخرى التي نجمت عن اختلاط المجموعات السكانية، الفولانيين الذين هم نتاج مصاهرة التكرور والمغاربة[77]، وهناك آراء تقول أنهم من اليهود السوريين الذين هاجروا إلى إفريقيا جنوب الصحراء[78]، إلا أن الرأي الأرجح هو أصولهم العربية، إذ

تشير النقوش الموجودة على القبور في عهد الهكسوس إلى وجود ملامح جسمية مشتركة بينهم وبين المصريين، وأنهم هاجروا بعد ذلك إلى السودان الغربي عن طريق المغرب[79].

ويتكلم الفولانيون اللغة العربية فضلاً عن لغتهم الإفريقية الأم، وذلك بحكم اختلاطهم بالعرب ثُمَّ الزنوج، كما عُرف الفولانيين في إفريقيا جنوب الصحراء باسم الفلاتا، إلا أن هذا الاسم حديث بالقياس إلى تسميتهم الأصلية[80].

وهناك فئة أخرى وهي الكانوري (الكانمبو) التي سكنت المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد، والتي اختلطت على مر العصور ببقية السكان[81]، وقد أدى ذلك إلى ضعف الصفات الزنجية النقية ولاسيما اللون، فلم يعد هناك جنس نقي محتفظ بصفاته الأصلية، بل وجدت مجموعات من هذا الخليط[82]، ومن ضمنها مجموعة الكانمبو أو كما يعرفون أيضاً باسم الكانوري[83]، الذين يمتازون بالسواد المائل إلى الرمادي وطول القامة[84]. لذا فإن أولئك الكانمبو عرفوا لدى الهوسا مثلاً باسم (بري بري) والتي تعني المغاربة، أو فريقاً منهم، والكانمبو من الناحية الجسمانية عنصر يجمع صفات من السودان، وأخرى من العرب والمغاربة[85]، ويمكن القول أن هذه المجموعات الثلاث قد استطاعت مجتمعة إقامة حكومة قوية في كانم كان قوامها الكانمبو[86].

كما ظهرت فئة سكانية أخرى تعود أصولها إلى الكانمبو والمسماة بالبولالا[87]، المتأثرة على نحو واضح بالدماء العربية[88]، والمنتشرة في مناطق شرقي بحيرة تشاد[89]، وقد أورد الوزان وصفاً لبلادهم التي سماها كاوكاو قائلاً عنها: أنها ((تتاخم برنو غرباً وتمتد شرقاً إلى حدود مملكة نوبيا الواقعة على النيل، وتنتهي جنوباً بصحراء تتاخم متعرجاً للنيل))[90] ومن الجدير بالذكر أن هناك فئة سكانية أخرى وصلت إلى منطقة بحيرة تشاد في السودان الأوسط، وهم قبائل الصو (العماليق)[91]، إلا أن أصولهم مجهولة تقريباً، إذ أرجعتهم بعض الأساطير إلى الهكسوس[92] حينما غزوا مصر سنة (1670 ق.م)([93]. وقسم آخر يجعلهم من الفولانيين[94]، وقد برز ظهورهم في المنطقة كفئة سكانية بعد القرن الثاني الهجري[95]. ويبدو من خلال ما سبق من كلام عن التركيب السكاني أن هناك فئات في المنطقة نجمت عن تزاوج واختلاط السكان الأصليين مع الوافدين إلى بلادهم لينجم جيل جديد.

ثالثاً: المعتقدات الدينية للأفارقة قبل الإسلام:

تنوعت عبادات السودان وتعددت اتجاهاتها قبل الإسلام، إذ لم يكن هناك ديانة سماوية واضحة يعتنقونها، وقد وصفهم الأنصاري بما نصه: ((ولم يوجد فيهم النواميس ولم يُبعث

فيهم رسول، فالخلق الذي يوجد في غرائزهم قريب مما يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها من غير تعلم ..وطاعتهم لملوكهم وأكابرهم إنما هو لإقامة الأحكام فيهم والسياسات كما ترى في الوحوش))[96]، وأما المؤرخ الوزان فيصفهم بقوله: ((فهم غلاظ بلا عقل، بدون ذكاء ودون خبرة وهم مجردون من جميع مظاهر المعرفة، ويعيشون كالبهائم بدون قواعد ولا شرائع، وتكثر فيهم البغايا، باستثناء القليل منهم، من الذين يسكنون المدن الكبرى، والذين لديهم بعض الشيء من الكرامة الإنسانية))[97]، ولهذا السبب التجأ السودان إلى عبادة ما لا يستطيعون مجابهته من عوامل الطبيعة، فمنهم من ركز على عبادة الحيوانات، ومنهم من عبد أرواح الأسلاف، وآخرين قدسوا حكامهم، أو اتبعوا الديانة المجوسية، فضلاً عن عبادات أخرى، إلا أن المشترك بين الكثير منها ارتكازها على تقديس الأرواح والخوف منها، وتلك المعتقدات سيتم تناولها فيما يأتي .

1- عبادة أرواح السلف (الأجداد) :

اعتقد بعض السودان بخلود النفس بعد هلاك الجسد، وأن الروح هي المبدأ الأساسي المنظم للكون، إذ ساد الاعتقاد بأن أرواح الموتى تبقى قريبة الصلة بعالم الأحياء، وأن لهذه الأرواح وحسب معتقداتهم القدرة على تحقيق الخير أو الشر، وقد جرى العُرف بينهم على تقديم القرابين لأرواح الأسلاف في المناسبات المختلفة[98]، وتمثل هذه القرابين عادة في مقادير معينة من الحبوب أو الثمار أو في بعض ما يمتلكونه من الماشية[99]، وكان السودان قد اقتنعوا بأن الأسلاف هم الذين سنوا لهم تقاليدهم ووضعوا أعرافهم وفرضوا على خلفهم من بعدهم احترام ما سنَوا، وأي خارج على ما أورثوه من سنن لن يفلت من عقوبتهم، كما كانوا يعتقدون بعدم فناء الميت، لأن الروح تبقى وتنتقل إلى عالم آخر، وأن ذلك العالم غير بعيد عن الأحياء فكانوا يحترمون تلك الأرواح ويقدسونها ويلجؤون إليها لطلب الشفاعة، أو لتحقيق الخير على الأرض[100]، ويُعد ذلك الاعتقاد سبباً من أسباب تأخر السودان حضارياً من جهة ارتباطهم الشديد بتراث أجدادهم، وخوفهم من الخروج عليه[101].

وفي السودان الأوسط والغربي اعتقدت بعض القبائل أن الروح تنطلق من ناحية الغرب ـ ويبدو أن هناك ربط بين تلك الفكرة وغروب الشمس، فبغروبها يحل الظلام وتبدأ الأرواح بالظهور ـ وأنها في الوقت نفسه تبقى إلى جانب قبر صاحبها[102] ولابد من تقديم القرابين لإرضائها في المناسبات لاعتقادهم أن الموتى من الآباء والأجداد يهيمنون على الأبناء من وراء قبورهم، إذ إنهم المؤسسون للأسرة أو القبيلة، والقوامون على حفظ القانون والنظام والأخلاق، وأن لهم الحق في عقاب المذنبين ومكافأة الصادقين حسب اعتقادهم[103].

وكانت الأقنعة وسيلة من وسائل التخاطب مع الأجداد، وعادةً ما يرتديها السودان في الحفلات المقدسة، إذ يعتقدون أن الإنسان يبدو بوجه الحق ولأن الإنسان له وجهان، وجه يظهر للعيان، وآخر خفي، وكان عيد الغول من بين الأعياد التي يرتدي فيها السودان الأقنعة، وكان هذا العيد يقام للمقربين كالوالدين والزوجات[104].

2- الطوطمية[105]:

قدس السودان كائنات حية نباتية وحيوانية كانت لها مكانة محترمة لدى القبيلة، اعتقدوا أن أجدادهم الأولين منحدرين منها، وهناك طوطم الشخص وطوطم الجنس والقبيلة[106]، ورأت بعض القبائل أنها من سلالة الفهد، ومن المالانكة – في أعلى النيجر – من يعتقد أنه في ظل حماية الحيوان[107]، وبدأوا بعبادة الحيوانات كالأفاعي، لأنهم وجدوها قريبة الصلة بالإنسان، ولها أرواح كأرواح البشر، وبعضها شرير لذا كانوا يمتنعون عن اقتناصها أو أكل لحومها، ويتخذون من الشعائر ما يكفل لاستبعاد أذاها، أو لاعتقادهم أن أجدادهم الأولين منحدرون منها[108].

إذ كان سكان مدينة زافون[109] يعبدون ((ثعباناً عظيماً له عرف وذنب ورأسه كرأس البختي[110]))، وكان لهذا الثعبان مكانة كبيرة في حياتهم، من خلال إشراكه في عملية اختيار حكام البلاد، والمتمثلة في جمعهم لأولاد الحاكم المتوفى من حكامهم في مكان تواجد ذلك الثعبان، فيتقرب منهم الواحد بعد الآخر، وحينما ينفخ في وجه أحدهم يصبح ذلك الشخص هو الحاكم القادم، ويقوم باتباع الثعبان وهو عائد إلى مغارته ويقطع من ذنبه أو عرفه شعرات، فيحكم بعدد ما قطع منها، وهي سنَة متبَعة لديهم[111].

وينتقد مؤلف مجهول ذلك الفعل لسكان المدينة بقوله: ((أن هذه الفتنة فيهم إنما هي لأن الثعبان يُعَمر حتى يزيد على ألف سنة ولأن عقولهم في غاية الركاكة))[112]، وكانوا يضعون أمام ذلك الثعبان نفيس الثياب والمتاع، وجفان الطعام وعساس اللبن والشراب[113]، ويُعد هذا الأمر غاية في التخلف. إذ يذكر محمد بيلو عند كلامه عن إقليم برنو بقوله: ((حدثونا أن لسلاطينهم وأمرائهم اليوم مواطن يركبون إليها، ويذبحون لها، ويرشون الدماء على أبواب قريتهم، ولهم بيوت معظَمة فيها حيات وأشياء يذبحون لها))[114]، وهي عادة عرفها سكان غرب إفريقيا أيضاً، ولهم فيها قدم وقد أشارت إلى ذلك العديد من المصادر والمراجع[115].

ولم يختلف الأمر في السودان الغربي كثيراً، فقد قدسوا الأفاعي ولاسيما في غانة التي كان يقدَم سكانها كل عام إحدى الفتيات قرباناً لتلك الحية، وكانوا يحَرمون قتلها لأنها مصدر

خير وسعادة، وأن قتلها من وجهة نظرهم يولد مصائب لتلك المدينة، ويزعمون أن الأفاعي كانت تحتفل بتتويج الزعماء الجدد بخروجها من أوكارها[116]، كما كانت لديهم أسطورة تقول أن الإله الثعبان (واجادوبيدا) كان يقوم بحماية السكان وزيادة ثرواتهم في مقابل ثمن رهيب كانوا يقدمونه عن طيب خاطر في احتفال صاخب يقام كل عام، إذ يتم اختيار أجمل الفتيات لتقديمها قربان للحية[117]. وكان خوفهم من الأفاعي وتقديسهم إياها قد تم بعد قيام مجموعة منهم بقتل الثعبان الذي كان يعبده أجدادهم، بعد أن ضجروا من بطشه بهم، إلا أنهم ندموا بعد قتله لأن محاصيلهم الزراعية تأثرت وتوقف سقوط المطر،وانتقلت مناطق الذهب إلى الجنوب[118].

ويبدو أن حقيقة الأمر في عبادتهم للثعبان تعود إلى كونها خطرة جداً إذ لم يكونوا ليسلموا منها هم وحيواناتهم، لاسيما وأنها كانت كبيرة الحجم بحيث تتمكن من ابتلاع إنسان بأكمله، وبعد أن تعمر تلك الأفاعي تذهب إلى الكهوف وتبدأ أسنانها بالسقوط، كما أن حالة الخوف تلك كانت قد أوصلتهم إلى الحد الذي يعتقدون فيه أنهم إذا ما مشى أحدهم على أثرها فسوف يموت، وإذا قُتلت، وأمسك القاتل بما قتلها به من عود أو حربة في يده ولم يُلقِها بسرعة فسيموت[119].

كما عبدوا بعض الأشجار كالجمين، وكانوا يذبحون على جذوعها خرفاناً سوداً تقرباً لها [120]، معتقدين أن للأشجار روح ولذا فكانوا يسترضونها بالقرابين والأدعية قبل قلعها[121].ويبدو من خلال النصوص السابقة أن السودان ركزوا في عبادتهم على الحيوان وعلى الغابات كمكان لمعيشته، لا بل حاولوا من خلال أساطيرهم الدمج بين الإنسان والحيوان والمؤاخاة بينهما، وأن الحيوان توأم الإنسان وبذلك يستطيع الإنسان أن يظهر في شكل توأمه من الحيوان[122]، ويعزى الإسراف في مسألة الربط بين الإنسان والحيوان إلى أسباب عَدة منها: وجود رواسب من معتقدات طوطمية كانت تسود الجماعات المتهمة بالانحدار من أصل حيواني، وكذلك جهل الجماعات بحقيقة بعضها بسبب صعوبة المواصلات في الماضي، وعدم الاحتكاك والالتحام بينها، مع جهل بعضها بلغات البعض[123].

ومن معتقداتهم الأخرى تقديس بعض عناصر الطبيعة كالأرض والمياه وما إلى ذلك، ويمكن ملاحظة بعض هذه المعتقدات والطقوس في دولة كانم من خلال بعض النصوص التاريخية ومن ذلك ما أورده محمد بيلو في حديثه عن سكان إقليم برنو: ((ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية ولهم في ذلك أعياد يجتمعون فيها هم وقرائهم وسلاطينهم،

ويسمون ذلك عادة البلد، ويزعمون أن ذلك صدقات يستعينون بها على جلب المصالح ودرء المفاسد، فإذا لم تفعل تلك العادة بطلت معائشهم، وقلت أرزاقهم، وضعفت شوكتهم، وتوارثوا هذه العوائد كابراً عن كابر))[124].

ومن الجدير بالذكر أن تقديس مظاهر الطبيعية ناجم من عمق الإحساس بالروابط الوثيقة التي تربط المجتمع البدائي بالبيئة الطبيعية، إذ إن من الشائع في هذه المجتمعات الاعتقاد بأن للأشياء أرواحاً تحل فيها كالأشجار والأحجار والأنهار الخ، ولها تأثيرها الكبير في حياتهم، مما يستلزم تقديسها وإقامة الطقوس الدينية المناسبة حسب اعتقادهم[125].

كما قدّس البورانا ـ قوم من الجالا[126] ـ حيوانات، كالتمساح والثعبان والبومة[127] وكما في السودان الشرقي، فإن تقديس الحيوانات قد امتد إلى السودان الأوسط، وكان في منطقة بحيرة تشاد للخروف مكانة مقدسة ولاسيما عند جماعات الصو، لذلك برزوا في صناعة الفخار على شكل الخراف[128]، ويبدو أن عبادة الخروف قد وصلت إلى إفريقيا جنوب الصحراء عن طريق مصر، إذ كانوا يرمزون إلى معبودهم خنوم بصنم على شكل كبش[129].

3- عبادة الأصنام :

لقد كان لكل فئة أو مجموعة من السكان صنم خاص بهم، فكان الصنم الذي يعبده الرنافج يسمى (حجافوا)[130]، وهناك فئة أخرى تصب على معبودها المصنوع من الحجارة دهن الحيتان[131]، وفي بلاد الحبشة كانت عبادة سكان اكسوم ترتكز على تقديس إله الحرب والذي كانوا يطلقون عليه اسم (محرم)، ويعزون إليه نصرهم في المعارك التي يخوضونها[132]. وكان سكان الحبشة على نحو عام وثنيين، ولاسيما قبل اعتناقهم النصرانية كديانة سماوية ومن ثَم أسلم بعضهم في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي[133]، وكان السودان يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم من مواد مختلفة كالبرونز والأخشاب والطين والأحجار، ويتقربون إليها بالقرابين الضخمة[134]، أما سكان مملكة دمدم فكانوا يذهبون إلى قاعة موجودة في بلدهم وعليها صنم في صورة إمرأة، يبتهلون له ويحجون إليه[135]، ويطلق المؤرخ البكري على تلك الأصنام اسم الدكاكير[136]، ولكل بطن من بطون البجة الداخلة كاهن يقتدون به[137].

4- تقديس الحكام:

ومن المعتقدات الأخرى في بلاد كانم هو تقديس الملوك، فقد كان الملك أو (الماي)[138]، في كانم محل تعظيم من قبل رعيته، وقد وصل هذا التعظيم قبل الإسلام حداً اعتقد فيه بعض

الباحثين أن الملك بمثابة الإله المعبود الذي تقدم له فروض الطاعة والولاء من قبل رعيته، وتنسب إليه مصادر القوة الكهنوتية المقدسة، ولاسيما أن الحموي قد أشار صراحة إلى مثل هذه الألوهية عند تسجيل أخبار (زغاوة) سكان كانم: ((وديانتهم عبادة ملوكهم، ويعتقدون أنهم الذين يحيون ويميتون، ويمرضون ويصحون ... ويد (ملك زغاوة) مطلقة في رعاياه، ويسترق من يشاء منهم ... وهم يعظمونه ويعبدونه من دون الله تعالى، ويتوهمون أنه لا يأكل الطعام ...))[139] وفي غياب المعلومات الدقيقة عن ملوك زغاوة يصعب تأكيد أو نفي ما جاء في كتاب الحموي عن ألوهية ملوك كانم قبيل الإسلام، وإن كان لا يستبعد ذلك في خضم تلك المعتقدات الوثنية المتنوعة، ولاسيما أن الطابع الغالب على المعتقدات الوثنية عموماً هو ((عدم الفصل بين الدين والمجتمع، فالدين مصدر قوة الحاكم في رعاية شعبه، والحاكم يعتمد على أسس دينية تدعم مركزه وتقوي أركانه))[140] وأن تقديسهم للملوك نابع من اعتقادهم أنهم يمثلون الواسطة بينهم وبين آلهة أخرى، مما دعا البكري إلى إطلاق صفة الإشراك عليهم[141].

5- **المجوسية**[142]:

انتشرت تعاليم المجوسية بين السكان السودان[143]، فأشار اليعقوبي إلى أن سكان مملكة بلقين في بلاد البجة كانت ديانتهم الوثنية، ((يضارعون فيه المجوس والثنوية، فيسمّون الله عز وجل الزنجير الأعلى، ويسمون الشيطان صحى حراقه))[144]، ويصف الأنصاري ديانة الحبشة بقوله: ((أن الحبشة العليا كفار عراة، ودينهم المجوسية يعبدون الأوثان، ويسمونها الدكاكير))[145].

كما أن هناك من النوبة من يعبد الشمس والنار[146]، ويذكر الوزان، أن ((الأفارقة في قديم الزمان مجوس على غرار الفرس الذين يعبدون الشمس والنار وكان لهم معابد مزدانة تكريماً لهذه وتلك وكانت النار توقد داخلها وتُحرس ليل نهار حتى لا تنطفئ))[147]، كما يشير الزهري، إلى مقاطعة المسلمين لقبيلة أميمة - إحدى قبائل جناوة - ((لاعتناقهم المجوسية، ولكفرهم لا يدخل إليهم أحد، ولا يجلب إليهم من الأمتعة شيء))[148]، كما قدس بعض النوبة قبل تنصرهم الكواكب ونصبوا التماثيل لها[149].

6- **تقديس إله السماء :**

أكد كثير من الباحثين الذين بحثوا في ديانات الشعوب على وجود فكرة الوحدانية في عقائد بعض السودان[150]، إلا أنه قد طغى على تلك الفكرة الغموض والتشويش بسبب امتزاجها بالمعتقدات الوثنية الأخرى المنتشرة في إفريقيا جنوب الصحراء، ويرى البعض أن

فكرة الاعتقاد بالإله الواحد لدى الأفارقة ترجع في أصولها إلى الوحدانية في الديانات السابقة للإسلام، أو أنها ترجع أصلاً للعقائد المصرية القديمة التي كان بعضها يقر بالتوحيد[151]، وسواء أكان هذا الافتراض صحيحاً أم غير صحيح، فإن من المؤكد أن الوحدانية تمثل في أساسها الأول (النزعة الفطرية) للإنسان، والتي هي أسبق من أي معتقد أو عقيدة أخرى يمكن أن يعتنقها الفرد[152]، وكان المؤرخ الوزان قد نبه إلى ذلك بقوله: ((أن بعض الأفارقة السود كانوا يعبدون كيغيمو، ومعناه في لغتهم رب السماء وقد أحسوا بهذا الشعور الحسن من غير أن يهديهم إليه نبي أو عالم))[153].

لقد اعتقد السودان أن ذلك الإله بعيد جداً عن العالم، ويتخذ له أسماء مختلفة، فأقاموا له المعابد والاحتفالات في كل مكان، وهناك قصص عديدة عن كيفية خلق هذا الإله للكون والإنسان، وتتسم معظمها بالخرافة ويسودها جو الأساطير[154]، لقد اقتنع الماندبون – مؤسسو دولة مالي – بالأسطورة التي تتحدث عن قيام الإله الأعظم بخلق طفلين توأمين في بداية خلقه للبشر وأن جميع الأرواح الكائنة في الطبيعة، من إنسان ونبات وحيوان نشأت منهما، وأنهما قد حلا محل الإله في مراقبة أعمال البشر على الأرض[155]، وذلك لأنهما قد أودعا سر الحياة وروحها، ولذلك انبرى السودان لتقديس أرواح الأجداد وتقديم القرابين لها[156]، ويبدو مما سبق أن تلك العبادة لم تكن لتصل إلى حد العبادات التوحيدية، أو أن تكون عبادة حنيفية، إلا أنه يمكن القول بأنها كانت بادرة لتقبل السودان لديانة سماوية توحيدية.

وكان في بلاد النوبة مجموعة تؤمن بوجود إله في السماء، ويشير المؤرخ المقريزي إلى ذلك بقوله: ((أن هناك رجلاً مسلماً التقى بآخر من النوبة فسأله عن دينه فأجاب النوبي إن ربي ورب الملك هو الله، فقال له المسلم: ألم تسمع ببعث موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فأجاب: كلا ولكن إن كانوا قد بُعثوا فقد صدقوا))[157].

وفي السودان الأوسط ولاسيما في كانم سادت معتقدات عديدة، ولعل من أبرزها عبادة الإله الواحد[158] إلا أن عبادتهم للأصنام والحيوانات والتي أشرنا إليها سابقاً كانت تتنافى مع هذا الكلام الدال على الوحدانية، ولكننا نستطيع أن نلاحظ وجود دلائل تقديس إله واحد في بعض بقاع إفريقيا، إذ يذكر الوزان ذلك بقوله: ((وكانوا يعتقدون في كائن أعلى يدعى (واك) ويرادف هذا المعنى السماء كما يعتقدون في رب وربة من المرتبة الثانية اسمها اجلي واتيتي (ATEETE)[159].

7- اليهودية :

عرف اليهود الموجودون في إفريقيا جنوب الصحراء والمتمركزون في الحبشة باسم

الفلاشة، أو الفلاشا[160]، وهذه الكلمة مشتقة من كلمة (Flasha) أو (Falas) أو فلاي وتعني بالعبرية (المهاجر)، أو الداخل للأرض عنوة[161]، وتعني أيضاً الأجنبي أو الغريب أو المنفي[162]، كما يسمون باليهود السود[163].

ولا يعرف بالتحديد تاريخ مجيئهم إلى الحبشة، ويرى بعض الباحثين أن هجرتهم كانت حوالي سنة 586 ق . م عندما فتح نبوخذ نصر[164] بيت المقدس وشتت شملهم[165]، ورأى آخرون أن هجرتهم أيام حكم البطالسة[166] على مصر[167]، في حين يرى فريق ثالث أنهم من الاجاو المتحولين إلى الدعوات اليهودية من اليمن في القرن الثالث أو الرابع الميلادي[168]، وهناك من يقول: ((بأن مجيئهم كان على هيئة أفراد، ثم انضموا إلى جانب المهاجرين العرب قبل الميلاد))[169]، واليهود أنفسهم يزعمون أن أصلهم يعود إلى النبي سليمان ﵇، ويربط الأحباش تاريخهم بقضية النبي سليمان ﵇ مع ملكة سبأ[170]، إلا أن هذا الانتساب ليهود الحبشة أسطوري، ويمكن دحضه من خلال أن مملكة أكسوم لم تعتنق ديناً قبل النصرانية غير الوثنية، ولو كانت العائلة المالكة في الحبشة تنحدر من نسل النبي سليمان (لما حمل اليهود في الحبشة اسم المنفيين أو الغرباء أو الأجانب، ولو أنهم كانوا من نسل ذلك النبي العظيم لما مكثوا في عزلة عن بقية أجناس اليهود في بقية الأماكن[171].

ومّما يؤكد عدم وجود اليهود في الحبشة بكثرة، وعدم أهميتهم، هو إغفال المؤرخون المسلمون كالمسعودي والعمري والمقريزي والقلقشندي، لذكرهم فيها، إذ لم يؤثروا في تاريخ المنطقة[172]، كما أن أولئك اليهود عاشوا منعزلين عن بقية السكان من النصارى، فعاشوا في قرى ومدن منعزلة عن الأمهريين النصارى لدرجة تحرم عليهم الدخول في منازلهم أو الطعام معهم[173]، أو تزويجهم بناتهم، كما يندر أن يتزوج اليهودي الحبشي من فتيات نصرانيات، وكان أولئك اليهود ملتزمين بتعاليم دينهم محافظين على شعائره ولاسيما حرمة السبت، الذي يبدأ الاستعداد له من ظهر يوم الجمعة، فيذهب كل من لا يقعده المرض إلى الأنهار فيغتسلون ويلبسون لباساً جديداً[174].

وكان اليهود في إفريقيا جنوب الصحراء معزولين لا يرغب أحد في معاشرتهم، وكان حاكم مدينة تمبكتو عدواً لدوداً لهم لا يريد أن يقطن أحداً منهم في المدينة وإذا علم بمخالطتهم أو الإتجار معهم صادر أموال ذلك التاجر[175]، كما كانوا عرضة للسبي إذا ما خرجوا من أماكن تجمعهم في الحبشة، فكان أهل مدينة زافون يسبونهم من قبائل لملم واميمة[176]، ولهذا لم يكن لأولئك اليهود أي أثر في تاريخ المنطقة.

ولا يُعرف على وجه الدقة فيما إذا كانت الديانة اليهودية قد استطاعت فعلاً من النفوذ إلى المناطق الداخلية وصولاً إلى السودان الأوسط والغربي قبل مجيء الإسلام (القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي)، فقد كان نفوذ اليهودية محدداً إذ لم تتمكن من الدخول إلى أفئدة القوم بوضوح، كما لم تتمكن من كسر الحواجز المختلفة بين الشمال والجنوب من جهة والشرق والغرب من جهة أخرى كما فعل الإسلام والمسلمون، غير أن من الواضح تاريخياً أن الديانة اليهودية وكذلك النصرانية قد سجلت تواجداً ملحوظاً في شرق إفريقيا فيما بعد[177].

8- **النصرانية :**

يعد القرن الرابع الميلادي البداية الحقيقية لدخول النصرانية إلى إفريقيا جنوب الصحراء ولاسيما إلى مملكة اكسوم[178]، إذ بدأت تلك المملكة باعتماد النصرانية ديناً لها، وعقدت تحالفاً مع الامبراطورية البيزنطية[179] وقد بلغت مملكة اكسوم قمة التوسع والنمو في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي في عهد الملك (عيزانا ـ Ezana)[180] والذي اخضع في عهده البجة، والقبائل الساكنة إلى الشرق والجنوب الشرقي من اكسوم، ثم عاد وهاجم بلاد النوبة [181].

وكان عيزانا قبل دخوله النصرانية معتز بوثنيته السابقة، وقد بدأت جميع نقوشه بعبارة: ((أنه ملك اكسوم وحمير وريدان وسبأ وسيداميو وبيجا وكاسو وساكن، ابن الإله محرم))[182]، إلا أن تلك العبارة تبدلت لتصبح (رب السماوات والأرض)[183]، كما أبدل الرموز الوثنية التي كانت توضع على النقود المسكوكة، بشكل الصليب[184]، ومنذ ذلك الوقت بدأت النصرانية بالانتشار في الحبشة، كما بدأ الترابط الوثيق بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة الحبشة وكان من واجبات بطريرك الإسكندرية تعيين أسقف (مطران) للحبشة[185].

وذكر ترمنجهام (Trimigham) أن النصرانية ظهرت في بلاد الحبشة وكانت دين الملكية في بادئ الأمر، ثم أصبحت دين الشعب بشكلها المينوفستي[186]، واستمرت كذلك حتى سقوط مملكة الحبشة النصرانية بيد المسلمين[187]، وكان للملك أو الحاكم النصراني في إفريقيا جنوب الصحراء مكانة كبيرة تصل إلى مرتبة الآلهة ويدين له المجتمع بالولاء والطاعة العمياء[188]، ومما تجدر الإشارة إليه أن نصارى النوبة قد تأثروا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح متأثرين بالأقباط في مصر[189]، وكانوا لا يطئون النساء في الحيض، ويغتسلون من الجنابة ويختتنون [190]، ومن الواضح الشبه بين تلك التعاليم والتعاليم الإسلامية .

وفي بربرة[191]، كان الناس يدينون بدين النصرانية، ويتصفون بوسم وجوههم بتشاريط، رجالاً ونساءً لكي يتم تمييزهم، كما كانوا يرتدون الملابس الجلدية، وكثيراً ما تعرض أولئك

السكان للسبي من قبل أهل تادمكة[192] وغيرهم من القبائل المجاورة لهم[193]، إلا أن مجيء الإسلام قد وضع حداً للكثير من المشكلات الحاصلة بين السكان، ونظم العلاقات بين المسلمين وغيرهم من معتنقي الديانات الأخرى من خلال إبرام العديد من المعاهدات، التي من ضمنها معاهدة البقط[194]، والتي جعلت التعايش فيما بين المسلمين والنصارى وحتى الوثنيين واضحاً وسهلاً[195].

ويتحدث القلقشندي[196]، عن ملك النصارى في الحبشة واصفاً جلوسه في قصره، إذ يجلس على كرسي ويجلس حوله أمراء مملكته وكبراؤها على كرسي من حديد، فمنها ما هو مرصع بالذهب ومنها ما هو اعتيادي على قدر مراتبهم، وفي هذا إشارة إلى التحول الحضاري الحاصل في قصور الملوك بعد ظهور النصرانية. ويبدو مما سبق أن المعتقدات البدائية هي التي كانت سائدة في إفريقيا مقابل تواجد بسيط لليهودية والنصرانية والتي بقيت كذلك حتى وصول الإسلام وانتشاره.

الهوامش

(1) أبي عبيد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية (دمشق: 1968)، ص93 ؛ نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان (بيروت: 1967)، ص9؛ يوسف فضل حسن، دراسات في تاريخ السودان (بيروت: 1967): 20/1. ويربط المسعودي بين طبيعة المناخ في بلاد السودان وبين لون البشرة بقوله: "أن ألوانهم اسودت واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم وذلك لالتهاب هوائهم وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت الوانهم". انظر: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، التنبيه والأشراف (بيروت:1965)، ص24.

(2) احمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (بيروت: 1987): 272/5.

(3) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت: 1956): 84/1.

(4) محمود بن الحاج المتوكل كعت، التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور، (باريس: 1913)، ص 20؛ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، تاريخ السودان، (باريس: 1964)، ص 39.

(5) كان البكري أول من ورد عنده اسم تكرور وقد أطلقه على مدينة توجد على الضفة اليسرى من نيل السودان (نهر السنغال). انظر: أبو عبيد البكري، المُغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، (الجزائر: 1859)، ص 172؛ ثم تطورت التسمية لتشمل عند بقية المؤرخين المغاربة والسودان كل منطقة بلاد السودان. انظر: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، (الجزائر: 1982)، ص91؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 64؛ أبو عبد الله الطالب الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، (بيروت: 1981)، ص 26.

(6) أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (لايبسك: 1923)، ص 297.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى: 286/5.

(8) القلقشندي، المصدر نفسه: 273/5؛ عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (الجزائر: د/ت)، ص15–16؛ باسيل دافيد سون، أفريقية القديمة تُكتشف من جديد (القاهرة: د/ت)، ص103؛ أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني ـ امبراطورية مالي ـ 1230/ 1430م، (أبو ظبي: 1999)، ص 58.

(9) الأصطخري، المسالك والممالك، ص30.

(10) ابن حوقل، صورة الأرض، ص103؛ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك

الأمصار، الباب العاشر، (الرباط: 1988)، ص66؛ دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء (الموصل: 1985)، ص21.

(11) البكري، المُغرب، ص172.

(12) الشاطر بصيلي عبد الجليل، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط (القاهرة: 1972)، ص412.

(13) الفزاري: هو محمد بن إبراهيم الفلكي (ت: 180هـ/796م) الذي كلفه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بتأليف كتاب سماه (الزيج القديم في فنون التعديل والتقويم)، وأشار إلى وجود الذهب في السودان الغربي. انظر: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بابن النديم، كتاب الفهرست، (د/م: 1971)، ص332؛ خير الدين الزركلي، الأعلام – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين – (بيروت: 1969): 177/2.

(14) ابن حوقل، صورة الأرض، ص99.

(15) الأصطخري، المسالك والممالك، ص2-4؛ أبو القاسم عبد الله بن عبد الله بن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن: 1889)، ص93؛ الشكري، الإسلام، ص19.

(16) الوزان، وصف إفريقيا: 29/1.

(17) كوار: إقليم من بلاد السودان يقع جنوب مدينة فزان المغربية، وكان عقبة بن نافع قد افتتحه وأسر ملكه وكان له معه حادثة مشهورة، إذ قام بقطع أصبعه، وحينما سأله الملك عن سبب فعلته تلك قال لكي تتذكر كلما تراها أن لا تحارب العرب. انظر: الحموي، معجم البلدان: 486/4 ؛ الادريسي، صفة المغرب، ص38.

(18) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب (القاهرة: 1961)، ص38.

(19) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب اليعقوبي، كتاب البلدان (النجف: 1955)، ص376 ؛ تاريخ اليعقوبي (بيروت: 1955): 193/1.

(20) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 25.

(21) أودغست: هي مدينة تبعد عن غانة بضع عشرة يوما، وهي مركز تجاري مهم إذ تخترقها القوافل القادمة من سجلماسة إلى بلاد السودان الغربي، ومدينة أودغست كانت تُحكم من قبل حكومة سوننكية بربرية حتى احتلها ملك غانة الوثني، ومن ثم استعادها المرابطين سنة 446هـ/1055م انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص91 . وقد ذكرها اليعقوبي باسم (غطس). انظر: كتاب البلدان، ص360.

(22) ازقي: وتسمى أيضاً ازكى وهي مدينة من بلاد مسوفة وهي أول مراقي الصحراء ومنها إلى سجلماسة (13 مرحلة) ومنها إلى مدينة نول (7 مراحل)، وهذه المدينة ليست بالكبيرة لكنها متحضرة. انظر:

الإدريسي، صفة المغرب، ص60 . والمرحلة هي ما يقطعه المسافر في اليوم الواحد وتقدر بحوالي (35 كم). انظر: شاكر خصباك، رواد الجغرافية العربية - بحث منشور في مجلة الاستشراق - (بغداد: 1990)،ع4، ص51. ومعنى ذلك أن المسافة بينها وبين مدينة سجلماسة (455 كم)، وبينها وبين مدينة نول (245 كم) .

(23) وارقلان: وهي مدينة فيها قبائل غنية وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم، ومنها إلى غانة (30 مرحلة) وسكانها خوارج اباضية. انظر: الإدريسي، المصدر نفسه، ص 120.

(24) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية (دمشق: 1968)، ص137.

(25) أبو حامد عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الاندلسي الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: إسماعيل العربي، (المغرب: 1993)، ص41؛ الشكري، الإسلام، ص69.

(26) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار والعباد، (بيروت: 1960)، ص 24.

(27) تمثل أقسام بلاد السودان الثلاثة في الوقت الحاضر الدول الآتية: فالسودان الغربي يشمل حوض نهر السنغال ونهر غمبيا والمجرى الأعلى لنهر فوتا والحوض الأسفل لنهر النيجر أي دول السنغال وموريتانيا وغينيا ومالي وغانا، أما السودان الأوسط فيشمل حوض بحيرة تشاد وفيه دول جاد والنيجر والكامرون وجمهورية إفريقيا الوسطى، والسودان الشرقي يشمل الحوض الأعلى لنهر النيل أي دول السودان والصومال وأثيوبيا وكينيا وأوغندا. ينظر : دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي وآخرون، (القاهرة: 1976): 12/337-338.

(28) نوري، تاريخ الإسلام، ص289.

(29) لسان الدين الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب (بغداد: 1989)، ص77.

(30) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المقدمة (بيروت: 1984): 1/84 .

(31) عدنان مراد، المجتمعات الإفريقية - أصولها تاريخها وشعوبها وثقافتها -، اتحاد الكُتاب العرب، (دمشق: 1995)، ص19.

(32) وفيق حسين الخشاب وإبراهيم عبد الجبار المشهداني، (بغداد: 1978)، ص13.

(33) محمد، الشعوب، ص46 .

(34) مقديشو: مدينة في أول بلاد الزنج جنوب اليمن في بر البربر وهؤلاء البربر غير البربر الذين هم بالمغرب لأنهم سود يشبهون الزنوج وهم جنس متوسط بين الحبش والزنوج، ومدينة مقديشو على ساحل البحر. انظر: الحموي، معجم البلدان: 5/173.

(35) سفالة: وهي آخر مدينة تعرف بأرض الزنج والحكاية عن سكانها أنهم كأصحاب بلاد التبر إذ يجلب إليهم الأمتعة ويتركها التجار ويمضون ثم يجيؤون وقد تركوا ثمن كل شيء عنده. انظر: الحموي، معجم البلدان: 224/3.

(36) المسعودي، مروج الذهب: 424/1.

(37) الدجيلي، العلاقات العربية، ص32.

(38) مراد، المجتمعات الأفريقية، ص19.

(39) وقليمي: يقصد به الزنوج ((ابن الرب الكبير)) لأنه اختاره للكهم والعدل فيهم. انظر: المسعودي، مروج الذهب: 1/ 436.

(40) المسعودي، المصدر نفسه: 424/1.

(41) مراد، المرجع نفسه، ص20.

(42) المشهداني، أفريقيا، ص12.

(43) طرخان، دولة مالي الإسلامية، (القاهرة: 1973)، ص26؛ خليل إبراهيم جاسم، امبراطورية مالي الإسلامية – دراسة حضارية – (632 ـ 793هـ / 1235 ـ 1390م)، رسالة ماجستير غير منشورة (الموصل: 1980)، ص9.

(44) نوري، تاريخ، ص219.

(45) السوننك: وهم مؤسسو امبراطورية غانة ـ في القرن الرابع الميلادي، ويُعد السوننك إحدى قبائل الماندنجو الذين كانوا يقيمون سابقاً في الصحراء وثم تركوها واتجهوا إلى الحافة الجنوبية وامتزجوا بالبربر والفولانيين والسوننك زراع مرتبطون بالأرض إلا أن ذلك لم يمنع من اشتهارهم بعملهم التجاري. انظر: طرخان، امبراطورية غانة الإسلامية، (القاهرة: 1970)، ص51.

(46) Murphy , History Of African , P. 96.

(47) Murphy , Op . Cit, P. 121.

(48) مسوفة: وهي إحدى القبائل التابعة لصنهاجة المغربية، كانوا يتنقلون في الصحراء قبل استقرار بعضهم في مدن كبيرة كمدينة تمبكتو. انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص98؛ الإدريسي، صفة المغرب، ص59؛ الحميري، الروض المعطار، ص470.

(49) ابن حوقل، صورة الأرض، ص97.

(50) السعدي، تاريخ السودان، ص9؛ طرخان، امبراطورية غانة، ص23.

(51) البكري، المغرب، ص181؛ الحميري، الروض المعطار، 128.

(52) الزغاوة: وتعني المعسكر أو المخيم في لغة الطوارق والزغاوة شعب خليط من الزنوج والتيبو الليبيين، وكانت أوطانهم تمتد غرباً إلى إقليم النيجر غير أنهم نزحوا عنها وعاشوا شمال غرب دارفور وقسم منهم يسكن في كردفان ويتكلم الزغاوة اللغة العربية مع تكلمهم لغة التيبو. انظر: نوري، تاريخ الإسلام، ص 288.

(53) Trimingham , Ahistory Of Islam , P . 110.

(54) الولوف والسيرر: هما قبيلتان تسكنان شمال منطقة الغابات على امتداد نهر السنغال، ولكنهما اندمجتا بعد ذلك بقبيلة التكلور لعوامل اقتصادية مستفيدين من التجارة عبر الصحراء. انظر:

Murphy , History , P . 105

(55) Murphy, Op, CiT .

(56) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، (القاهرة: 1961)، ص 17.

(57) التيبو: هم سكان الصحراء االشرقية والذين تركزوا على نحو أساسي في هضبة تبستي وما حولها والواقعة إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، إذ يعتقد البعض أنهم استمدوا اسمهم من سكناهم في تلك الهضبة، ويجمع التيبو بين خصائص المغاربة والزنوج لذلك يصعب رد أصولهم إلى جنس معين فهم ليسوا بيضاً صرحاء ولا سود خالصين وإنما هم شعب هجين. انظر: الجوهري، السلالات، ص364؛ دائرة المعارف الإسلامية، (مادة: تبو): 4/ 572.

(58) J . S Trimingham , Islam In Etheopia , (oxford University : 1976), P . 32.

(59) علي، المفصل: 3/450؛ بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص76؛ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ (د.م/د.ت)، ص70؛ نوري، تاريخ، ص60.

(60) عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، (د.م/د.ت) ص 11؛ العارف، الأحباش، ص 10.

(61) علي، المفصل: 3/449؛ عابدين، المرجع نفسه، ص13.

(62) العارف، اريتريا بين احتلالين، ص13؛ نوري، تاريخ، ص61.

(63) جورج.هـ.ت.كيمبل، إفريقية المدارية. الأرض وطريق المعيشة، (القاهرة:1967)، ص 79؛ ويدنر، تاريخ إفريقية، ص40.

(64) Mordechai Abir, Ethiopia And The Red Sea (London : 1980) P,15.

(65) المسعودي، مروج الذهب: 424/1 ـ 425.

(66) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت: 1971): 7/ 261–262 .

(67) المسعودي، مروج الذهب: 1/ 424.

(68) جزيرة مدغشقر: وهي جزيرة كبيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب في المحيط الهندي وهي مقابلة لساحل شرق إفريقيا في طرفه الجنوبي وقد دخلها الإسلام منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي. انظر: المسعودي، مروج الذهب: 113/1.

(69)دافدسن، إفريقيا تحت أضواء، ص244.

(70) جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، (القاهرة:1975)، ص54؛ النقيرة، انتشار الإسلام، ص24 ـ 25.

(71) ينظر: علي، المفصل: 3 / 449.

(72) حول الهجرات العربية إلى ساحل شرق إفريقيا. ينظر: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبو جعفر الطبري، تاريخ الرُسل، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: 1967) : 376/8؛ المسعودي، مروج الذهب: 181/2؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص131؛ أبن بطوطة، تحفة النظار، ص193؛ قاسم، الأصول التاريخية، ص59؛ محمد حسين الزبيدي، هجرة العرب والمسلمين إلى شرق إفريقيا بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي،ع23,1983، ص101 وما بعدها.

(73) الأقزام: وهي سلالة قليلة العدد لم يقتصر وجودها على القارة الأفريقية بل يمتد انتشارها شرقاً إلى المحيط الهادي ويطلق على أفرادها عبارة الزنجي الصغير إلا أن قلة عددهم وانحسار أماكن تواجدهم داخل القارة أضعف من تأثيرهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي. انظر: محمد، الشعوب، ص41.

(74) البشمن: وتسكن تلك المجموعة وسط صحراء كلهاري في الجنوب الغربي من إفريقيا وهم قليلو العدد كالأقزام ويحملون صفات طبيعية خاصة بهم تميزهم عن غيرهم من الأقوام. انظر: محمد، الشعوب، ص 29.

(75) محمد عبد الله النقيرة، انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له (الرياض: 1982)، ص40.

(76) فليجة، المرجع نفسه، ص75 .

(77) In History Of FA.Ajay And M. Crawder, 'The Early States Of The Central Sudan" West Africa (New Yourk:1976) , vol . 1P. 19.

(78) جاسم، امبراطورية مالي، ص14.

(79) المقريزي، المواعظ: 194/1؛ ممتاز العارف، الأحباش بين مأرب واكسوم (بيروت : 1975)، ص9؛ حسن، انتشار الإسلام، ص 74.

(80) نوري، تاريخ، ص294.

(81) قداح، إفريقيا الغربية، ص84.

(82) طرخان، امبراطورية البرنو، ص19.

(83) عبد الجليل، تاريخ وحضارات، ص434؛ يسرى عبد الرزاق الجوهري، السلالات البشرية، (القاهرة: 1976)، ص403.

(84) Ency Of Islam, Art :Kanem) , P . 540.

(85) مؤنس، فزان، ص104.

(86) عبد الجليل، تاريخ وحضارات، ص 435.

(87) البولالا: اسم مركب من لفظين هما بول ـ Bul، وايلالا ـ Ilala. وهي جمع ايلي التي تعني الرجل الحر بلغة نبلاء الطوارق. انظر:

Frank Cass And H . R . Plamer, Sudanes Memmoras , Three Volumes In One, London, Compane Ltd , 1967, Vol . 1, P .11.

(88) إبراهيم علي طرخان ،الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقيا، بحث منشور في مجلة كلية الآداب في القاهرة، مج26، ج1 و2 (ديسمبر: 1964)، ص70.

(89) جوان جوزيف ،الإسلام في ممالك وامبراطوريات إفريقيا السوداء،(القاهرة: 1984)، ص94.

(90) انظر: وصف أفريقيا: 2 /177 ـ 178؛ وللمزيد حول شعب البولالا انظر:

.Plamer , Sudanes Memmoras , Vol . 1, P . 11

(91) لا يعرف لماذا اقترن اسمهم بالعماليق وقد فسر بالمر كلمة الصو بمعنى العماليق الذين قدموا من فزان. انظر : Sudanes, VoL. 1, P.2؛ ومن الجدير بالذكر ان اسم الصو قد أصبح اسماً تاريخياً، ومن خلفاء الصو الحاليين جماعات الكوتوكو، والبيلوا، والمزجر وغيرهم. انظر: Trimingham , Ahistory , P .105 .

(92) الهكسوس: وهم قبائل بدوية كانت تتنقل في بوادي الشام وشبه صحراء سيناء وتوغلوا في مصر وتمكنوا من أقامة دولة لهم فيها حوالي سنة 1670 ق . م – 1570 ق . م، ومعنى اسمهم هو ملوك الرعاة كما أطلق المصريون عليهم أسم الشاسو وهي تقابل كلمة البدوي، أما المصادر العربية القديمة أسمتهم بالعمالقة. انظر: هاشم يحيى الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، (الموصل: 1994) ، ص48 .

(93) حسن سلمان محمود، تاريخ السودان في العصور القديمة، (الفجالة: 1958)، ص 66.

(94) الفولانيون: وهم قبائل شبه زنجية جاءوا من مصر أو من شرق إفريقيا واتجهوا غرباً عن طريق بلاد المغرب ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسي فاستقر بعضهم هناك ومضى البعض الآخر قدماً حتى بلاد السنغال، ثم أخذوا فيما روي عنهم بالهجرة شرقاً بعد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.
انظر: حسن، انتشار الإسلام، ص 118؛ طرخان، برنو، ص 35.

(95) دافدسون، إفريقيا القديمة، ص51؛ جوزيف، الإسلام، ص89.

(96) شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بشيخ الربوة الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (لايبزك:1923)، ص 273.

(97) الوزان، وصف أفريقيا: 99/1 .

(98) زناتي، الإسلام، ص 202 ؛ فتاح، التأثيرات الحضارية، ص16.

(99) زناتي، المرجع نفسه، ص 197.

(100) جيمس كرستنس، الوظائف التكيفية للنظام الكهنوتي عند الأفانتي بحث منشور في كتاب الثقافة الإفريقية، ص511.

(101) نوري، تاريخ، ص43.

(102) ديشان، الديانات، ص18 ؛ عبد الرزاق محمد اسود، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، (بيروت: 1981) : 1 / 30.

(103) ديشان، الديانات، ص 105؛ زناتي، الإسلام، ص 201 ـ 202.

(104) الالوري، موجز تاريخ، ص116.

(105) الطوطمية: وهي نظرية وضعها مكلينان المتوفى سنة 1881م وتنص على أن الطوطمية دور مر على القبائل البدائية وتقوم على اتخاذ القبيلة حيواناً أو نباتاً، كوكباً أو نجماً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة أباً لها تعتقد أنها من سلالته، وأنه يقوم بحمايتها من أي خطر. أنظر: علي، المفصل، ص518؛ حمد، قاموس المذاهب، ص22 .

(106) وقد ظهرت كلمة طوطم ـ Totem ـ كمصطلح في علم الأجناس لأول مرة عام 1791م؛ وللمزيد انظر: علي سامي النشار، نشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة (الإسكندرية: 1949)، ص 90 ـ 177؛ الالوري، موجز تاريخ نيجيريا، ص 115؛ جرجي زيدان، طبقات الامم، (بيروت: 1969)، ص49 ـ 50.

(107) قداح، حضارة الإسلام، ص35.

(108) زناتي، الإسلام، ص205 .

(109) زافون: مدينة في بلاد السودان المجاورة للمغرب وهي متصلة ببلاد الملثمين. انظر: الحموي، معجم البلدان: 3 / 127. ويسميها البكري (زافقوا). انظر: البكري، المُغرب، ص173.

(110) البختي: من الأبل وجمعه بخاتي. انظر: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، (بيروت: 1997) :2/250؛ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، (بيروت: 1995) : 17/1.

(111) البكري، المُغرب، ص173؛ المغربي، كتاب بسط الأرض، ص15؛ محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، (بيروت: 1984)، ص 132 ـ 133.

(112) مجهول، الاستبصار، ص 219؛ نوري، تاريخ، ص43.

(113) البكري، المغرب، ص 174؛ الحميري، الروض المعطار، ص132–133.

(114) محمد بن عثمان بن فودي بيلو، انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، (لندن:1957)، ص9 ؛ محمد، دولة كانم، ص39.

(115) البكري، المُغرب، ص173؛ وانظر: زين الدين عمر بن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى بتاريخ ابن الوردي، (القاهرة: 1970): 112/1.

(116) قداح، إفريقيا الغربية، ص 34 ـ 35.

(117) البكري، المُغرب، ص173؛ قداح، إفريقيا الغربية، ص 34–35؛ جوزيف، الإسلام، ص 59.

(118) Ency Of Islam ,"Ghana ", vol . 2, p. 1003-1004.

(119) المقريزي، المواعظ : 195/1.

(120) فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبر التاريخ، (شركة الطباعة المتحدة:د/ت)، ص 26؛ إبراهيم محمد الفحام، المؤثرات السودانية في العقائد والعادات الشعبية في مصر، بحث منشور في مجلة التراث الشعبي، ع2، س8 ، 1977، ص61.

(121) عبد القادر محمد سيلا، المسلمون في السنغال (قطر: 1406هـ)، ص 40–41.

(122) محمد محمد الزلباني، تشكل الإنسان في صور الحيوان في المعتقدات الشعبية السودانية على ضوء النظريات الأنثروبولجية والاجتماعية، بحث منشور في مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، ع3، 1972، ص 186؛ النشار، نشأة الدين، ص90.

(123) الزلباني، المرجع نفسه، ص184.

(124) انظر: أنفاق الميسور، ص9 .

(125) زناتي، الإسلام والتقاليد، ص 205 ـ 206.

(126) الجالا: وهم مهاجرون حاميون عبروا خليج عدن ومضيق باب المندب إلى الشاطئ الإفريقي في العصور القديمة، واستقروا في بلاد الصومال بين وادي ويبي وخليج عدن، واختلطوا مع الزنوج وتزاوجوا معهم. انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص370-371؛ صديق، الحركة الصليبية، ص14.

(127) محمد، الشعوب والسلالات، ص 239.

(128) ديشان، الديانات، ص36 .

(129) محمد إبراهيم بكر، دراسة في المعتقدات الدينية في مصر القديمة وصلتها بحضارة السودان القديم، بحث منشور في مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم،ع3، 1972، ص132.

(130) اليعقوبي، البلدان، ص 337؛ المقريزي، المواعظ: 197/1.

(131) ابن سعيد المغربي، كتاب بسط الأرض، ص15.

(132) A. Wills Budge, A History of Ethiopia : Nubia and Abyssinia Anthropological.E publications ,(London : 1966), vol .1 , p . 243.

(133) الاصطخري، المسالك، ص18؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص50.

(134) نوري، تاريخ، ص40؛ أدم عبد الله الالوري، موجز تاريخ نيجيريا، (بيروت: 1965)، ص115.

(135) البكري، المغرب، ص183.

(136) البكري، المصدر نفسه، ص176.

(137) انظر: المواعظ : 1/ 197 .

(138) الماي: لقب ملوك كانم، وتعني السلطان ويقابلها لقب مك Mek في السودان الشرقي. انظر: عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها حتى العصر الحديث، (بيروت: 1967)، ص 52.

(139) الحموي، معجم البلدان: 142/3؛ محمد، دولة كانم، ص23.

(140) النقيرة، انتشار الإسلام، ص43.

(141) البكري، المُغرب، ص11.

(142) المجوسية: عقيدة دينية فارسية قديمة تقوم على تقديس الكواكب والنار، جددها زرادشت فيما بعد، ولعل سبب تقديسها للنار أنها لم تحرق النبي إبراهيم وكانت عليه برداً وسلاما، كما أن تعظيمهم لها ينجيهم من العذاب في اليوم الآخر. انظر: حسين علي حمد، قاموس المذاهب والأديان، (بيروت: 1998)، ص181.

(143) البكري، المُغرب، ص172؛ مجهول، الاستبصار، ص217.

(144) اليعقوبي، تاريخ، 192/1.

(145) انظر: نخبة الدهر، ص286 .

(146) المقريزي، المواعظ: 193/1؛ الوزان، وصف أفريقيا: 160/2.

(147) الوزان، وصف أفريقيا: 76/1 ـ 77.

(148) الزهري، كتاب الجغرافيا، ص125.

(149) المقريزي، المواعظ : 192/1.

(150) محمد جلال عباس، الوحدانية في الأديان الإفريقية، بحث منشور في مجلة الأزهر، مج 33 لسنة 1961: 54/1؛ ديشان، الديانات، ص44؛ جاك مندلسون، الرب والله وجوجو، (القاهرة: 1971)، ص 8-10.

(151) للمزيد عن عقائد التوحيد والديانة المصرية القديمة. انظر: عباس، الوحدانية، ص55؛ جيمس هنري برستيد، انتصار الحضارة - تاريخ الشرق القديم - (القاهرة: 1966)، ص137-138؛ اسود، المدخل: 24/1.

(152) جاء في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم/اية(30).

(153) انظر: وصف أفريقيا: 54/1 .

(154) قداح، حضارة الإسلام، ص39.

(155) Trimngham , Islam In West Africa (London : 1959), P .51.

(156) نوري، تاريخ، ص41.

(157) المقريزي، المواعظ: 193/1.

(158) قداح، حضارة الإسلام، ص41.

(159) ترمنجهام، الإسلام في شرق إفريقيا، ص105.

(160) شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزاني المعروف بعرب فقيه، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة، (القاهرة: 1974)، ص 344؛ الحيمي يسميهم (الفلاسة)، انظر: أبو الحسن بن أحمد، سيرة الحبشة، (القاهرة :د/ت)، ص 96.

(161) عبد السلام إبراهيم بغدادي، اليهود في اثيوبيا في ضوء التهجير الأخير، (بغداد: 1985)، ص2 .

(162) عابدين، بين الحبشة والعرب، ص15؛ حسن محمد جوهر، الحبشة، (القاهرة: د/ت)، ص87.

(163) George . A . Lipsky , Ethiopia Its People its culture (Americaan university : 1962), P . 44.

(164) نبوخذنصر: وهو أحد ملوك بابل في العهد البابلي الحديث والذي حكم البلاد للفترة (605 ق.م –571 ق. م) وقد استطاع خلالها تثبيت سلطان الدولة البابلية وصولاً إلى بلاد الشام وتمكن من بسط النفوذ البابلي على المدن والدويلات السورية وقام بسبي اليهود إلى بابل. انظر: طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (بغداد :1971)، ص 84 ـ 85.

(165) عابدين، بين الحبشة، ص16؛ جون هامرتن، تاريخ العالم، (القاهرة:د/ت): 368/3؛ أحمد الحفني القنائي، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان بما جاء عن الله والرسول وعلماء التاريخ في الحبشان، (القاهرة: 1321هـ)، ص9؛ محمد محفوظ عمر جوبان، انتشار الإسلام في الحبشة – دراسة في التأثيرات السياسية والأقتصادية – أطروحة دكتوراه غير منشورة (الموصل: 2001)، ص76.

(166) البطالسة: وهي دولة ظهرت في عام 323 ق . م بعد اقتسام امبراطورية الاسكندر إذ صارت مصر حصة بطليموس بن لاجوس مؤسس سلالة البطالسة أو البطالمة، وقد اصطبغت مصر بالصبغة اليونانية. انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص 84 ـ 85.

(167) بغدادي، اليهود، ص 703.

(168) Lipsky , Ethiopia Its People, P. 44.

(169) غيث، الإسلام والحبشة، ص 32.

(170) شاكر، اريتريا والحبشة، ص32.

(171) عابدين، بين الحبشة، ص 18؛ غيث، الإسلام والحبشة، ص 37 .

(172) جوبان، أنتشار الإسلام في الحبشة، ص79.

(173) Trimingham , Islam In Etheopia , P. 27 .

(174) جوهر، الحبشة، ص91.

(175) الوزان، وصف أفريقيا، ص167.

(176) الزهري، كتاب الجغرافيا، ص 127؛ الحميري، الروض المعطار، ص511. وقبائل لمم: قبائل وثنية زنجية تسكن إلى الجنوب من بلاد السودان الغربي وبعض مناطق السودان الأوسط وقد اشتهر عنها أن فيها من يأكل لحوم البشر وأفراد هذه القبائل يعرفون أنفسهم بعلامات تميز قبيلة عن أخرى وذلك بكي تلك العلامة المميزة على الوجه والأصداغ. ينظر: نوري، تاريخ، ص298.

(177) محمد، دولة كانم، ص36.

(178) اكسوم: وهي مملكة ظهرت في بلاد الحبشة في حوالي القرن الاول الميلادي، وقد تأسست على يد مهاجرين من اليمن جاءوا اليها على فترات متلاحقة تمتد إلى حوالي آلاف السنين قبل الميلاد. انظر: أمين شاكر وسعيد العريان ومصطفى أمين، اضواء على الحبشة، (مصر: د/ت)، ص17؛ البراوي، الحبشة بين الاقطاع، ص46.

(179) R . Oliver and B. M. Fagan, The middlee Age of African History, London : 1968 , P .7.

(180) لا يُعرف على وجه التحديد تاريخ ولادة ووفاة (عيزانا)، وعدد سنوات حكمه.

(181) Budge , Ahistory , Vol . 1 , P . 244.

(182) (محرم ـ Maharam): هو إله الحرب الوثني الذي عبده الأحباش قبل دخولهم في النصرانية. انظر: Budge , Ahistory , Vol . 1,. 243.

(183) تكلي صادق ميكوريا، اكسوم النصرانية، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، (اليونسكو: 1985) : 412/2.

(184) Budge , Ahistory , Vol . 1, P . 243.

(185) المقريزي، الالمام، ص 3؛ إبراهيم علي طرخان، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية، مج8، (القاهرة: 1959)، ص 41.

(186) المينوفستي: هي إحدى الفرق الدينية النصرانية التي ظهرت في القرن الخامس الميلادي مؤكدةً على الطبيعة الإلهية للسيد المسيح نافية ومنكرة الطبيعة البشرية فسمي أصحابها بأصحاب الطبيعة الواحدة. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، التاريخ السياسي، (بيروت: 1962)، ص 41.

(187) See : The Influnce , P .26.

(188) عبد الجليل، تاريخ وحضارات، ص119.

(189) القلقشندي، صبح الاعشى: 266/5؛ بولم، الحضارات الافريقية، ص42.

(190) الحموي، معجم البلدان: 309/5؛ القزويني، آثار البلاد، ص20؛ الحميري، الروض، ص236.

(191) بربرة: وهي مدينة متصلة بأرض الحبشة على البحر الأحمر، وتشمل قرى متصلة ببعضها بعضاً يقع في أولها قرية جوة. انظر: الإدريسي، صفة المغرب، ص27.

(192) تادمكة: وهي مدينة من مدن بلاد السودان، تُعد مركز تجاري مهم ترتبط بعدة طرق بمدينة غاو، وبينها

وبين غانة حوالي خمسين مرحلة، ومعنى اسمها (على هيئة مكة)، إذ أن المقطع تاد تعني هيئة، وقد دخلت تادمكة الإسلام في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. انظر: البكري، المغرب، ص181؛ مجهول، الأستبصار، ص223؛ نوري، تاريخ الإسلام، ص286.

(193) الزهري، الجغرافية، ص126.

(194) معاهدة البقط: هي المعاهدة التي عقدت بين المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وبلاد النوبة سنة 31هـ /651م، إذ تم خلالها الاتفاق على ايقاف المعارك بين الطرفين، والبقط هو ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل إلى مصر جزية عليهم. انظر: المقريزي، المواعظ: 200/1 وللاطلاع على المعاهدة كاملة ينظر ملحق رقم (1).

(195) عبد المنعم ماجد، روابط الإيمان بين مصر وافريقيا، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي،ع4، 1977، ص68.

(196) القلقشندي، صبح الأعشى: 310/5 ؛ بولم، الحضارات، ص124.

الفصل الثاني

معابر الإسلام إلى إفريقيا ووسائل انتشاره

أولاً : معابر وطرق الإسلام إلى القارة الإفريقية

ثانياً : وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا

1- التجارة

2- الهجرات

3- الدعاة

4- الزواج والمصاهرة

أولاً : معابر وطرق الإسلام إلى القارة الإفريقية :

وصل الإسلام إلى إفريقيا عبر عدة منافذ توزعت على مساحة المنطقة فمنها ما كان عبر الشرق ومنها ما كان عبر السودان الأوسط، وثالث عبر الغرب، إلا أن الأمر الجدير بالملاحظة يتمثل في استخدام الطُرق التي تربط المنطقة العربية بشرق إفريقيا ومنذ فترات سابقة للإسلام قبل غيرها من الجهات، ويبدو أن للقرب الجغرافي وعدم وجود عقبات طبيعية تفصل بين الجانبين فضل في ازدهار تلك الطُرق، فلا يفصل بين المنطقة العربية وشرق إفريقيا سوى البحر الأحمر والذي يمثل ممراً مائياً ضيقاً يسهل على العرب عبوره لاسيما مع معرفتهم بصناعة القوارب التي تم استخدامها في العبور إلى إفريقيا.

كما كان لمعرفتهم بسر الرياح الموسمية دور في إيصالهم إلى شرق إفريقيا وساحلها، فتتجه سفنهم باتجاه الجنوب الغربي ثم تعود بعد ذلك إلى المنطقة العربية متجهة نحو الشمال الشرقي، فضلاً عن معرفتهم بالفلك والنجوم واستخدام البوصلة والتي مكنتهم من الإبحار والوصول إلى ساحل شرق إفريقيا ومن ثم الاندفاع نحو مناطق أبعد في جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى.

إن كُل تلك الميزات الجغرافية والعلمية جعلت الطُرق الواصلة بين المنطقة العربية وشرق إفريقيا تسبق غيرها من المنافذ في وصول العرب ومن ثم المسلمين على نحو عام إلى القارة ، ففي غرب إفريقيا ووسطها مثلاً كانت الصحراء الكبرى في بادئ الأمر حاجزاً طبيعياً كبيراً بين المغرب الإسلامي والقارة الإفريقية، إلا أن وصول الإسلام إلى الحافات الشمالية للصحراء الكبرى وتطلع التجار المسلمين للعمل في التجارة وسعة المساحة جعلت من المعابر التي استخدمت في نقل الإسلام إلى غرب إفريقيا ووسطها أكثر عدداً من شرقها. ومن خلال ما سبق نستطيع ملاحظة المعابر الرئيسة التي استخدمت في وصول الإسلام إلى القارة الأفريقية وكما يأتي:

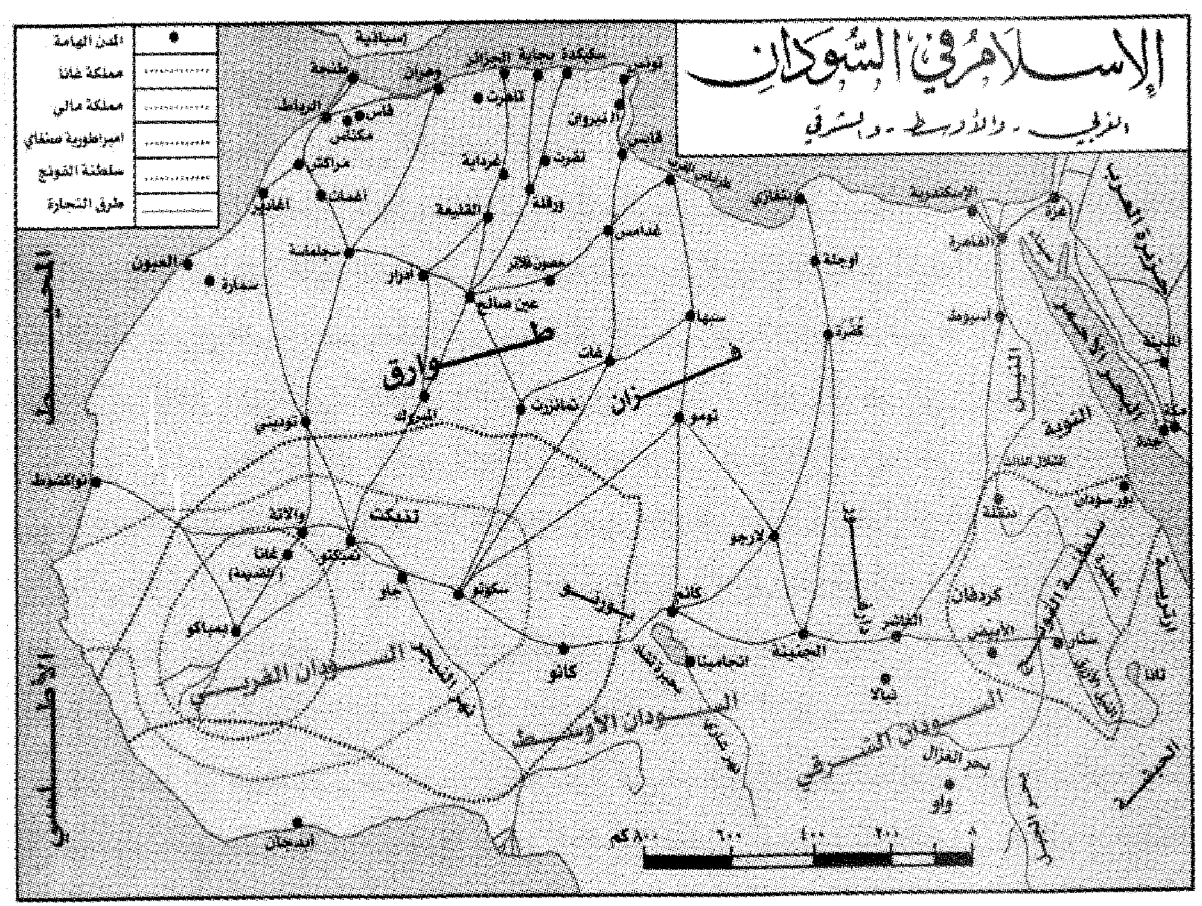
1- طريق يربط اليمن بشرق إفريقيا وصولاً إلى الساحل حيث مُدن مقديشو ولامو وباتا ومنبسا وزنجبار وكلوة وسفالة .

2- طريق يربط السودان الغربي بالمغرب الأقصى ، والذي يبدأ بمدينة سجلماسة المدينة التجارية المغربية الكبيرة مروراً بالصحراء وصولاً إلى مدينة أودغست الواقعة على الحافة الجنوبية للصحراء ومنها إلى بقية مدن السودان الغربي[1].

3- طريق يربط المغرب الأوسط بالسودان الغربي، ويبدأ من تاهرت مروراً بواحة (وارقلان) ثم يصل إلى مدينة (تادمكة) منتهياً بمدينة (جوى) على نهر النيجر، ويبدو أن أكثر من استخدم هذا الطريق هم التجار الأباضية.

4- طريق يربط طرابلس بالسودان الغربي ماراً بغدامس وتادمكة إلى أن يصل إلى منحنى نهر النيجر، وهناك فرع مهم لهذا الطريق يربط طرابلس بالسودان الأوسط عبر صحراء فزان[2].

5- طريق يربط مصر ببلاد السودان ويبدأ من صعيد مصر وصولاً إلى بلاد البجة والنوبة ماراً بالعاصمة النوبية دنقلة وصولاً إلى سوبا عاصمة مملكة علوة النوبية.



خارطة توضح معابر الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء

ثانياً: وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا:

أسهمت العديد من الوسائل في وصول الإسلام إلى إفريقيا ومن ثم انتشاره، وكانت تلك الوسائل تعتمد في مجملها على الأسلوب السلمي المبني على الإقناع، ويمكننا تلخيص تلك الوسائل بما يأتي:

أولاً: التجارة :

لعبت التجارة دوراً كبيراً في انتشار الإسلام في بلاد السودان، ونقل مؤثراته على نحو عام، إذ نشط التجار المسلمون أكثر من ذي قبل في الوصول إلى بلاد السودان، ولاسيما بعد توحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية الإسلام[3]، وما نجم عن ذلك من سيادة الأمن لطرق القوافل بين جنوب الجزيرة وشمالها، فعبروا إلى الساحل الشرقي لإفريقيا سالكين الطرق نفسها التي سار عليها آباؤهم من قبل[4]، فقد كان تجار اليمن قد عرفوا طريقهم إلى الحبشة وشرق إفريقيا منذ وقت مبكر سابق للإسلام بحثاً عن الذهب والعاج والرقيق والأخشاب، وغيرها من المواد الموجودة في تلك المنطقة[5].

وهنا لابد من القول أن دور التاجر المسلم القادم من المغرب قد بدى واضحاً في عملية نشر الإسلام في السودان الغربي كما في غيرها من المناطق الأفريقية ، فبينما يصل التاجر بملابسه النظيفة المحتشمة يلاحظ الزنجي ذلك الرجُل متعجباً وسائلاً عن سبب ارتداء تلك الملابس بينما هو قد أعتاد النظر إلى مواطنيه المرتدين لأوراق الشجر أو قلائد العظام التي لا تكاد تستر سوى عورته، وحينما يتقرب من ذلك التاجر ويسأله عن السبب فسوف يحصل على إجابة تكاد تكون درساً في النظافة والاحتشام معاً، كما أن دور التاجر في نشر الإسلام يكبر كلما طالت مدة بقائه هناك، فلابد له خلال تواجده من أن يتوضأ ويصلي خلال وجوده في سوق المدينة التي يتاجر فيها مما يساعد على إيصال صورة أولية للمتواجدين هناك عن الإسلام، كما أن الأفريقي مُعتاد على التعامل بالربا والغش بالبضاعة وعدم الوفاء بالعهود وهي أمور تعامل بعكسها التاجر المسلم فهو صادق في مواعيده لا يغش ولا يتعامل بالربا مما أسهم في تقرب الأفارقة منه ورغبتهم بالتعامل معه[6].

وكان أهم أثر اجتماعي نقلته التجارة متمثلاً في أخلاق التجار الذاهبين إلى بلاد السودان وكيفية سلامهم على الناس، وطريقة حلهم للمشكلات التي تواجههم هناك، من خلال صفحهم عن الإساءة التي يتعرضون لها، وكذلك قيامهم بإماطة الأذى عن الطريق في أثناء سيرهم في المدينة، وتعاملهم بصدق مع تجار السودان، أو مع العامة الذين يقومون بالشراء منهم كما تأثر المجتمع السوداني بالتجار المسلمين في اجتناب المعاصي وعدم شرب الخمر، وعدم الكذب، والابتعاد عن الزنا، وعدم التعامل بالربا.

وكان لمنظر التاجر المسلم أثر كبير في السودان على نحو عام، وعلى من يعمل معهم على نحو خاص، إذ كانوا يتطلعون إلى ملابسه الطويلة المحتشمة، وإلى نظافتها وترتيبها، فيبدأون

بتقليد ذلك التاجر في ملبسه، ثم نقلها إلى المجتمع ككُل، كما تأثروا بتصرفات التاجر اليومية من وضوء وصلاة وقراءة للقرآن[7]، فكانت كلمتي تاجر ومسلم، تعطيان نفس المعنى لدى السكان الأفارقة[8].

كما أن الالتزام الأخلاقي للتجار المسلمين قد جعلهم قريبين من الزعماء الأفارقة ولا سيما في أثناء استقبال أولئك الحكام للتجار القادمين من مدن الإسلام مكونين معهم علاقات صداقة [9]، تحولت بمرور الوقت إلى دعوة للإسلام، وأسفرت في أغلب الأحيان عن إسلام الملك، ومن ثمّ حاشيته، ليتبعهم الرعية[10].

وبحكم قرب الحبشة والساحل الشرقي لإفريقيا من الساحل العربي، فقد كان التواصل التجاري بين الطرفين كبيراً، وقد أشار إلى ذلك المؤرخ اليعقوبي بقوله: ((ولم تزل العرب تأتي إليها (الحبشة) للتجارات،ولهم مدن عظام وساحلهم دهلك))[11]، كما فتح ملك سفالة بلاده للتجار المسلمين، قائلاً لهم: ((أنتم السبب في صلاح ديني، وأنا اليوم فرح مسرور، لما مَنَّ الله عليَّ به، وعلى أهل دولتي من الإسلام ... فجاء المسلمين إلينا فصرنا إخواناً لهم، مسلمين مثلهم))[12].

وكان من الطبيعي حينما يصل أولئك التجار إلى بلاد السودان أن يفكروا في مكان يسكنون فيه، فقاموا ببناء دورهم على الطراز العربي الإسلامي، لتتحول بعد ذلك إلى مدن إسلامية ذات صبغة عربية، فأقيمت المنازل الواسعة، والمساجد العامرة في أغلب المدن، لاسيما الساحلية منها والتي تحمل الطابع العربي كعيذاب[13] ،وسواكن[14]، ومنبسا، وباتا، ولامو، وغيرها من المدن[15]، وكانت المدن المقامة قبل ذلك، صغيرة لا تعدو أن تكون مخازن للمواد التجارية، ويطلق عليها اسم بنادر[16]، ونُسب كل منها إلى شخصية عربية بارزة كبندر قاسم، وبندر زيادة، وكانت تلك الشخصيات إما دينية أو تجارية[17].

وكان التاجر في بلاد السودان وبعد استقراره يبدأ بالبحث عن زوجة سودانية، مما يسهم بعد ذلك في تقوية الروابط الأسرية بين الطرفين، ويساعد على نقل عادات وتقاليد التاجر إلى أسرته الجديدة، من مأكل ومشرب وملبس وغيرها، فبدأت الزوجة بالتعلم من زوجها التاجر الكثير من العادات والتقاليد، لتنقلها بدورها إلى أطفالها فيما بعد، كما أن بعض أولئك التجار قد جلبوا معهم عوائلهم من اليمن والحجاز والمغرب الإسلامي ومصر، ليختلطوا مع السكان الأصليين للمنطقة[18].

كما اتصل العرب بالبجة والنوبة إتصالاً وثيقاً في حوالي القرن الثاني الهجري/الثامن

الميلادي من خلال عملهم بالتجارة والبحث عن الذهب، واستقرت جماعة منهم هناك، وبنوا دوراً لسكنهم ومساجد لإقامة الصلاة، مما ساعد على دخول سكان السودان في الإسلام وتطبعهم بطباع العرب المسلمين[19]، ولاسيما بعد وصول أعداد من عرب جهينة وبلي، بعد الفتح العربي لمصر مكونين ممالك وإمارات وسلطنات إسلامية من عيذاب شمالاً إلى سفالة جنوباً، فأثروا في السكان بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصي[20]، وتعاملوا مع السكان بأسلوب حسن، ونشروا عادات وتقاليد المسلمين، على عكس ما نقل كوبلاند[21]، إذ أشار إلى استخدام السلاح من قبل التجار لاسترقاق الأفارقة وأنهم لم يستخدموا الهدايا والخمر لاسترضائهم. ومن الواضح أن الأمرين اللذين أشار إليهما الكاتب يدلان على إفتراء كبير على التجار المسلمين، وهي بالضبط تعكس تصرفات البرتغاليين وغيرهم من الغزاة مع السكان الأفارقة. فقد كان التاجر المسلم مثالاً للأخلاق الحسنة، صادقاً في تعامله، محَرماً للمنكرات، وقد نقل بهذه التصرفات صورة حسنة عن الإسلام والمسلمين[22].

وكان للتجار القادمين من المغرب الإسلامي إلى دولة كانم والسودان الأوسط على نحو عام دور كبير في نقل الإسلام بعد تجمعهم في مدينة زويلة[23]، كما شكلوا بمرور الزمن جاليات إسلامية عملت على ربط المنطقة بمدن المغرب الإسلامي، من خلال تواجدهم في المدن الواقعة على حدود بلاد السودان كمدينة أودغست، التي مثلت نقطة التقاء بين التجار من الطرفين، ولا سيما بعد أن استقر فيها تجار من المغرب والعراق[24]، ساعدوا على بروز معالم إسلامية في المدينة كالمساجد، ومراكز التعليم العربية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[25].

كما لعبت مدينة سجلماسة[26]، الدور نفسه الذي لعبته اودغست، لكونها حلقة وصل بين بلاد السودان، وبلاد المغرب التي مر من خلالها التجار المسلمين إلى المنطقة[27]. ومن الجدير بالذكر أن نشاط التجار المسلمين قد امتد إلى داخل بلاد السودان ليصل إلى السودان الغربي، فتواجدوا في غانة ومالي ومن ثمّ السنغاي[28]، وكان للولاة المسلمين في بلاد المغرب مساهمة جادة في تنظيم التجارة من خلال تأمين تلك الطُرق، وتوفير المياه للمارين فيها بعد حفر عدة آبار[29].

وكان التجار السجلماسيين قد تزوجوا من النساء السودانيات خلال تواجدهم في بلاد السودان، وكانت مدة الاغتراب التي يقضيها التجار بعيدين عن بلادهم تضطرهم للزواج، لأن الدين الإسلامي يحتم عليهم الالتزام بالأخلاق الحميدة، والتي دعت الكثيرين منهم في حالة عدم الزواج من امرأة حرة إلى القيام بعتق إحدى الإماء، ومن ثمّ الزواج منها، كما أن المرأة المغربية العاملة في التجارة كانت تتزوج من عبدها بعد أن تعتقه، والذي غالباً ما يكون قد جاء من بلاد السودان[30].

لقد تمتع التجار الداخلون إلى بلاد السودان بمكانة كبيرة لدى حكام وسلاطين بلاد السودان، بسبب ما حملوه من أخلاق كريمة وتسامح، مما دفع بأولئك الحكام إلى اختيار مساعدين ومستشارين لهم من بينهم[31]، معتمدين عليهم في تسيير أمور البلاد، ومستفيدين من خبرتهم في التعاملات التجارية، كما تأثروا بأسلوب حياة التجار المسلمين وبثقافتهم الإسلامية[32].

وكان لوصول الجاليات التجارية المصرية إلى دولة مالي، ومن ثمّ السنغاي[33]، أو الداخلة عبر الصحراء من المغرب الإسلامي، أثر آخر لكونها قد جاءت إلى المنطقة على شكل عوائل بأكملها، كعائلة المؤرخ المقري[34]. والتي ما لبثت أن نقلت إلى بلاد السودان الكثير من تصرفات التجار المسلمين وطرائق بيعهم وشرائهم وحسب تعاليم الدين الإسلامي، من خلال الشركة التي أنشأتها والتي تكفلت بإرسال القوافل التجارية إلى بلاد السودان، لينتقل مع تلك القوافل الكثير من التجار حفظة القرآن الكريم والمتفقهين في الشريعة الإسلامية، والذين كان لهم دور كبير في نقل الحضارة الإسلامية فضلاً عن الدين للسكان الأفارقة بكل تأكيد[35].

كما لعب التجار المسلمون من المغاربة دوراً واضحاً في إيصال المؤثرات الإسلامية إلى بلاد السودان، فقد تواجدوا في أغلب مدن وامبراطوريات السودان وصولاً إلى مدن كوكيا[36]، وغاو[37]، في امبراطورية السنغاي[38] التي تم تقسيم التجار فيها إلى تجار محليين منتمين إلى فئة العامة، وفئة التجار الأجانب القادمين من خارج بلاد السودان، والحاملين معهم كل جديد على المنطقة، مما ساعد على تقبل السكان لتعاليم الإسلام، واستقبال كافة مؤثراته طوعاً من غير إكراه[39].

ثانياً: الهجرات:

كانت الهجرات الإسلامية إلى بلاد السودان أحد الوسائل المهمة لانتشار الإسلام[40]، وكانت هجرة الصحابة الأوائل إلى الحبشة في السنة الخامسة من بعثة الرسول محمد ﷺ من أولى الهجرات إلى بلاد السودان، والتي جاءت امتثالاً لأوامر الرسول محمد ﷺ هرباً من المشركين وظلمهم[41]. ومن المؤكد أن تكون تلك الهجرة قد بذرت البذرة الأولى للإسلام في الحبشة، ونقلت معها أخلاق وطباع المسلمين إلى السكان الأفارقة.

ومن الطبيعي أن يكون تأثير وصول الوجبة الثانية من المهاجرين للحبشة (بعد ثلاثة أشهر من الهجرة الأولى) أكبر وأوسع، وذلك لأن أعدادهم كانت أكبر، فقد وصل عدد المهاجرين إلى ثلاثة وثمانون رجلاً مع أبنائهم ونسائهم وأسهمت تلك الهجرة على نحو مباشر في نقل

الإسلام ومؤثراته إلى المنطقة من خلال اختلاط المهاجرين من الصحابة مع سكان البلاد الأصليين[42]، لتظهر بمرور الزمن أجيال جديدة من أحفاد أولئك المهاجرين في الحبشة محتفظة بخصائص أجدادهم العربية الإسلامية من أخلاق وقيم وتقاليد ملازمة لهم في بيئتهم الأصلية، وأسهم ذلك في نقلها إلى السكان الأفارقة، والامتزاج معهم، ليظهر عنصر جديد يحمل صفات مشتركة من التقاليد السودانية القديمة، والأخلاق الإسلامية القائمة على أسلوب التسامح مع السكان واتباع التدرج في إلغاء التقاليد الوثنية مع إبقاء بعض العادات القديمة التي لا تمس جوهر الإسلام، والتدرج في القضاء عليها[43].

وقد أسفرت تلك الهجرات إلى الحبشة وبمرور الزمن عن نشوء ممالك إسلامية عديدة، كان من بينها مملكة أوفات[44] التي تأسست على يد بعض أولاد عقيل بن أبي طالب ﷺ، والذين عُرفوا بالجبرتية نسبةً لمنطقة جبروت التابعة إلى أرض الزيلع[45]، وعرفوا بالخير والصلاح[46]، كما وصلت هجرة أخرى بقيادة ود بن هشام المخزومي، لتستقر في منطقة شرق شوا[47] للعمل في التجارة، ثم كونوا لهم نفوذاً سياسياً متمثلاً بمملكة شوا الإسلامية في المدة من عام 283هـ/896م، وقد استمرت حتى عام 688هـ/1289م، إذ سقطت على يد مملكة أوفات الإسلامية[48].

لقد كان أولئك المهاجرون من فئات اجتماعية مختلفة فتعددت مهنهم وحرفهم، فمنهم الفلاحون والتجار من مدينة حضر موت وعمان والحجاز، وقد دفعهم هذا التفاوت في المهن للوصول إلى أرجاء بلاد السودان المختلفة، فتركز التجار على الساحل، وأوجدوا لهم نقاط اتصال بالداخل حيث الأسواق الإفريقية في حين اتجه الفلاحون إلى مناطق الخصب والمطر شمال هضبة الحبشة ووسطها، وذهب الرُعاة إلى سفوح الهضبة الشمالية وإلى مناطق الرعي الأخرى[49].

وكان لاستقرار أولئك المهاجرين في بلاد الحبشة، وتعايشهم السلمي أثر كبير في قيام علاقات قوية بينهم وبين السكان الأفارقة وقد بُنيت تلك العلاقة على أساس المودة والصداقة، كما وجد الأفارقة في العرب القادمين نوعاً من الحماية، فتقربوا منهم واندمجوا بهم وصاهروهم، مما أسفر عن ولادة جيل جديد يربط بين الطرفين[50].

وقد نجم عن ذلك الاندماج في البداية تعلم كل فئة للغة الأخرى[51]، وكان لهجرة العديد من القبائل العربية بعد الفتح العربي لمصر سنة 20هـ/640م ولأسباب مختلفة[52] – كقبيلتي بلى وجهينة[53]، وكذلك وصول مجموعات من هوازن إلى المنطقة والذين عرفوا باسم الحالنقا – أثر واضح في ذلك التعلم، ومن ثَم انتقال المؤثرات الاجتماعية إلى السكان الأفارقة[54].

كما أسهمت الهجرات التي قامت على أساس البحث عن الذهب وبقية المعادن في تطوير تلك العلاقات، وكان لوصول مجموعات من قبيلة ربيعة إلى وادي العلاقي برفقة العمري[55]، للعمل في استخراج المعادن الثمينة، دافعاً لانتقال عاداتهم وتقاليدهم إلى السكان الأفارقة [56]، الموجودين في بلاد البجة، ثمّ انتقل أولئك العرب المستخرجون للذهب والزمرد من وادي العلاقي، إلى وسط وغرب السودان لتنتقل معهم الرغبة في نشر الإسلام[57].

كما وصلت مع العمري إلى بلاد البجة جماعات من قيس عيلان[58]، وكذلك من سعد العشيرة[59]، كما كان أسلاف عرب سواكن من مدينة حضرموت، وكانوا ينسبون إلى هذه المدينة فيسمون الحضارمة، أو الحداربة وقد استفادوا من خبرات العرب المهاجرين قبلهم[60]، إذ نقلوا صورا من الحضارة العربية إلى أولئك الأفارقة، كإنشاء المنازل، ثم المدن[61]، كما أخذوا عنهم الكثير من وسائل عيشهم ونماذج حياتهم[62]، وقد كانت العلاقات بين العرب والساحل الشرقي قديمة جدا تعود إلى ما قبل الإسلام، ثم تطورت بعد الإسلام من خلال وصول التجار والفلاحين والبنائين، فيذكر أن الخليفة عبد الملك بن مروان (26-86هـ/646-705م) كان قد أرسل إلى مُدن الساحل الشرقي عدداً من البنائين ليساهموا في بنائها، ونقل العمارة الإسلامية إليها[63]، وكان عهده قد شهد وصول العديد من المهاجرين ومشاركتهم في بناء العديد من المدن على الساحل كمدن مالندة[64]، وممبسة[65]، ولامو[66]، وكلوة[67]، وبات[68].

وجاءت هجرة سليمان النبهاني[69] في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلى جزيرة باتا على الساحل الشرقي لإفريقيا لتكمل موجة الهجرات المستمرة، ثم تَوجت استقرارها في المنطقة بزواج سليمان من ابنة زعيم سواحلي واسمه إسحاق حاكم باتا، مما وفر له الأجواء ليتسلم الحكم فيها ويؤسس حكومة نبهانية حكمت الأجزاء الواسعة من الساحل حتى القرن التاسع عشر الميلادي، ولتنقل إلى هناك كل ما تحمله من صفات إسلامية بحتة وخبرات في كافة المجالات[70]، كما أن عددا من المهاجرين قد وصلوا إلى الساحل في حوالي النصف الثاني من القرن السابع الهجري، فراراً من هجوم المغول على العراق، ناقلين معهم خبراتهم في مجال البناء والعمارة، مما زاد من مصادر تنوع الثروات، لتصل مدن الساحل إلى درجة من الازدهار تقرب من الخيال، من حيث الغنى والترف والرفاهية[71].

وفي السودان الأوسط كان للهجرات الإسلامية المتلاحقة دور فاعل في انتشار الإسلام في المنطقة، وكان للتطورات والأحداث السياسية التي حصلت في المغرب العربي دور في حدوث الكثير من هذه الهجرات، ويبدو أن الخوارج الأباضية[72] كانوا من بين أول وأكثر المجموعات التي أجبرتها تلك الظروف على ترك بلاد المغرب، والهجرة إلى الصحراء، والاستقرار في واحة

فزان والاندفاع بعد ذلك إلى بلاد السودان[73]، ومن الطبيعي أن يكون الوجود الأباضي الطويل في صحراء فزان مشجعاً لبعض القبائل العربية على الانتقال إلى هناك ولاسيما لمن يوافقهم المذهب[74].

كما تبعهم في الوصول إلى كانم مجموعة من الأمويين الهاربين من الحكم العباسي[75]، وقد أشار إلى ذلك البكري بقوله: ((إن أهل كانم يزعمون أن هناك قوماً من بني أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين، وهم على زي العرب وأحوالهم))[76]. ويبدو من خلال النص تأثر السودان بالمجتمع الإسلامي بواسطة الوافدين إليهم من المهاجرين المسلمين، والتخلق بأخلاقهم وإتباع عاداتهم وتقاليدهم التي بدأت تتضح على نحو كبير بعد ازدياد أعداد المهاجرين، فقد وصل الكثير من المسلمين والمغاربة من واحة فزان إلى مدينة كوار، السودانية للاستقرار هناك، ويبدو أن نتائج وصولهم إلى المنطقة قد ظهرت واضحة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، إذ نجد أن سكان تلك المنطقة قد أصبحوا مسلمين، وقد ((تخلقوا بأخلاق البيض في لبس الصوف والقطن والبرود))[77].

كما كان للهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري ومن ثمّ إلى الصحراء وبلاد السودان دور كبير في إيصال الإسلام ومؤثراته إلى المنطقة[78]، فقد تواجدت تلك القبائل في مدينة زويلة وأغلب مدن الصحراء، وفي ذلك يقول المؤرخ الإدريسي: ((والعرب تجول في أرضها – زويلة –))[79]، كما هو الحال مع قبائل التيبو الذين كان مَقْدمَهم في حوالي القرن الرابع للهجرة /العاشر الميلادي[80]، فصاعدا مبعث لنشاط كبير يتعذر معه تقدير أثر الإسلام في كانم دون أن ننظر إليهم بعين الاعتبار، حيث يسود الاعتقاد أن هؤلاء التيبو كانوا من المسلمين الذين استقروا في منطقة كانم، واستطاعوا إلحاق الهزيمة بالزغاوة الوثنيين[81]، ونشروا الإسلام، لذلك يعتقد أن لهم دور في تأسيس الكيان الإسلامي هناك، وكان من عادات سلاطين كانم حتى نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي اتخاذ الزوجات من التيبو[82].

وكان يُطلق على العرب في برنو اسم الشوا، وقد اشتهروا بكونهم فرسان أشداء مدربين تدريباً جيداً، وكانوا مضرباً للأمثال هناك، وكان النسب العربي لحكام كانم ناجم عن هذا الوجود العربي، إذ اختلط العرب القادمون بسكان المنطقة، وتزوجوا منهم فاكتسب الأفارقة النسب العربي من أمهاتهم[83]، فكانت مملكة الكانم تعود إلى العرب وكذلك الشأن بالنسبة لملكة واداي، والتي تسودها قبائل التنجور[84]، هذا فضلا عن أن حكام كانم كانوا قد ذهبوا أبعد من ذلك، كادعاء النسب بسيف بن ذي يزن[85]. واستمر سيل الهجرات إلى بلاد كانم -

برنو من غير انقطاع، ففي أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وصلت هجرات لقبائل عربية أخرى إلى منطقة بحيرة تشاد، إذ تنتسب إليها قبائل الشاوية[86]، وفضلا عن الأقوام العربية التي هاجرت فعلا إلى وسط بلاد السودان فإن هناك أقوام ادعت نسبها العربي كالكانوري، التي تشابه الكانمبو من حيث إنها خليط من العرب والمغاربة والزنوج، وأنهم جاءوا أصلا من اليمن، وربما كانت الدماء العربية فيهم أكثر منها في غيرهم وكانت ألوانهم بين ألوان الزنوج وألوان التيبو المغاربة[87]، وهو ما يرجح إدعاؤهم النسب العربي.

وقد وصلت الهجرات الإسلامية إلى السودان الغربي، فالبربر سكان المغرب العربي هاجروا إلى المنطقة، واندمجوا بالسكان الأفارقة، وتزاوجوا معهم كبقية سكان بلاد السودان، فأصبحت مدينة تمبكتو زاهية تزخر بالسلم والعلماء، وتزدهر بعادات وتقاليد العرب المسلمين الوافدين إليها سواء كانوا قادمين من المغرب العربي[88]، أو من مصر[89]، إذ كان للعلاقات بين السودان الغربي ومصر دور كبير في ازدهار الجانب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لبلاد السودان، لما كان لمصر من مكانة في العالم الإسلامي، كما لم تقتصر الهجرات على الذهاب إلى بلاد السودان، بل حدثت هجرات معاكسة إلى مصر وغيرها من مدن الإسلام، فقد خصص رواق خاص للسودان في الجامع الأزهر، وهو شاهد على مدى ما بلغه مسلمو غرب إفريقيا وطلاب العلم من ترحيب في مصر، وكان هناك حي خاص بأهالي بلاد التكرور[90]، في القاهرة قد سمي بحي بولاق التكروري[91].

ثالثاً: الدعاة :

لم يكن للإسلام طبقة كهنوتية كالديانة المسيحية، بل عمل جميع المسلمين على نشر الإسلام والدعوة له بالطرائق السلمية امتثالا لقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[92]، فكان التاجر وطالب العلم وبقية أبناء الإسلام المهاجرين إلى بلاد السودان كلهم دعاة للإسلام، يوصلون تعاليمه إلى كل سوداني يلتقون به، وفي ذلك يقول الشيخ أبو العباس أحمد بابا التنبكتي: ((أن أهل السودان أسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم، كأهل كنوا، وكنتي، وبرنو، وسنغاى، ما سمعنا قط أن أحدا استولى عليهم قبل إسلامهم ...[93])).

وهكذا كان دخول السودان في الإسلام سلميا انسجاما مع طبيعة الدين البسيطة، القائمة على الفطرة، فهو سهل لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه، وسهل التطبيق على مختلف الظروف، وإن وسائل الانتساب إليه يسيرة، إذ لا يُطلب من الشخص في حال إعلان إسلامه التكلف ... فالذي يدخل الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه أزداد قوة وحيوية[94].

وهكذا فقد اعتنق الكثير من السودان الوثنيين الإسلام لبساطة إجراءاته ولما له على النفوس من جاذبية كبيرة[95]، ومما سهّل عليهم تقبل العقيدة الإسلامية أيضاً هو انسجام الإسلام مع طبيعة البيئة السودانية في كثير من تعاليمه وتقاليده[96]، ويحاول البعض أن يربط بين معتقدات الأفارقة الوثنية وما جاءت به الشريعة الإسلامية من خلال موافقته لتعدد الزوجات، واحترام الرؤساء، وتقديم الأضاحي مما كان له أصل في المجتمع السوداني قبل الإسلام[97]. فالمبالغة في مثل هذه الآراء خاطئ بحق الإسلام، فهو لم ينتشر إلا لكونه دين الله تعالى دين الفطرة. على أنه لم يتنازل للوثنية بأي شكل من الإشكال على طول مدة مسيرته وجهاده كالتي نشاهدها عند الكثيرين من أتباع بعض المعتقدات وأصحاب الدعوات السياسية، وكان ذلك واضحاً في كل مراحل نشوئه.

ولم يكن الإسلام مجرد شعائر دينية، ومناسك وطقوس، بل هو حضارة شاملة لأن الدين هو أساس وجودها وتوحدها، وجميع نظمه، وأخلاقياته ،وعلومه ،هي تعبير عن روحه، لذلك تميزت حضارته عن غيرها والإسلام بهذا المفهوم حامل لقوته في ذاته، لذلك لم يكن عبئاً على كاهل معتنقيه من الزنوج الذين كانوا ينظرون إليه على أنه دليل الارتقاء إلى حضارة جديدة، ومنزلة اجتماعية أسمى مما هم فيه[98]، بعد أن دعاهم الإسلام إلى التخلي عن الكثير من عاداتهم وطباعهم غير المتحضرة، كتقديم القرابين البشرية، وتقديس بعض الحيوانات وغيرها من العادات والطقوس، كما دعاهم إلى الطهارة والاغتسال، وستر العورات، وهكذا فإن الإسلام وكما يقول المؤرخ سميث ((قد مد الزنوج الذين تحولوا إليه بالنشاط والعزة، والاعتماد على النفس، واحترام الذات، وهذه كلها صفات يندر وجودها عند أقرانهم من الوثنيين))[99]، لذلك لا عجب أن ينتشر الإسلام بينهم ((بقوته الروحية، لا بالقوة المادية، إذ كانت النفوس تنجذب إليه بسهولة،لا بدعاية الأموال والأسلحة))[100]، فليس من مبادئ الإسلام إجبار الناس على اعتناقه، بل إنه كفل حرية الدين والعبادة للناس قاطبة، والناس أحرار فيما يعبدون[101].

لقد اندمج الدعاة المسلمون بعد مدة مع العناصر الزنجية عند انتشار الإسلام بين أغلب القبائل، ويشير دافيد سون، إلى دور الدعاة في نشر الإسلام ونقل الحضارة الإسلامية إلى إفريقيا بقوله: ((وكان علماء المسلمين يروحون ويجيئون))[102]، في إشارة منه إلى كثرة ذهاب الدعاة إلى بلاد السودان، وكان الداعية المسلم يمد القبائل الزنجية غير المتحضرة بالكثير من الحقائق المتعلقة بالله وبالإحسان، لتصل إلى القلب، والتي تمكنهم من الدخول في الإسلام والانضمام إلى وحدة اجتماعية سياسية، تمنحهم حق الحماية والمساعدة في البلاد الإسلامية التي تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى سور الصين شرقا[103]، وكان كل مسلم داعية إلى

دينه[104]، حريص على أداء واجباته الدينية، وتطبيق مبادئ دينه وشعائره، وبذلك يكون رمزا لخلق الداعي بين يدي الكافر[105]، وكان المسلمون رجالاً ونساءً ، تجاراً وصناعاً، وملوكا وفلاحين دعاة لنشر الإسلام من خلال تمسكهم بمبادئ وأخلاق دينهم التي جعلتهم محل إعجاب وإكبار السودان، إلى الحد الذي كان يجعل الزنجي ينحني احتراماً وتقديراً عند رؤيته لرجُل عربي مسلم[106].

وكان الإقبال على الإسلام والاستماع إلى دعاته من قبل السودان أيضاً بسبب كونه عنصر توحيد، يقاوم عناصر الفرقة، وله قيمة إيجابية لا تقهر في تقوية الشعور بالجماعة، والقضاء على حواجز اللون والجنس[107]، لذلك فهو محبوب لدى دعاة الوحدة والملوك وأرباب العوائل الذين يسعون إلى خلق نوع من الوحدة، والانسجام بين عوائلهم، وقراهم ودولهم، فالإسلام في السودان عموما لم يفكك التجمعات القبلية، بل زادها قوة وحماساً تحت تأثير ظروف الاستقرار والسيادة الدينية، فاعتناق الإسلام وكما يقول المؤرخ ترمنكهام ((يجعل الفرد المسلم منسجماً في مجتمع إسلامي، لأن الإسلام بحد ذاته ينظم جميع شؤون الحياة سواء أكانت فردية أم جماعية))[108].

وهكذا فإن الإسلام لم يحدث تغييرات عميقة في التركيب السكاني لهذه الشعوب فحسب، بل جاء معه بحضارة جديدة، أعطت الأجناس الزنجية الطابع الثقافي المميز الذي هيمن على حياتهم السياسية، ومؤسساتهم الاجتماعية[109]، وكان الداعية المسلم يتعامل مع السودان بأخوة، ولم يكن له أدنى قسط من السيطرة عليهم، كما لم يلجأ إلى وسائل الإغراء، فلم يكن معه مال للرشوة خلال تجواله بين القبائل الوثنية، أو وعود للأفراد، فهو يدعو لدينه في هدوء، وكان للوثني كامل الحرية في الاختيار، حتى شعر السودان بالأخوة مع الدعاة المسلمين، وتقبلوا الإسلام وتحمسوا له، وقاموا بنشره بدورهم [110]، وتمثل إفريقيا الشرقية صورة حية لنشاط الدعاة، إذ وفد من البلاد العربية المئات منهم وكانوا أكثر نجاحا بين سكان البجة لقربها من بلاد العرب وجعلها مسرحا لنشاطهم منذ زمن مبكر[111].

ومن المعروف وكما أشرنا مسبقا، أن الإسلام لا يعتمد على طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة، ولا تحيط به شبكة من نظام الإرساليات[112]، بل أن جميع المسلمين الذين رحلوا إلى الحبشة هم دعاة للإسلام سواء أكانوا تجارا، أم علماء، أم طلاب علم، أم قادمين من الحج فكل منهم يعمل منفردا متطوعا معتمدا على جهده الشخصي، وليس على مؤسسة حكومية تسنده بالمال، ولكن كانت بأخلاق أولئك وصدقهم، ومعاملتهم للناس وعدم التفريق بين شخص وآخر، فليس هناك سيد وعبد، وبهذا الطريق البسيط أنتشر الإسلام انتشاراً منقطع النظير[113].

حمل الدعاة الإسلام إلى الحبشة مثلاً ونشروه فيها أفراداً وجماعات ويشير الكثير من المؤرخين إلى دور أهل حضرموت في نشر الإسلام، إذ اتسمت الحضارة الإسلامية في إفريقيا الشرقية بسماتها الحضرمية الواضحة نتيجة للتفاعل والتواصل التجاري بين حضرموت وإفريقيا الشرقية لقرون طويلة في منطقة تميزت بنشاطها التجاري، فهي مسؤولة عن انتشار الإسلام ودليل ذلك، تأصل المذهب الشافعي وشعائره[114]، والمرجح أن بذور الدعوة الإسلامية التي انتشرت في ربوع الشرق الإفريقي كانت من قبل الوافدين من جنوب الجزيرة العربية ولاسيما من مدينة حضرموت[115].

ويشير المقريزي، إلى دور الدعاة في إيصال الإسلام ومؤثراته إلى بلاد السودان على نحو عام وبلاد النوبة على نحو خاص من خلال لقائه برجل يحمل في داخله بذور التوحيد التي دخلت المنطقة على يد الوافدين كتجار أو مهاجرين أو دعاة[116].

كما أن أحد الدعاة ذهب إلى الحبشة ليدعو إلى الإسلام، وتمكن من هداية مائتي ألف من المسلمين وذلك في حوالي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[117]، ورغم ما في الكلام من مبالغة في نسبها لداعي واحد، إذ وصل بلاد السودان ككل آلاف الدعاة الذين كسبوا فعلاً مئات الألوف من البشر للدخول في هذا الدين الحنيف.

وقد لعب دعاة الإسلام دوراً كبيراً في نشر الإسلام بين السودان، وإيصال مؤثراته إليهم، من خلال تواجدهم في المنطقة على نحو مكثف، ففي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي قدم رجل اسمه شيخ أبادر إلى مدينة هرر ونشر فيها الإسلام والعلوم الفقهية، وقد أصبحت منذ ذلك الحين معقلا إسلاميا، وقلعة من قلاع الدعوة[118]، وفي عام 699هـ قدم شيخ يدعى أبو عبد الله محمد إلى الحبشة داعيا إلى الإسلام وعمل على توحيد المسلمين ضد المسيحيين.

ويروي بعض الباحثين بأن جماعة مكونة من أربعة وأربعين عربيا جاءت من مدينة حضر موت للدعوة إلى الإسلام، فنزلوا في بربرة على البحر الأحمر، ومن هناك انتشروا في بلاد الزيلع، وأن أحدهم هو الشيخ إبراهيم أبو زرباي[119]، شق طريقه إلى مدينة هرر[120] حوالي سنة 836 هـ/1430م وضم هناك الكثير من السودان للإسلام، وكان تجمعهم على جبل بالقرب من مدينة بربرة، وقد سمي فيما بعد بجبل الأولياء.

لقد قام الفقهاء المسلمين بمهمة شرح الأحكام للناس في دولة غانة ومن ثمَّ دولة مالي، وكان تواجدهم هناك بكثرة، وهو ما يفسر إيمان بعض الملوك بالدين الحنيف قبل أن يعتنقه العامة[121]، ويشير البكري، إلى دور الدعاة المسلمين في إسلام حاكم إحدى المدن الأفريقية وتعليمه

الصلاة والاستغفار والطهارة والوضوء، كما تم تعليمه كيفية الدعاء وطلب الغيث من الله تعالى لأن القحط كان قد أصاب بلاده لسنوات، وحينما بدأوا بالدعاء تساقط المطر، وسقيت الأرض فأسلم الملك وحسن إسلامه وقام بتكسير الأصنام في بلاده وعمل بشرائع الله وسنة رسوله ﷺ [122].

كما أفاد ملوك وسلاطين السنغاي من النصائح التي قدمها الدعاة المسلمون لاسيما الذين وصلوا إلى إفريقيا كالإمام السيوطي والإمام المغيلي، والتي عملت على تنظيم أمور البلاد على كافة الأصعدة لأن كلمة أولئك الدعاة مسموعة لدى الحكام في الحرب والسلم[123]، وكان نجاح الداعي المسلم نجاحا للإسلام ككل، إذ عمل الداعية وفق مبدأ التآخي والمساواة مع المسلمين الجدد، ولم يكن ليتعصب للون أو لجنس، ولذلك نجح الإسلام في الانتشار لأنه لم يستخدم الأسلوب السيئ الذي استخدمه المبشرين للنصرانية والمعتمد على الإجبار والقسوة وتقديم الرشاوى[124].

وفي فترة لاحقة تم استخدام الكثير من الدعاة والمعلمين والمربين والمفكرين من مصر وبلاد المغرب والأندلس والحجاز ليمارسوا تثقيف السودان ويعلمونهم الإسلام وفروضه[125]، إذ رحل من مصر إلى بلاد التكرور الشيخ علي بن أحمد بن محمد الأندلسي سنة 723هـ/1323م ودرس أهلها القرآن الكريم ونقل عادات وتقاليد المسلمين إليهم[126]، كما رحل من مصر أيضاً قاضي قضاة المالكية محمد بن يوسف سنة 909هـ/1503م وبقي في بلاد السودان حتى توفي[127].

ويشير السعدي، إلى ازدياد عدد العلماء المسلمين سواء القادمين من خارج بلاد السودان أم من داخلها من خلال ذكره لإسهاماتهم في إسلام ملك مدينة جني في حوالي القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، كما أشار إلى وصول أعدادهم إلى حوالي الأربعة آلاف ومائتي عالم حينما جمعهم الملك في المدينة[128]، وهذا العدد الضخم دليل على انتشار الإسلام وتعاليمه وانتقال مؤثراته إلى بلاد السودان، وكان الناس يتبركون بأولئك الفقهاء والعلماء، ويعملون بنصائحهم التي تمثلت في إرشادات الإمام السيوطي لحكام وشعوب السودان، إذ دان السيوطي الحكام لموافقتهم على بعض التصرفات المخالفة للشرع من نصرة القوي على الضعيف مثلاً، وقد أولى هذا الإمام اهتماماً خاصاً بمسألة قتل الرقيق وضرب مثلاً لذلك ما يقع في مدينة جوبير من أنه إذا مرض أحدهم فإنه يضحي بقتل عبد أو أمة مما ملكت أيمانهم اعتقاداً بأن ذلك سوف يشفيه من سقمه، وهي عادة ذميمة أمر السيوطي بوقفها حالا، ومن الأمور المهمة الأخرى التي تناولها الإمام السيوطي في مقاله، قبول الرشاوي التي

أوصى بالتخلي عنها[129]، ولعبت نصائح الإمام المغيلي نفس الدور من خلال إرشاد الحكام والناس في كانو[130] إلى تعاليم الإسلام والالتزام بها والتثقيف المستمر في كافة المجالات، إذ نصحهم أولا بخلع الشجرة المقدسة من بلادهم، وبنى مكانها مسجدا، وأرشدهم إلى التعامل الحسن وفق تعاليم الإسلام[131].

وفي منطقة السودان الأوسط كان دور الدعاة بارزا كدورهم في بقية أرجاء السودان، إذ أشار القلقشندي، إلى الوجود المبكر للدعاة المسلمين في كانم من خلال كلامه عن الهادي العثماني الذي يدعي انتسابه للخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه[132]، وكان سلاطين كانم يتفاخرون بإسلام أجدادهم منذ وصول الإسلام إلى المنطقة على يد الفقهاء المسلمين[133]، الذين كرموا من قبل الملوك، فقد أصدروا مراسيم ملكية سميت بالمحارم[134] أكدوا فيها ما لهؤلاء الفقهاء من مكانة في الدولة وأعفوهم بموجبها من الضرائب ومن الخروج مع الجيش وأعطوهم مكانة اجتماعية عالية[135]، واصدر السلطان اوم بن جلمي[136] محرماً للشيخ محمد بن ماني منحه فيه وذريته حقاً في العيش بسلام في البلاد، وحرم أمواله على نفسه وعلى أولاده من بعده[137]، وفضلا عن ذلك فقد ظهر في حكام دولة برنو من هم فقهاء ودعاة للدين، وكان الماي (بيري)[138] فقيها، وقد بنى مسجدا والتزم بتعاليم الإسلام ونشرها بين شعبه[139]، وهذا الأمر جعل من البرنو قبلة للمسلمين، وانتشر فيها المبشرون وتوغلوا في السهول والوديان والغابات يدعون لدين الله، ويفتحون الطريق للحضارة والمدنية[140].

رابعاً: الزواج والمصاهرة:

لم يحمل لون الزنجي ولا جنسه إخوانه في الإسلام على أن يتعصبوا عليه[141]، مما ساعد على انتشار الإسلام بين السودان فتقبلوا إخوانهم المسلمين برحابة صدر وزاد من ذلك الود التقارب الذي حصل بين الطرفين من خلال الزواج الذي لم يتقبله النصارى ولم يقدموا عليه، ولذلك نظر الزنوج إلى الإسلام على أنه دين الجميع البيض والسود وأن النصرانية دين البيض فقط[142]. وفي ذلك دلالة على تقبلهم للإسلام وانصهارهم فيه.

وكان لتلك المصاهرة دور واضح على الأسرة ابتدأً من الزوجة السودانية، فقد تغيرت ملابسها وطريقة حشمتها، فبعد أن كانت عارية، أو مرتدية لقطعة من الجلد، أو لقطعة من أوراق الشجر، تغطي بها عورتها، تعلمت من زوجها ارتداء الملابس الطويلة التي تغطي جميع جسمها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾[143].

ومن جانب آخر فقد أثّر الزوج المسلم بزوجته السودانية في كيفية التعامل مع الأهل والجيران، ودعا إلى صلة الرحم فصار لِزاماً على المرأة أن تصل رحمها، وتحترم أمها وأبيها بعد أن كان التفكك الأسري هو الأساس، وأصبحت الزوجة ترتبط بعلاقات جيدة مع أهل زوجها، وتزورهم في كل حين، كما أصبحت العلاقات مع الجيران منطلقة من أسُس إسلامية داعية إلى احترامهم وعدم إيذائهم[144]. ومن الطبيعي أن يكون تأثير الزوج المسلم على زوجته واضحاً داخل البيت، فقد نقل لها آداب الطعام والشراب، مبتدئاً بطريقة تحضيره من خلال اختيار مكان نظيف لذلك، واستخدام للأدوات النظيفة، كما علمها كيفية الجلوس على المائدة والابتداء بذكر اسم الله تعالى قبل البدء بالطعام، وحمده لله على النعمة بعد الانتهاء.

وفي جانب طهارة الجسم فقد علّم الزوج المسلم زوجته الاغتسال لتنظيف الجسم على نحو عام، وكذلك الغسل من الجنابة التي لا يمكن ببقائها على الجسم أن تتم الصلاة، لأن على المسلم حينما يريد التقرب من الله تعالى بالصلاة وقراءة القرآن الكريم أن يكون طاهراً على نحو تام، كما أن تلك الزوجة سوف تشاهد زوجها وهو يتوضأ فتتعلم منه ذلك[145].

وفي جانب طهارة المكان فقد جعل الإسلام مكان مخصص لقضاء الحاجة في المنزل أو خارجه في مكان بعيد عن أنظار الناس[146]، بعد أن كان السودان يضعون فضلاتهم في حديقة الدار، كما تعلمت الزوجة السودانية من زوجها ما تقوله عند دخولها إلى مكان قضاء الحاجة وبعد الخروج[147].

ومن الطبيعي أن يكون بناء المنزل الزوجي وترتيبه هدفاً مشتركاً لدى الأسرة، فيبدأ الزوج بتعليم زوجته ترتيب أثاث منزلهم وفق النظرة الحضارية الإسلامية التي جلبها معه ذلك الزوج، كما كان ذلك الترتيب خاضعاً إلى ما كانت السنة الشريفة قد أشارت إليه، من خلال توجيه السرير الذي ينام عليه الفرد نحو القبلة[148].

لقد أسهم زواج المسلمين من النساء السودانيات في ظهور جيل جديد يحمل الصفات المشتركة[149]. فقد سمي سكان الساحل الشرقي الإفريقي مثلا بالسواحليين[150]. وفي بلاد النوبة كان لزواج العرب بالنوبيات أثرا كبيرا في نشر الإسلام[151]، كما تزوج التجار المسلمون من نساء الحبشة، فكانت أسرة بني مخزوم القرشية التي هاجرت بعض بطونها إلى هناك، تزّوج بعض أبنائها من بنات الحكام الأفارقة مما ساعد على تسلمهم الحكم في دولة شوا[152].

كما وصل أولئك المهاجرون العرب إلى السلطة في السودان الشرقي من خلال المصاهرة، فقد تزوج أحد النبهانيين من ابنة حاكم جزيرة باتا الذي تنازل عن حكم الجزيرة لابنته وصهره

ليبدأ حكم الأسرة النبهانية في الجزيرة[153]. ومن الطبيعي أن يكون لهذا الحكم العربي المسلم دور كبير في جذب المهاجرين العرب إليها، وتعّرفهم على المنطقة، ومن ثمّ الاستقرار فيها، والزواج من نسائها[154].

وكان لدخول الزيدية من الساحل الشرقي لإفريقيا إلى الداخل أثر كبير في نقل المؤثرات الإسلامية إلى الشعوب الإفريقية، فقد تزوج الزيدية من السودانيات، وتصاهروا مع القبائل السودانية التي سكنوا بجوارها، فنتج عن ذلك شعب خليط من العرب والزنج عرف باسم (الاموزيج) التي تعني في أغلب الظن الزيدية[155]. والذين أدخلوا إلى المنطقة كل عوامل النمو والازدهار فتجلت مظاهر الحضارة العربية في شرق إفريقيا في المباني المعمارية وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والشبابيك، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت والفسيفساء مع الرخام الملون، وظهر ذلك جلياً في المساجد والقصور[156].

كما وصلت أعداد من المسلمين إلى بلاد البجة وتزوجوا من نسائها، فيشير المسعودي، إلى وصول عرب ربيعة إلى هناك وتصاهرهم مع الحداربة مما ساعد على تقوية شوكة الجانبين ومواجهتهم لأعدائهم[157]. كما ساعد ذلك في دخول الكثير من السكان الوثنيين في الإسلام[158]. إذ نقل المسلمون إلى المناطق التي استقروا فيها عاداتهم وتقاليدهم وعلموها لنسائهم السودانيات ومن ثمّ لأبنائهم، فازداد التزام المجتمع الأخلاقي، وسادت قيم المحبة والتسامح والطاعات وإقامة الحدود بين الناس[159]. وكان من الطبيعي أن تتأثر تلك الزوجة بأخلاق زوجها وبصفاته الداعية إلى الإسلام والمحبة والكرم، وغيرها من الصفات الإسلامية الحميدة، وأن تنقل كل ما تشاهده في بيت زوجها، وأهلها ليعملوا بدورهم على تعلمه، ونقله إلى القبيلة ككل وصولاً إلى المجتمع السوداني الكبير.

إن تكوين أسر جديدة في بلاد السودان قد بدا واضحاً بعد انتشار الإسلام، ووصول التجار والمهاجرين العرب للمنطقة فكان لهم تأثير واضح في مجريات الأمور، فأبو مخلد بن كيداد[160]، والذي كان يشار إليه بالحبشي الأسود، كان نتاج تزوج والده وهو تاجر من منطقة الجريد من جارية سوداء من تادمكة[161]، وكذلك تزوج آل المقري من السودانيات، وقد أشار إلى ذلك المؤرخ المقري بقوله: ((فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار، وتزوجوا النساء، واستولدوا الإماء))[162]، فكانوا هم وذريتهم مثالاً للعائلة المسلمة[163].

وقد أسهمت حالات الزواج التي حصلت بين سكان كانم ـ برنو والمغرب العربي، في نقل المؤثرات الاجتماعية، فخلال وصول التجار والفقهاء إلى المنطقة حصل احتكاك بين الطرفين

وأدى هذا الاحتكاك إلى التعارف، ومن ثمّ المصاهرة خلال استقرار جاليات عربية إسلامية منذ وقت مبكر، وتقبل السكان لجميع عادات المسلمين المتعلقة في بدايتها بمراسيم الزواج ثم المعيشة وتمشية أمور الحياة[164].

ولا بد لنا من القول بأن إقبال العرب المسلمين على الزواج من النساء الإفريقيات كان نابعاً من باب تحصين النفس، فالتاجر وخلال وجوده في بلاد السودان يكون بعيداً عن داره وأهله فيتزوج خوفا على نفسه من الانزلاق في الخطيئة، ثم إن القسم الآخر من القادمين إلى بلاد السودان كانوا من المهاجرين الباحثين عن الاستقرار في المنطقة، وقد تزوج قسم كبير منهم من النساء السودانيات[165].

الهوامش

(1) البكري، المُغرب، ص 160.

(2) البكري، المصدر نفسه، ص108-110.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ق2، ص540؛ أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: 1978)، ص225

(4) اليعقوبي، البلدان، ص89؛ المسعودي، مروج الذهب: 18/2.

(5) Coupland, East Africa, P.16.

(6) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، (القاهرة: 1970)، ص 281-282 .

(7) ارنولد، الدعوة ص391 ؛ نوري، تاريخ الإسلام، ص128.

(8) Trimingham, The Influnce Of Islam Upon Africa (London: 1968), P. 39.

(9) Trimingham, The Influnce, P. 39.

(10) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، (القاهرة: 1958) : 394/1.

(11) انظر: تاريخ اليعقوبي: 218/2.

(12) الزهري، كتاب الجغرافية، ص124؛ جمال زكريا قاسم، استقرار العرب في شرق إفريقيا، بحث منشور في مجلة آداب عين شمس، مج10، ص291.

(13) عيذاب: بالفتح ثم السكون وذال معجمة، بلدة على ضفاف البحر الأحمر وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. انظر: الحموي، معجم البلدان: 171/4.

(14) سواكن: بلد مشهور على ساحل البحر قرب عيذاب، وهي مدينة عامرة في بلاد البجة ومنها يخرج رقيقهم. انظر: الحموي، معجم البلدان: 276/3.

(15) قاسم، الروابط، ص14.

(16) بنادر: وهو المكان الذي يتجمع فيه التجار وخاصة في المناطق التي يوجد فيها معادن، وأحدهم بندر ويقال رجُل بندري ومبندر ومتبندر وهو كثير المال. انظر: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، لسان العرب (بيروت: د/ت): 81/4.

(17) عبد الجليل، تاريخ وحضارات، ص193.

(18) قداح، إفريقيا الغربية، ص126.

(19) ابن خلدون، العبر: 429/5؛ حسن، انتشار الإسلام، ص142.

(20) محمود، الإسلام، ص54؛ محمد محمد أمين، العرب والدعوة الإسلامية في الصومال في العصور الوسطى، بحث منشور في مجلة الدارة، ع2، س10، (سبتمبر: 1984)، ص26 .

See:Copland,East Africa,P.18. (21)

(22) قاسم، استقرار العرب، ص12؛ عبد الجليل، تاريخ وحضارات، ص24.

(23) الشيخلي، الوجود العربي، ص123.

(24) ابن حوقل، صورة الأرض، ص99؛ مجهول، الاستبصار، ص216.

(25) البكري، المُغرب، ص158.

(26) سجلماسة: مدينة تقع جنوب المغرب في طريق بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام (480 كم). انظر: الحموي، معجم البلدان: 192/3. وبما أن اليوم يساوي ثمان فراسخ. انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص79. والفرسخ يساوي 6كم . انظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري، (عمان: 1970)، ص75. إذن اليوم يساوي 48كم.

(27) الحرير، العلاقات الاقتصادية، ص84.

(28) حسن، انتشار الإسلام، ص11.

(29) البكري، المُغرب، ص 156–157.

(30) بوخالفة نور الهدى، دولة بني واسول في سجلماسة "علاقاتها ودورها الحضاري في المغرب الوسيط"، رسالة في دبلوم الدراسات المعمقة مقدمة إلى معهد العلوم الاجتماعية في جامعة وهران، (الجزائر: 1976، ص273.

(31) مهدي ادامو: مالي والتوسع الثاني للماندنغ، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص134.

(32) الشيخ الأمين عوض الله، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي، بحث منشور في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، (بغداد: 1984)، ص95.

(33) محمد محمد أمين، علاقات دولتي مالي وسنغاي بمصر في عصر سلاطين المماليك (1517-1250)، بحث منشور في مجلة الدراسات الأفريقية، ع4 ، 1975 ، ص296.

(34) طرخان، امبراطورية غانة، ص83.

(35) محمود، الإسلام والثقافة، ص54.

(36) كوكيا: عاصمة مملكة السنغاي، تقع في جزيرة بنتا في النيجر، وعلى بعد (60 ميلاً) 120كم جنوبي الغاو. أنظر: زكي، تاريخ الدول، ص133 دائرة المعارف الإسلامية(مادة سنغاي): 265/2.

(37) غاو: مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر وتلتقي بوادي تلمس الذي يبدأ بقلب الصحراء وهي تشابه مدينة كومبي صالح، إذ تنقسم إلى قسمين الأول يعيش فيه المسلمون، والثاني للوثنيين. أنظر: زكي، تاريخ الدول، ص134؛ مهدي ادامو، مالي والتوسع، ص133.

(38) دافيد سون، إفريقيا، ص49؛ عوض الله، تجارة القوافل، ص69 .

(39) حسن، انتشار الإسلام، ص43–44؛ نوري، تاريخ ، ص128.

(40) ربان السفينة جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، (القاهرة: 1927)، ص25.

(41) ابن هشام، السيرة: 343/1؛ وللمزيد حول هجرة الصحابة إلى الحبشة. انظر: الطبري، تاريخ الرُسل: 330/2؛ اليعقوبي، تاريخ: 2/ 23؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحسن الخشعمي السهيلي، الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية، (بيروت: 1978) : 79/2.

(42) ابن هشام، السيرة: 353/1؛ الطبري، تاريخ الرُسل: 329/2. وللمزيد أنظر: المقدسي، البدء والتاريخ: 229/4؛ محمود خيري عيسى، العلاقات العربية الإفريقية – دراسة تحليلية لأبعادها المختلفة –، (القاهرة: د/ت) ، ص36.

(43) أحمد، قصة الحضارة، ص251.

(44) أوفات: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي السبع والتي ظهرت في الحبشة، واوفات من أكبر مدن الحبشة، وكانت قد نشأت في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص140؛ المقريزي، الإلمام، ص7-8.

(45) الزيلع: ويسميها الإدريسي زالغ. انظر: صفة المغرب، ص25 .وهي جزيرة في بلاد الحبشة، كانت كفرضة للعبور إلى الحجاز واليمن، ويجتمع فيها الناس من كل مكان للتجارة. انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص61؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (القاهرة: 1945): 706/1.

(46) المقريزي، الإلمام، ص9.

(47) شوا: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي في الحبشة، والتي تأسست على يد مهاجرين عرب من بني مخزوم وفدوا إلى الحبشة في وقت مبكر واشتغلوا بالتجارة، والمملكة تقع على الهضبة الحبشية. انظر: طرخان، الإسلام والممالك، ص32 .

(48) عطية القوصي، تاريخ دولة الكنوز (القاهرة: 1981)، ص123.

(49) عيسى، العلاقات، ص39.

(50) عيسى، العلاقات، ص39.

(51) تمثل ذلك الأمر في تعلم العرب للغة البجة، وقيام زكريا بن صالح المخزومي وعبد الله بن اسماعيل القرشي بترجمة عقد عبد الله بن الجهم إلى تلك اللغة دليل على ذلك.انظر: المقريزي، المواعظ: 196/1. وظهور حي في بلاد البجة يسكنه العرب من قبيلة كاهل يتكلمون بلغة البجة .انظر: مصطفى محمد مُسعد، البجة والعرب في العصور الوسطى، بحث منشور في مجلة كلية الاداب، مج21، ج2، (ديسمبر: 1959)، ص26.

(52) عبد الرحمن زكي: الإسلام والحضارة العربية في شرق إفريقيا، بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية، ع21، ص38–39. ويشير جمال زكريا قاسم إلى الخلاف الذي حدث بين الزيدية والأخوة السبعة دفعهم إلى ترك الساحل والتوجه إلى داخل بلاد السودان مما ساعد على نقل المؤثرات الاجتماعية التي يحملونها إلى هناك. انظر: الأصول التاريخية، ص90.

(53) جهينة وبلى:وهما قبيلتان عربيتان يمتد نسبهما إلى قضاعة بن مالك بن حمير، ويُعدان من قبائل العرب الكبيرة والعريقة. انظر: ابن النديم، كتاب الفهرست: 273/1.

(54) مُسعد، البجة والعرب، ص26.

(55) العمري: هو عبد الله بن عبد الحميد العمري، وهو من أوائل المهاجرين إلى بلاد السودان ولد ونشأ في المدينة المنورة وهاجر إلى مصر ثم إلى القيروان وبعد ذلك عاد إلى مصر عام 241هـ متوجها إلى أرض المعدن ليعمل بها. انظر: حسن، دراسات: 56/1؛ القوصي، تاريخ دولة الكنوز، ص31.

(56) اليعقوبي، البلدان، ص334؛ ويذكر الحموي ان سلطان العلاقي كان رجُل من بني حنيفة من ربيعة. انظر: معجم البلدان: 145/4.

(57) مُسعد، البجة والعرب، ص50.

(58) قيس عيلان: وهو بطن من بطون القبائل العربية في الحجاز، وعيلان هو ابن مضر بن نزار، وقد هاجر قسم من أبناء تلك القبيلة إلى بلاد السودان. انظر: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب (القاهرة: د/ت)، ص243.

(59) سعد العشيرة: وهي قبيلة عربية سميت باسم رئيسها وهو سعد العشيرة بن مذحج، إذ كان لها دور كبير في صدر الإسلام، وقد هاجر قسم من أبنائها إلى بلاد السودان واستقروا في المنطقة. ينظر: الطبري، تفسير الطبري: 139/26؛ مسعد، العرب والبجة، ص28 و ص237.

(60) بوركهارت، رحلات بوركهارت، ص 343؛ القوصي، تاريخ دولة الكنوز، ص27؛ الجاسم، البجة، ص237.

(61) عبد الجليل، تاريخ وحضارات، ص 201؛ قاسم، الروابط، ص13.

(62) الجمل، تاريخ كشف أفريقيا، ص36.

(63) G.S.P. freeman Grenville, the East African coast (oxford : 1962), p . 242.

(64) مالندة: تقع على ضفة البحر على خور ماء عذب، وهي مدينة كبيرة تبعد عن منبسة مسافة (96كم)، وهي من مدن الزنج المشهورة، وتقع اليوم في دولة كينيا. انظر: الادريسي، صفة بلاد المغرب، ص32، ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص82.

(65) ممبسا: هي إحدى أهم وأقدم المدن التي أسسها العرب المسلمون في الساحل الشرقي الإفريقي، وبلغت أوج عظمتها وازدهارها في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. انظر: ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص83.

(66) لامو: هي إحدى جزر الأرخبيل الذي عرف باسم الجزيرة نفسها (أرخبيل لامو) وتقع هذه الجزر في الساحل الإفريقي الشرقي وتتكون من جزر لامو وباتا وماندي، ويفصلها عن الساحل شريط مائي ضيق. انظر: نوري، تاريخ، ص298.

(67) كلوة: وهي مدينة واقعة بأرض الزنج. انظر: الحموي، معجم البلدان: 478/4.

(68) قاسم، الأصول، ص61؛ حسن، انتشار الإسلام، ص13. وباتا: هي إحدى جزر ارخبيل لامو التي تقع في الساحل الافريقي الشرقي ويسميها البعض بتا وباتي وتسمى أيضا بتاء وباتا مشتقة من مقطعين Pa-ta أي بمعنى غادر المكان. انظر: الدجيلي، العلاقات، ص77؛ وللمزيد عن باتا انظر: قاسم، الأصول التاريخية، ص60-61.

(69) سليمان النبهاني: هو سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني، هاجر من عُمان إلى مدينة باتا على الساحل الشرقي لأفريقيا سنة (601هـ/1204م)، ويرافقه في رحلته مجموعة من النبهانيين، الذين استقبلوا وزعيمهم سليمان من قبل سكان المدينة استقبالاً كبيراً وبفضل كرمه وشخصيته القوية استطاع أن يتقرب من شخصيات كبيرة في باتا ولعل رأسها الحاكم نفسه المدعو إسحق توطدت بزواجه من ابنة ذلك الحاكم الذي تنازل عن السلطة لصالح سليمان. انظر: الدجيلي، العلاقات العربية، ص80؛ صديق، الحركة الصليبية، ص34 .

(70) المسعودي، مروج الذهب: 1/107-108؛ أبو الفدا، تقويم البلدان: 1/156؛ زكي، الإسلام والحضارة العربية، ص40.

(71) قاسم، الروابط العربية، ص21؛ الزبيدي، هجرة العرب، ص110-111 .

(72) الإباضية: إحدى فرق الخوارج، انتشرت في المغرب الأدنى (طرابلس وجبل نفوسة والمناطق المجاورة) . وأنتهت الزعامة فيها إلى عبد الرحمن بن رستم الذي أسس الدولة الرستمية سنة 140هـ/ م في تاهرت من المغرب الأوسط إلى أن انتهت دولتهم على يد الفاطميين سنة 297هـ/م، وكان لهذه الدولة علائق تجارية مع ممالك جنوب الصحراء. حمد، قاموس المذاهب، ص 7-8 .

(73) للمزيد حول هجرة الإباضية إلى الصحراء وبلاد السودان: انظر: أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، (الجزائر: 1967): 1/73. إدريس صالح الحرير، العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام هناك، بحث منشور في مجلة البحوث التاريخية، ع1، س5 ، (يناير: 1983)، ص76، صباح إبراهيم الشيخلي، الوجود العربي في كانم في السودان الأوسط حتى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، س14، ع35، 1988، ص124.

(74) Palmer , sudanes memoirs , vol . 11, p . 54.

(75) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٥٨٢؛ وانظر: ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي:/258-259.

(76) انظر: المغرب، ص11؛ انظر: الحموي، معجم البلدان: 4/432؛ أمين توفيق الطيبي، كانم - برنو بالسودان الأوسط علاقات تاريخية بالعرب المسلمين، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، ع37، س14، 1988، ص122.

(77) ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص114؛ الشيخلي، تطور الوجود العربي، ص42.

(78) وصل الهلالية إلى بلاد السودان بعد هجرتهم من مصر وصولاً إلى المغرب ومن ثم إلى المنطقة وكان

لهذه الهجرة نتائج في غاية الأهمية في نشر الإسلام واللغة العربية في هذه المنطقة ، وللمزيد عن الهجرة الهلالية أسبابها ونتائجها انظر:ابن خلدون ، العبر: 158/6؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطمين الخلفا، (القاهرة: 1963): 216/2 ومابعدها؛ عبد الحليم عويس، بنو هلال أصحاب التغريبة في التاريخ والأدب (الرياض: 1980)؛ الشيخلي، الوجود العربي في كانم، ص162.

(79) الإدريسي، صفة المغرب، ص133؛ وكذلك: إبراهيم إسحاق إبراهيم، هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى المغرب العربي وبلاد السودان، (الرياض: 1996)، ص101.

(80) Ency Of Islam: (Art:Kanem), Vol. 1v, P. 541.

(81) طرخان، برنو، ص67؛ نوري، تاريخ الإسلام، ص103.

(82) دائرة المعارف الإسلامية،(مادة: تبو): 574/4 ؛ وانظر: اوليفر، موجز تاريخ إفريقية، ص71.

(83) الشيخلي، الوجود العربي، ص131؛ طرخان، إمبراطورية البرنو، ص167؛ Palmer, Sudane, Vol. 11, P. 42

(84) قبائل التنجور- وهي قبائل تسكن المنطقة القريبة من بلاد الفور وتعود أصولهم إلى االنوبة والتي هاجروا منها حوالي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ووصلوا إلى شمال دارفور وأسسوا لهم سلطان هناك. انظر: نوري، تاريخ ، ص284.

(85) طرخان، امبراطورية البرنو، ص32؛ Usman, Stusies in History, P. 51.

(86) قبائل الشاوية: وهي قبائل موجودة في منطقة برنو التي تعد من ذرية القبائل الهلالية بعد أن رحلت من مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. انظر: الطيبي، كانم برنو، ص119.

(87) طرخان، امبراطورية البرنو /ص24ـ25.

(88) قاسم، الأصول، ص155.

(89) الهادي المبروك، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الإفريقي، مسحوب من شبكة الإنترنت موقع قبائل عرب أزواد، ص2.

(90) بلاد التكرور: وهي مملكة واسعة دخلت الإسلام في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وتمكنت من الإحتفاظ باستقلالها ضد توسع جارتها الشرقية غانة ثم خضعت لدولة مالي ثم السنغاي، وقد برزت تلك المملكة في القرن التاسع عشر الميلادي في غرب إفريقيا وكان لأهلها دور بارز في جهاد الاستعمار الفرنسي. ينظر: طرخان، امبراطورية مالي، ص120. ويذكر الإدريسي أنها في جنوب النيل وبينها وبين مدينة سلى مسيرة يومين في النيل. ينظر: صفة المغرب، ص3.

(91) جمال الدين بن أبي المحاسن بن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة:د/ت) : 289/14؛ قاسم، الروابط، ص43.

(92) سورة البقرة/أية 256.

(93) انظر: معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود (الرباط 2000)، ص53؛ السلاوي، الاستقصا: 5/ 103.

(94) انظر: الديانات في إفريقيا السوداء، ص128ـ129.

(95) جون جنتر، داخل إفريقيا: 95/1.

(96) الألوري، موجز تاريخ نيجيريا، ص36؛ محمود، الإسلام والثقافة: 41/1؛ طرخان، الإسلام واللغة العربية، ص53.

(97) نوري، تاريخ الإسلام، ص125.

(98) النقيرة، انتشار الإسلام، ص117.

(99) حسن، انتشار الإسلام، ص79؛ وانظر: قداح، إفريقيا الغربية، ص137.

(100) الألوري، المرجع، ص36.

(101) لقد اكد القران الكريم على حرية الديانة في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ انظر : سورة الكافرين ، اية(6) . وقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ انظر : سورة النحل ، اية (٥٢١) .

(102) قداح، المرجع السابق، ص68؛ وانظر دافدسون، إفريقية القديمة تكتشف، ص48.

(103) حسن، انتشار الإسلام، ص35.

(104) Kari Cerdequist, Islam And Christiainty In Abyssinia, The Mosiem World, Vol. 11 (New York: 1912), P. 153.

(105) ارنولد، الدعوة، ص450.

(106) Copland , East Africa, P.29.

(107) محمود، الإسلام والثقافة: 43/1.

(108) See: The Influence, P. 41,42؛ نوري، تاريخ الإسلام، ص124

(109) ج.ن. أندرسون، إفريقية الاستوائية، التسلل واتساع الآفاق، بحث في كتاب الوحدة والتنوع،تحرير:كرونباوم، ترجمة:صدقي حمدي (بغداد: 1966)، ص405ـ406.

(110) طرخان، الإسلام واللغة العربية، ص64.

(111) أر نولد، الدعوة إلى الإسلام، ص387.

(112) جاك، الأديان في إفريقيا، ص126؛ وانظر: غيث، الإسلام والحبشة، ص71.

(113) عبدة، المسلمون والإسلام، ص186.

(114) Bakri , Op. Cit, P.168.

(115) محمد أحمد مشهور الحداد، حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في إفريقيا الشرقية، (بيروت:1973)، ص27.

(116) المقريزي، الخطط: 193/1.

(117) انظر: حسن، انتشار الإسلام، ص168.

(118) ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص387؛ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، دور مصر الحضاري في القارة الإفريقية قبل الاستعمار الأوربي (القاهرة: د/ت)، ص226.

(119) إبراهيم أبو زرباي: لم أجد له تعريفاً في المصادر والمراجع .

(120) هرر: وهي إحدى مدن الحبشة التي كان لها دور كبير في الانتصار على القبائل الوثنية وإدخالها في الإسلام وخاصة بعد القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. انظر: شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الشهير بعرب فقيه، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة (القاهرة: 1974)، ص45.

(121) قداح، إفريقيا الغربية، ص134؛ Tirmingham, The Influnce, P.34

(122) البكري، المُغرب، ص178.

(123) أحمد بن الحاج أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج (القاهرة: 1351هـ)، ص330-331؛ السعدي، تاريخ السودان، ص46؛ الالوري، موجز تاريخ نيجيريا، ص137؛ ارنولد، الدعوة، ص392.

(124) عوض الله، تجارة القوافل، ص98.

(125) الشيخلي، ملاحظات، ص25.

(126) شهاب الدين بن حجر العسقلاني، انباء الغمر بأنباء العُمر، (القاهرة: 1971) : 216/2.

(127) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة الثامنة، (بيروت: 1979) : 73/1.

(128) انظر: تاريخ السودان، ص 12-13 .

(129) أ.م. كاني، مظاهر الاتصالات، ص21.

(130) كانو: وهي من مدن الهوسا المهمة إلى جانب كاتسنة، ويقع إقليم كانو على بعد 500 ميل تقريبا إلى الشرق من نهر النيجر ويعتمد سكانها على تربية الأغنام والأبقار إلى جانب الزراعة، وكان ملكها ذا نفوذ كبير مما مكنه من إخضاع مملكة كاتسنة وزقزق إلى حكمه إلا أن الاسكيا الحاج محمد استطاع أن يخضعه لحكمه. انظر: نوري، تاريخ الإسلام، ص295.

(131) التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 331 .

(132) القلقشندي، صبح الاعشى: 289/5.

(133) المغربي، كتاب بسط الأرض، ص 28؛ الجغرافيا، ص95.

(134) المحارم: وهي قوانين أو دساتير أصدرها مايات(ملوك) برنو لتنظيم الحياة في بلدانهم، كما أن اغلبها كانت تحدد العلاقة مع الفقهاء وأصحاب الفضل على البلاد لتمنحهم الأمان والهبات، إذ لايحق لأحد التلاعب بمقررات ذلك المحرم. انظر: محمد، دولة كانم برنو، ص137.

palmer, the sudanes, vol.3, p. 38. (135)

(136) اوم بن جلمي: هو حاكم بلاد كانم برنو (478هـ/1086 م- 491هـ/1097م) إذ انتشر في عهده الإسلام على نحو واسع من خلال حملات الجهاد التي قادها وهو أول من أعلن إسلامه من الحكام، وجاء حكمه بداية لسلالة جديدة هي السلالة السيفية فهو بذلك مؤسس حكومة كانم الإسلامية. انظر:جوزيف، الإسلام، ص94؛ عطية الله، القاموس الإسلامي: 306/1.

(137) طرخان، امبراطورية البرنو، ص68 ؛ Trimingham, Ahistory Of Islam, P.115

(138) الماي بيري: وهو دالابيري ابن دونمة، حكم في برنو (546ـ573هـ/1151/1177م) وكان الإسلام قد توطد على عهده لحد أنه حينما أمر بسجن بعض اللصوص ولم ينفذ بهم حكم الشرع بقطع اليد، أمرت والدته (جوسوفاساما) بحسبه هو. انظر:

S. J. Hogben, An introduction to the History of the Islamic states of northern Nigeria. oxford: 1967, P.164.

Ajay, The Early Start, P. 166. (139)

(140) محجوب زيادة، الإسلام في السودان،ص93.

(141) جاء التأكيد على عدم التفريق بين الأمم والشعوب امتثالا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ .أنظر :سورة الحجرات/ آية13.

(142) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص394.

(143) سورة النور/ آية (31).

.Trimingham , The Influnce Of Islam, P. 41 (144)

(145) محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، (الكويت: 1982) ، ص610.

(146) زبادية، مملكة سنغاي، ص165؛ قداح، إفريقيا الغربية، ص68 .

(147) الشكري، الإسلام، ص197.

(148) البخاري، صحيح البخاري: 279/1 جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، الجامع الصغير، (جدة:د/ت) .

(149) ابن حوقل، صورة الأرض، ص101؛ الحداد، حقائق تاريخية، ص156؛ عبد الجليل، تاريخ وحضارات،

ص24.

(150) زكي، الإسلام والحضارة العربية، ص63؛ صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم، زنجبار، (القاهرة:د/ت)، ص11؛ الزبيدي، هجرة العرب المسلمين، ص101.

(151) الإدريسي، صفة بلاد المغرب، ص12؛ حسن، انتشار الإسلام، ص14.

(152) Trimingham , Islam In Ethiopia, P58.

(153) قاسم، الأصول التاريخية، ص61-62؛ الدجيلي، العلاقات، ص77-79.

(154) الحموي، معجم البلدان: 145/4؛ عبد العباس إبراهيم حمادي، الحركة الفكرية والعلمية بمدينة مراكش منذ تأسيسها حتى سقوط الدولة الموحدية وأثرها على المراكز الثقافية الإسلامية جنوب الصحراء (454-668هـ/1062-1269م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة القاهرة: 1980)، ص430.

(155) الزبيدي، هجرة العرب، ص108.

(156) زكي، الإسلام والمسلمون، ص 79.

(157) المسعودي، مروج الذهب :/438؛ القلقشندي، صبح الاعشى: 264/5.

(158) القوصي، تاريخ دولة الكنوز، ص33.

(159) أحمد، قصة الحضارة، ص190؛ نوري، تاريخ الإسلام، ص130.

(160) مخلد بن كيداد: وهو قائد الثورة ضد الفاطميين سنة 316هـ/928م، وكان من الإباضية فقد ولد نتيجة زواج والده بجارية سوداء إذ ولد هناك وعاد به أبوه مع الزنجية إلى زناتة ببلاد قسطيلية. انظر: ابن خلدون، العبر: 13/7-14.

(161) ابن خلدون، العبر: 84/4 ؛ أمين الطيبي، الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى، بحث منشور في مجلة البحوث التاريخية، س2، ع2 (يوليه: 1980)، ص262.

(162) أحمد بن محمد التلمساني المقري ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، (بيروت: 1986) : 608/5.

(163) العربي، مسالك الإسلام والعروبة، ص43.

(164) الشيخلي، الوجود العربي، ص122 .

(165) Trimngham,Islam In Ethiopia,P,34.

الفصل الثالث

الإسلام في
سودان وادي النيل والحبشة

أولاً : انتشار الإسلام في سودان وادي النيل

1- في بلاد البجة

2- في بلاد النوبة

أ– قيام الإمارة الكنزية الأولى

ب – قيام الإمارة الكنزية الثانية

ثانياً : الإسلام في الحبشة

1-انتشار الإسلام

2- قيام الدول الإسلامية في الحبشة

3- الصراع بين المسلمين والنصارى في الحبشة

4- حركة الجهاد الكبير في الحبشة

أولاً : انتشار الإسلام في سودان وادي النيل

1- في بلاد البجة :

اعتمد البجة على النظام القبلي وعدم الاستقرار في المساحة التي يشملها نفوذهم السياسي[1]، إذ تمتد حدود دولتهم في بعض الأحيان لتشمل مناطق تمتد غربي البحر الأحمر ابتداءً من حدود مصر العليا وانتهاءً بمملكة علوة[2]، في حين تتقلص مناطق نفوذهم في حقب زمنية أخرى لتقتصر على مناطق الساحل فقط[3]، ويشير بعض المؤرخين العرب إلى موقع أرض البجة بكونها تجاور الحبشة، وأنها بين النيل والبحر الأحمر[4]، ويشير الدمشقي ((إلى أنهم صنفان، الحداربة[5] وملكهم يسكن مدينة هجر، والزنافجة[6] وملكهم يسكن مدينة نقلين))[7].

وكان البجة قد سكنوا إفريقيا جنوب الصحراء منذ عصور قديمة، وأن أسلافهم كانوا من الحاميين الذين عبروا البحر الأحمر من جزيرة العرب[8]، واندمجوا بالمصريين القدامى المتواجدين في المنطقة ليكونوا سلالة واحدة[9]، فقد مرت بلاد البجة بالعديد من المراحل التاريخية قبل وصول الإسلام للمنطقة واتصل سكانها بسكان وادي النيل، واقتبسوا من حضارتهم وتعلموا الزراعة واستئناس الحيوان، وكان من أهم مناطق الاتصال بينهم، منطقة وادي العلاقي[10] وما يليها من جهة الجنوب حيث معدن الذهب، الذي كان عاملاً مهماً من عوامل الاتصال، فضلاً عن رغبة حكام مصر في إخضاع بلاد البجة لحكمهم، والذي تعزز في أثناء دخول البجة في النصرانية قبل ظهور الإسلام[11].

والبجة ((شديدو السواد، عُراة الأبدان، يعبدون الأوثان، وليس بأرضهم قرى بل بادية جدبة))[12]، ويوُصف البجاوي بأنه جاف الطباع، شديد النفور من الناس، وقد بالغ بعض المؤرخين بوصفهم بالتوحش وشدة النفور[13]، ويتكلم سكان بلاد البجة اللغة المسماة التبداوية[14]، كما تكلموا العربية فضلاً عن لغتهم بعد اختلاطهم بالعرب الوافدين إليهم كتجار أو مهاجرين.

أطلق العرب على القبائل الحامية الساكنة جنوبي مصر اسم البجة وعلى بلادهم بلاد البجة وهي المنطقة المحصور بين أسوان شمالاً والأطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوباً، والتي يحدها من الشرق البحر الأحمر ومن الغرب النيل الأعظم ونهر (أتبرا)[15]، والبجة شديدو السواد يعبدون الأوثان، وأغلبهم عُراة[16].

وعلى الرغم من الجوار الجغرافي لبلاد البجة من بلاد المسلمين في مصر إلا أنها لم تحظ بمعلومات وافرة في كتب الجغرافيين والمؤرخين المسلمين كبقية بلدان الإسلام التي وجدت لها

مكاناً واسعاً في ثنايا مؤلفاتهم، ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى كون تلك القبائل بدوية لا تمتلك شيء من التنظيم الإداري، وهو ما ذكره ابن حوقل بقوله: ((إن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء (البجة والزنج) مهملون في هذه الخصال ولاحظ لهم في شيء من ذلك، فيستحقوا إفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك))[17].

لقد امتازت علاقة المسلمين في مصر ببلاد البجة لاسيما في القرن الأول الهجري بالهدوء والاستقرار، إلا أن السنوات الأولى من القرن الثاني الهجري شهدت اعتداء البجة على المسلمين في صعيد مصر، والذي انتهى بموافقتهم على عقد الصلح مع عبيد الله بن الحبحاب سنة 107هـ/725م على شروط تكاد تكون مشابهة للشروط التي ضمتها معاهدة البقط، فعلى البجة دفع ثلاثمائة من صغار الإبل للمسلمين على أن يجتازوا ريف مصر مجتازين غير مقيمين، وألا يقتلوا مسلماً ولا ذمياً، وأن يردوا للمسلمين كل من هرب إليهم من العبيد[18].

وفي سنة 116هـ/734م أرسل الوالي عبيد الله بن الحبحاب[19] حملة بقيادة حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع فوصلت إلى أطراف بلاد السودان[20]، وقد أفادت تلك الحملة المسلمين في التعرف على المنطقة والاحتكاك بها[21]، إذ عقد المسلمون صلحاً مع البجة أثمر عن فتح تلك البلاد أمام العرب المسلمين فبدأوا بالوفود عليها بحثاً عن المعادن، والعمل في الوساطة التجارية بين مصر وشرق إفريقيا[22]، واستقروا هناك وتصاهروا مع البجاة ليثمر ذلك التصاهر في تقوية شوكة البجة بانضمام العرب الوافدين إلى المنطقة إليهم، وكذلك وصول أولئك العرب إلى السلطة، من خلال التصاهر[23].

وكانت تلك المعاهدة قد نظمت العلاقة بين الجانبين لمدة قرن من الزمن حتى عام 216هـ/841م حينما هاجم البجة مدينة أسوان ونواحيها مما استوجب تدخل والي أسوان والذي أخبر الخليفة العباسي المأمون بما حصل، فما كان من الخليفة إلا أن يجهز حملة بقيادة (عبد الله بن الجهم)[24] تمكنت من إجبار النوبيين من أن يوقعوا معاهدة خضوع للمسلمين وقعها حاكمهم (كنون بن عبد العزيز)[25] ضمت العديد من البنود وهي:

1- أن تكون المنطقة الواقعة بين مدينة أسوان في مصر إلى ميناء دهلك وباضع ملكاً للمسلمين وخليفتهم المأمون بن هارون الرشيد، وأن يصبح كنون بن عبد العزيز وجميع البجة عبيداً للخليفة مقابل السماح لكنون بالبقاء حاكماً في بلاده.

2- على البجة تأدية الخراج للمسلمين في عام على ما كان يؤديه سلفهم وهو مائة من الآبل أو ثلاثمائة دينار تؤدى لبيت مال المسلمين.

3- على البجة أن لا يذكروا الإسلام ولا الرسول محمد ﷺ بسوء وألا يقتلوا مسلماً حراً كان أم عبداً أم معاهداً في بلادهم أو ما جاورهم من أرض النوبة ومصر، وألا يعينوا أحداً على المسلمين.

4- لا يحق للبجة إيواء عبد هارب من عبيد المسلمين أو التعرض له حتى يتم إعادته لبلاده.

5- على البجة الحفاظ على من دخل بلادهم من المسلمين تاجراً أو مقيماً أو حاجاً أو مجتازاً أو عاملاً من عمال قبض صدقات من أسلم في بلاد البجة.

6- لا يحق لمن دخل صعيد مصر من البجة مجتازاً أو تاجراً أن يظهر سلاحاً أو يدخل مدينة أو قرية.

7- ألا يهدم البجة شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون هناك[26].

وفي سنة 241هـ/855م امتنع البجاة عن أداء الخراج المتمثل بتسليم عمال السلطان في مصر (أربعمائة مثقال من الذهب الخالص)، فكتب صاحب البريد في مصر (يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي) إلى الخليفة المتوكل يبلغه بأن البجة نقضت العهد وأغاروا على العرب المسلمين العاملين في استخراج المعادن، وقتلوا وسبوا نساءهم، فاستشار المتوكل مقربيه فأشاروا عليه أن يتريث لأن البجة بدو وأن أرضهم تبعد عن بلاد المسلمين حوالي الشهر، وهي أرض صعبة جرداء حارة قليلة المياه، فصبر الخليفة عليهم إلا أنهم تمادوا في إيذاء المسلمين حتى خاف مسلمو صعيد مصر على أنفسهم منهم مما اضطر الخليفة العباسي المتوكل (232هـ/ 846م- 246 _هـ/861 م) إلى إرسال محمد بن عبد الله القمي على رأس جيش لمحاربتهم، وانضم إليه العرب المسلمون الموجودون في بلاد البجة، كما أنه اتبع خطة عسكرية ذكية لتحقيق النصر من خلال تجهيز سبعة سفن بالمواد الغذائية والمياه والمؤن وإرسالها إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) لتكون قريبة من المكان الذي سيقاتل فيه المسلمين البجة، وما أن وصل محمد القمي وجيشه منطقة معادن الذهب حتى خرج له جيش البجة بقيادة زعيمهم (علي بابا) ومعه العدد المضاعف عن جيش المسلمين محاولين إنهاك جيش المسلمين وإنهاء مؤونتهم، إلا أن خطة محمد القمي قد نجحت وتمكن من هزيمة البجاة وقتل زعيمهم (علي بابا)، وإجبارهم على تأدية الخراج المتأخر، والالتزام بما عاهدوا عليه العرب المسلمين من قبل[27].

وربما كان لتلك المعاهدة الدور الفاعل في توجه أبناء القبائل العربية الساكنة في مصر نحو بلاد البجة ، ففضلاً عن قبيلة هوازن التي كان لها حضور فاعل في المنطقة فقد هاجرت مجموعات من قبائل جهينة وربيعة إلى هناك للاستقرار والعمل في استخراج الذهب وبقية

المعادن، إلا أن أكبر تلك الهجرات كان قد شهدها عصر الدولة الطولونية في مصر حينما دعمت الدولة عملية الهجرة ودعت إلى الخروج لمواجهة الاعتداءات من قبل البجة على مصر، وقد طمح أحمد بن طولون (254-270هـ/868-880م) من خلال ذلك إيقاف الاعتداء على المسلمين وفي الوقت نفسه التخلص من القبائل العربية التي هي في حالة تمرد مستمر ضد السلطة الطولونية[28].

وفي عام 255هـ/869م خرجت من مصر حملة بقيادة (أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري) متوجهة نحو بلاد البجة لتحقق نصراً كبيراً عليهم وتخطط لبقاء من جاء مقاتلاً في تلك البلاد، وقد خاطب العمري والي مدينة أسوان بالسماح للتجار المسلمين بالسفر إلى بلاد البجة مما ساعد في وصول أعداد كبيرة منهم أسهمت في انتشار الإسلام هناك ونقل المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية إلى تلك البلاد[29].

لقد مهدت تلك الحملة لوصول مجموعات كبيرة من أبناء القبائل العربية إلى تلك البلاد، من قبائل جهينة وربيعة وبلى وغيرها ليستقروا هناك ويختلطوا بالسكان مما نجم عنه حدوث مصاهرات بين الجانبين العربي والبجاوي مستفيدين من النظام الاجتماعي المُتبع في تلك البلاد والقائم على توريث الحكم لابن البنت أو ابن الأخت والذي أصبحوا من خلاله حكاماً للبجة.

2- في بلاد النوبة :

تمثل بلاد النوبة المنطقة الواقعة بين الشلال الأول ومنطقة سنار الواقعة على النيل الأبيض، وتتكون النوبة من ثلاث ممالك مسيحية هي من الشمال إلى الجنوب، مملكة المريس وعاصمتها قوص، ومملكة المقرة وعاصمتها دنقلة، وعلوة وعاصمتها سوبا، وكونت مملكتي المريس والمقرة في النصف الأول من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي اتحاداً[30]، وكانت المسيحية قد دخلت إلى بلاد النوبة عن طريق مصر وانتشرت فيها[31].

ويُعد النوبيون فئة سكانية أخرى في المنطقة، إذ تقع بلادهم على طول نهر النيل قبل دخوله أرض مصر[32]، وكان العرب قبل الإسلام يطلقون اسم الكوشيون على سكان بلاد النوبة، نسبة إلى كوش بن حام[33]، وفي القرن السادس قبل الميلاد قامت في بلاد النوبة مملكة مروى[34] واستمرت حتى سقوطها في القرن الرابع الميلادي على يد مهاجمين قادمين من الممالك النصرانية في الحبشة، وكان العديد من التجار المعينيين والسبأيين، ومن بعدهم الحميريين قد عبروا في فترة سابقة للميلاد البحر الأحمر ليستقر بعضهم في الحبشة،

والبعض الآخر تحرك باتجاه بلاد النوبة[35]، ويشير المؤرخ الحموي إلى أن ملوك النوبة يزعمون أنهم من حمير اليمنية ((ولقب ملكهم كابيل))[36]، ولعل أصل لفظ كابيل جاء من لقب (قيل) وهو لقب أُطلق على بعض حكام اليمن[37]، كما استمر ذلك التداخل بين العرب وسكان النوبة بعد الميلاد[38].

وشعب النوبة يعيش بالقرب من نهر النيل وذلك لاشتغالهم بالزراعة من جهة، ولأن الطبيعة الصحراوية للأقاليم المتاخمة له شرقاً وغرباً قد أرغمت السكان على مر القرون أن تظل ملتزمة للنهر، وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة التي تحف به[39]، وكانت مجموعات من القادمين من بلاد العرب قبل الإسلام قد اختلطوا بسكان بلاد النوبة وتصاهروا معهم فأضيف النسب العربي الجديد إلى النسب النوبي القديم[40].

وكانت عاصمة بلاد النوبة مدينة دنقلة عند انتشار الإسلام في المنطقة بعد أن كان الحكُم في بلاد النوبة عند فتح مصر يتكون من اتحاد مملكة نوباتيا في النوبة السفلى، ومملكة مقرة وعاصمتها دنقلة في النوبة الوسطى، ومملكة علوة وعاصمتها سوبا في النوبة العليا[41].

ويذكر مؤرخ آخر عند كلامه عن بلاد النوبة[42]، بأن سكانها سود البشرة[43]، بعد أن اطمأن المسلمون من عملية فتح مصر واستقروا بها، قرروا تأمين حدودها الجنوبية فجهزوا حملة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح[44] سنة 21هـ للهجوم على بلاد النوبة وعاصمتها دنقلة، إلا أن التوفيق لم يُكتب لتلك الحملة والتي ربما كان الغرض الأساس منها هو الاستطلاع ومعرفة قدرات العدو، كما أن لشراسة النوبيين وتمكنهم من الرمي بالسهام للحد الذي سموا فيه (برماة الحدق) لتصويبهم السهام في حدقة عيون مهاجميهم دور في انسحاب قوات المسلمين وعدم استكمالها الفتح.

إلا أن ذلك الانسحاب لم يثني المسلمين من التهيئة لمعركة جديدة ضد النوبة وهو ما حصل فعلاً في عام 31هـ حينما جهزوا جيشاً بقيادة القائد نفسه (عبد الله بن سعد) الذي جهز هذه المرة جيشه بالمنجنيق ليضرب به حصون أهل النوبة ويدفعهم للاستسلام وهو ما حصل فعلاً حينما عرضوا الصلح على المسلمين الذين وافقوا بدورهم عليه وعقدوا معاهدة أُطلق عليها معاهدة البقط دامت حوالي ستة قرون ونصت على:

1- إعطاء النوبيين عهد الأمان من خلال عدم محاربتهم طالما كانوا سيحافظون على هذه المعاهدة.

2- السماح للنوبيين بدخول مصر مجتازين غير مقيمين.

3- على النوبيين الحفاظ على كل مسلم أو معاهد يدخل بلادهم حتى يخرج منها.

4- رد كل من يدخل بلادهم من عبيد المسلمين الهاربين (العبيد الآبقين)، ولا يحق لهم الاستيلاء عليه أو منع من يريد الوصول إليه لإعادته.

5- على النوبة حفظ المسجد الذي بناه المسلمون في أطراف مدينة دنقلة عاصمة النوبة، ولا يمنعوا المصلين من الصلاة فيه، وأن يقوموا بتنظيفه وإسراجه.

6- لا يقع على المسلمين مسؤولية حماية أرض النوبة من أي اعتداء خارجي.

7- أن يدفع النوبة (360) رأس من الرقيق في رأس كل عام للمسلمين، شريطة أن لا يكون بينهم طفلاً ولا شيخاً هرماً مقابل الحصول على المواد الغذائية من مصر.

8- في حالة عدم الالتزام بأي من تلك الشروط فإن المعاهدة تصبح لاغية.

9- تعهد الجانبان بكل ما يؤمنون به للحفاظ على تلك المعاهدة[45].

لقد نظمت هذه المعاهدة العلاقة بين النوبيين والمسلمين لمدة ستة قرون كان فيها كل طرف قد اطمأن لنوايا الطرف الآخر وكانت الفائدة قد عمتهما، وعلى الرغم من ذلك فإن لتسامح الإسلام مع الآخرين دور في تعديل تلك المعاهدة، فقد طرأ على تلك المعاهدة تعديلان مهمان الأول في عهد الخليفة العباسي المهدي (159-169هـ/775-785م)، إذ تم الاتفاق على أن يتم الدفع كل ثلاث سنوات بدلاً من السنة، كما أضاف النوبة لما يدفعون الزرافة كونها غريبة بالنسبة للعرب وغير موجودة في بلادهم[46]، وكمية من الحيوانات الوحشية والأليفة الأخرى[47].

أما التعديل الثاني للمعاهدة فقد تم خلال زيارة ولي عهد النوبة (جورج بن زكريا بن يحنس) إلى بغداد زمن الخليفة العباسي المعتصم (218-227هـ/833-841م) والذي كانت قد شهدت مصر على عهده توتراً ملحوظاً لاسيما بعد أن أقدم المعتصم على شطب أسماء العرب في مصر من ديوان الجند مما أثارهم وشجعهم على مخالفته، إلا أنه فكر ملياً في كيفية الوقوف أمام ذلك الغضب فقرر التخفيف من التوتر الحاصل بين المسلمين في مصر وبين النوبة فحالما طلب ولي عهد النوبة مقابلته وافق على ذلك واستقبله استقبالاً حافلاً وأهداه الكثير ووافق على العودة إلى الالتزام بمعاهدة البقط وإرسال المؤن والمواد الغذائية إلى النوبة مقابل الحصول على الرقيق وتثبيت فترة الدفع في كتاب كتبه للنوبة بكل ثلاث سنوات[48].

وكان لقيام دولة المماليك في مصر سنة (648هـ/1250م) دور كبير في القضاء على المملكة المسيحية في بلاد النوبة لاسيما بعد أن أبعد المماليك في مصر العرب عن السلطة والجيش مما دفع بالكثير من أبناء القبائل للهجرة إلى بلاد النوبة والبجة، كما شهد عهد المماليك قيام

حملة عسكرية باتجاه النوبة سنة (675هـ/1276م) وانتهت على أثرها الكيان السياسي المستقل للنوبة ووضعت حاكماً نوبياً يطيع أوامرها اسمه شكندة ويكون نائباً للسلطان المملوكي على بلاد النوبة، فضلاً عن ذلك فقد كان للانقسامات السياسية داخل بلاد النوبة دور كبير في زوال المملكة على نحو نهائي سنة (722هـ/1322م) ليتسلم الحكم فيها عرب مسلمين من بني ربيعة من خلال حكم دولة الكنوز الإسلامية[49].

وخلال تلك الفترة كانت مملكة (علوة) المسيحية تستقبل عدداً من أبناء القبائل القادمين إليها من مصر للتجارة، وفي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وصلت مجموعات عربية إلى المنطقة حيث جذبتها المراعي، إلا أن تلك الهجرات أزداد عددها بعد حملات المماليك على بلاد النوبة وسقوط مملكة المقرة بيدهم، وبازدياد المسلمين هناك تم تأسيس اتحاد بزعامة (عبد الله جماع) شيخ قبيلة العبدلاب والذي تمكن من القضاء على مملكة (علوة) المسيحية في أواسط القرن 9هـ/15م[50].

وفي تلك الأثناء حكمت مجموعة عربية أخرى في بلاد النوبة وهي الفونج بالمشاركة مع العبدلاب، فأصبحت المنطقة الواقعة مابين النيلين الأبيض والأزرق وصولاً إلى الحبشة تابعة لملكة الفونج بزعامة (عمارة دونقس) في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وقد بلغ ذلك الرجُل من الرفعة والغنى الحد الذي جعله يُقدم الذهب والرقيق كهدية لكل قادم إلى بلاده لاسيما إذا ما كان ذلك الزائر يعود بنسبه لآل الرسول محمد ﷺ [51]، بينما أصبح (عبد الله جماع) حاكماً للمناطق الواقعة شمال السودان حتى حدود مصر باسم (مشيخة العبدلاب)[52].

فضلاً عن ذلك فقد قامت في المنطقة مملكة أخرى هي (دارفور) التي حكمت للفترة (1638-1875م) بزعامة رجُل من قبيلة بني هلال يُدعى (سليمان سولونج) تزوج من ابنة حاكم الدولة الوثني الذي سلم الحكم لزوج ابنته سليمان[53]. وكان من نتائج انتشار قبيلة ربيعة العربية في بلاد البجة والنوبة وزواج أبنائها من بنات البجة والنوبة أن سيطروا على الحكم وقاموا بتأسيس إمارة إسلامية هناك على مرحلتين وكما موضح أدناه :

أ- قيام الإمارة الكنزية الأولى :

استفاد عرب ربيعة من نظام وراثة العرش القائم في بلاد البجة والقاضي بتوريث ابن البنت أو ابن الأخت ، فحصلوا على الحكم من خلال زواجهم من نساء البجة الذين يُطلق عليهم اسم (الحدارب) ويرأسهم رجُلان هما (عبدك) و (كوك)، فهما صاحبا الفضل في وصول الحكم للعرب المسلمين فالأول هو خال (إسحاق بن بشر) الذي حكم البجة في منطقة

وادي العـلاقي[54] سنة (332هـ/943م) ، والثـاني هـو خـال (أبو القـاسم حـسين بن علـي بن بشر)[55].

وبعد مقتل (إسحق بن بشر) تسلم إمارة ربيعة في وادي العلاقي (أبا عبد الله محمد بن علي بن يوسف) المعروف (بأبي يزيد بن إسحق) والذي قرر نقل مقر حكم قبيلة ربيعة إلى مدينة أسوان[56]، وعمل منذ تلك الفترة على بناء مدينة جديدة تقع جنوب أسوان اسماها (المحدثة)، إلا أنها لم تكن لتستوعب الأعداد الكبيرة من أبناء قبيلة ربيعة الذين اندفعوا نحو مملكة المريس إحدى ممالك النوبة الثلاث لتصبح المنطقة كلها تحت سيطرة قبيلة ربيعة[57].

وفي الوقت الذي سيطر فيه فرع من قبيلة ربيعة على (المريس) وحكمها من خلال نظام وراثة الحكم، سيطر فرع آخر منها على حكم البجة إلى أن توحدت المجموعتان وكونتا مركزاً لها في أسوان، وبعد وفاة (أبو يزيد بن اسحق) تولى ابنه (أبو المكارم هبة الله) السلطة والذي يُعد المؤسس الحقيقي لإمارة ربيعة الكبرى والتي امتدت لتشمل مناطق الصعيد الجنوبية فضلاً عن (المريس) النوبية وأسوان، وبعد تلك السيطرة اعترفت الدولة الفاطمية في مصر بالإمارة الجديدة ومنحت (أبو المكارم هبة الله) لقب (كنز الدولة)، ويبدو أن سبب تحالف الفاطميين مع تلك الإمارة هو رغبة الفاطميين في تقوية تلك الإمارة لكي تؤمن حدود مصر الجنوبية، فضلاً عن وقوف (أبو المكارم) إلى جانب الفاطميين خلال هجوم (أبو ركوة) عليهم سنة (397هـ /1006م)[58].

وطيلة الفترة (397-466هـ/1006-1073م) كانت علاقات المودة والتفاهم تسود العلاقات بين بني الكنز والفاطميين، إلا أن سنة (466هـ/1073م) شهدت إعلان (كنز الدولة محمد) استقلال إمارته عن الدولة الفاطمية التي كانت تسودها الفوضى والتي لم تنتهي إلا على يد (بدر الدين الجمالي) والذي بدأ معركة إعادة السيطرة على البلاد وإعادتها إلى السيطرة الفاطمية فطارد كنز الدولة وهزمه في معركة دفعته للهرب نحو (دنقلة)[59].

وبعد وصول كنز الدولة إلى دنقلة أُلقي القبض عليه من قبل ملكها وسلمه للدولة الفاطمية التي قامت بقتله على يد (بدر الجمالي) ثم أعفى عن بقية أبناء كنز الدولة من العقوبة بعد وساطة ملك النوبة، وبناءً على ذلك العفو فقد تسلم إمارة كنز الدولة (سعد الدولة سارتكين القواسي) فكان عهده عهد سلم مع الفاطميين حتى وفاة المستنصر الفاطمي سنة (487هـ/1094م) وحتى سنوات خلافة المستعلي حينما شاركوا مع الفاطميين في مواجهة الأفرنج سنة (493-494هـ/1099-1100م)[60].

ويبدو أن علاقة بني الكنز قد ساءت في نهاية عهد الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي

والذي كان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد سنة (567هـ/1171م)، إذ قضى صلاح الدين على الفاطميين وسيطر على مقاليد الأمور وحارب كل من ساندها ووقف إلى جانبها، كما قضى على ثورة (مؤتمن الخلافة نجاح) ضده[61].

وحينما علم الجُند السودان وحراس القصر بقتل صلاح الدين لمؤتمن الخلافة قرروا مهاجمة قصر الوزارة حيث صلاح الدين، إلا أن هجومهم باء بالفشل لاسيما بعد أن تدخل (توران شاه) أخو السلطان صلاح الدين ولاحقهم إلى مناطق سكنهم في المنصورة وأحرق الدور فهرب السودان نحو الصعيد حيث إمارة بني الكنز التي رحبت بهم، وقرروا فيها استجماع قواهم والهجوم مرة ثانية على قوات صلاح الدين الأيوبي[62].

فبدأت أحداث الثورة على صلاح الدين حينما قام (كنز الدولة بن المتوج) سنة (570هـ/ 1174م) بالهجوم على (أبي الهيجاء السمين) الحاكم الجديد لمنطقة أسوان والصعيد[63]، فجمع كنز الدولة جنده من العرب والسودان والمصريين الثائرين لشن الهجوم الذي ترافق معه انشغال قوات صلاح الدين بصد هجوم للفرنج على الإسكندرية، كما أن ثورة داخلية قامت في الصعيد ضد صلاح الدين بقيادة (عباس بن شادي)، إلا أنها اندحرت أمام قوات صلاح الدين الأيوبي[64].

ويبدو أن علاقة بني الكنز بالأيوبيين بعد خسارتهم وانتهاء إمارتهم الأولى كانت سلمية لاسيما بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة (589هـ/1192م) ، فبني الكنز لا يشكلون خطراً على حدود مصر الجنوبية ، كما أن الأيوبيين كانوا منشغلين بالصراعات والمؤامرات الداخلية على السلطة والتي انتهت بوفاة (نجم الدين أيوب) سنة (647هـ/1249م)، لذلك فكر بني الكنز في إقامة إمارة ثانية في بلاد النوبة الشمالية[65].

وكما نجح بنو الكنز في إقامة إمارة في بلاد البجة من خلال المصاهرة مع سكانها، نجحوا أيضاً في بلاد النوبة حينما سيطروا على المقرة بالأسلوب نفسه، فضلاً عن ذلك فقد استفاد الكنزيون من الحملات التي شنها المماليك على بلاد النوبة في تدعيم نفوذهم، فقد قرر المماليك مهاجمة بلاد النوبة وحرمان مملكتي المقرة وعلوة من منفذهما البحري بسبب هجومهم المستمر على جنوب مصر ونقضهم لمعاهدة البقط ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس حملة إلى ميناء سواكن سنة 644هـ/1265م للاستيلاء على سواكن وإبقاء حامية مملوكية فيها، الأمر الذي دفع بملك النوبة (داؤد) إلى الهجوم على ثغر عيذاب ومدينة أسوان سنة 671هـ/1272م[66].

لقد حدثت عدة حملات عسكرية مملوكية ضد بلاد النوبة بسبب خروج ملوك النوبة

المسيحية على السلطة ونقضها لمعاهدة البقط. انتهت تلك الحملات بالقضاء على الملك داؤد ووضع حاكم جديد اسمه (شكندة) الذي تعهد بدفع البقط والاعتراف بالسلطة المملوكية عليه سنة (671هـ/1272م)[67]، وقد أوفى شكندة والحاكم الذي تبعه (برك) بتعهداتهما[68]، إلا أن وفاة (برك) ووصول (سيمامون) للسلطة كانت إيذاناً لعودة خروج ملوك النوبة عن طاعة المماليك في مصر، ووفق ذلك العصيان فقد جهز المماليك حملة عسكرية وصلت بلاد النوبة سنة (688هـ/1289م) وعملت على خلعه ووضع ابن أخته بدلاً منه، لكنه عاد إلى السلطة حال عودة الجيش المملوكي وخرج عن سلطة المماليك ثلاث مرات حتى وفاته [69].

وفي سنة (693هـ/1294م) تسلم عرش النوبة رجُل اسمه (أنى) مُعلنا ولاءه وطاعته لسلطان مصر المملوكي (الأشرف خليل)، إلا أن ذلك الملك لم يكن صاحب الحق الشرعي في الحكم فجرد المماليك حملة ضده أسفرت عن خلعه ووضع حاكم جديد لدنقلة اسمه (بوديما)[70]، وبعد وفاته تسلم حكم البلاد (أماي) الذي كان ملتزماً بطاعة المماليك في بداية حكمه إلا أنه خرج عن طاعتهم فيما بعد ورفض دفع البقط ، مما شجع المماليك على الهجوم عليه وأسر والدته وأخوته وعمه لإرغامه على الطاعة وهو ما حصل فعلاً حينما اعتذر عن أفعاله وتعهد بدفع البقط والطاعة للسلطان المملوكي[71].

وبعد وفاة (أماي) تسلم الحكم (كرنبس) سنة (716هـ/1316م) والذي عُرف بكرهه للمماليك فامتنع عن دفع البقط حال تسلمه للحكم، مما شجع المماليك على خلعه ووضع حاكم نوبي مسلم اسمه (عبد الله برشمبو) بدلاً عنه، وهي نقطة تحول في تاريخ البلاد تمثلت في تسلم مسلم الحكم[72] .

ب – قيام الإمارة الكنزية الثانية :

مع بداية عام (716هـ/1316م) تسلم عبد الله برشمبو حكم النوبة على نحو رسمي، إلا أن تسلمه الحكم أزعج بني الكنز الطامحين في السلطة، فبعد خلع (كرنبس) أرسل رسالة للسلطان المملوكي يطلب فيها تسليم الحكم لابن أخته (كنز الدولة شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك)[73]، إلا أن السلطان المملوكي رفض ذلك وحجز (كنز الدولة شجاع) في مصر وشن حملة لتنصيب (عبد الله برشمبو)، مما دفع كرنبس وأخيه (أبرام) للهرب نحو مملكة علوة النوبية، والتي قام ملكها بتسليمهما للسلطان المملوكي، وحال وصولهما أعلنا إسلامهما مما شجع السلطان لمعاملتهما بالحسنى[74].

وفي أثناء ذلك تمكن كنز الدولة شجاع من أن يخدع السلطان المملوكي ويهرب من مصر

بحجة الذهاب إلى أسوان لجمع ما عليه من خراج، وحالما وصل بلاده لقي ترحيباً كبيراً من العرب والنوبيين ونصبوه ملكاً عليهم سنة (717هـ/1317م) بعد مقتل (عبد الله برشمبو)، إلا أن (كنز الدولة) لم يضع التاج على رأسه تعظيماً لمكانة أخواله[75].

وأمام تلك الأحداث قرر السلطان المملوكي إطلاق سراح (أبرام) خال كنز الدولة ليعود إلى النوبة ويوبخ ابن أخته، وحال وصوله إلى بلاده استقبل من قبل كنز الدولة بحفاوة كبيرة وتنازل له عن السلطة، إلا أن (أبرام) كان قد تعهد للسلطان المملوكي بالطاعة وتنفيذ طلباته حال عودته إلى بلاده، فما كان منه إلا أن يلقي القبض على ابن أخيه ليتم تسليمه لمصر، إلا أن موت (أبرام) بعد ثلاثة أيام حال دون ذلك ومنح (كنز الدولة) الحرية ليعود إلى الحكم مرة أخرى في احتفال مهيب[76].

وحينما سمع السلطان المملوكي بما حصل قرر معاودة الكرة فأطلق سراح خال كنز الدولة الآخر (كرنبس) وأرسله إلى بلاده على رأس قوة عسكرية وما أن سمع كنز الدولة بقدومها حتى هرب من دنقلة متجهاً نحو (علوة)، لكنه عاد إلى دنقلة حال عودة القوات المملوكية منها مما أجبر السلطان المملوكي الناصر للاعتراف بكنز الدولة سلطاناً للبلاد سنة (723هـ/ 1323م)[77].

ووفقاً لذلك الاعتراف بقيت (دنقلة) وحكامها تخضع للسلطان المملوكي الناصر (محمد بن قلاوون، وفي الوقت نفسه عمل حكام النوبة من بني الكنز على تنظيم بلادهم وترصين حكمهم في المنطقة وتسليح جيشهم وتنظيمه، في وقت كانت دولة المماليك تعاني من الضعف والانقسام لا سيما في الفترة التي سبقت عهد السلطان المملوكي الأشرف شعبان (764-778هـ/1362-1376م)، وفي سنة (767هـ/1365م) وصلت إلى القاهرة سفارة من بلاد النوبة مكونة من شخصين هما (ركن الدين كرنبس) و (ياقوت فارس الدين) طالبة من السلطان الأشرف شعبان المساعدة في رفع الحصار الذي فرضه (بني جعد) على دنقلة مقابل التعهد بدفع جزية مالية لمصر[78].

وعلى أثر ذلك أرسل السلطان المملوكي قوة عسكرية بقيادة (اكتومر عبد الغني) لفك الحصار عن السلطان الكنزي، إلا أن ذلك القائد حالما وصل دنقلة غدر بالجميع فحارب بني جعد وبني الكنز معاً وأسر منهم الكثير وجلبهم معه إلى مصر ليسلمهم إلى والي أسوان (حسام الدين) المعروف بالدم الأسود ليقوم بدوره بالتشهير بهم وسمر أيديهم ثم قتلهم، وفي الوقت نفسه استجمعت القوات الكنزية قواها وهاجمت القوات المملوكية وانتصرت عليها ودخلت أسوان وخربتها ثم انسحبت منها[79].

وفي سنة (780هـ/1378م) دبت الصراعات الداخلية في بلاد النوبة بين بني الكنز مما

فسح المجال أمام والي أسوان (قرط بن عُمير) للانتقام منهم فهاجم قوة كنزية خارج أسوان كانت تضم أحد عشر شيخاً كنزياً وبعث برؤوسهم إلى القاهرة، كما قبض على أحد أمراء بني الكنز اسمه (غلام الله) كان يخطط للهجوم على الدولة المملوكية[80].

وفي سنة (783هـ/1381م) استولى بنو الكنز على أسوان بمساعدة قوات حبشية ثم انسحب منها، ثم عادت سنة (790هـ/1388م) لتستولي عليها مرة أخرى وتنسحب منها، وعادت للمرة الثالثة سنة (798هـ/1396م) لتستولي عليها وتبقى فيها حتى سنة (800هـ/ 1397م) حينما وجه المماليك حملة لاستعادتها، وفي الوقت نفسه كانت تعصف بالمنطقة على نحو عام مجاعة خربت كل شيء وأسفرت عن هجرة العديد من القبائل لا سيما قبيلة هوارة البربرية والتي وصلت أسوان وقضت على بني الكنز على نحو نهائي سنة (815هـ/ 1412م)[81].

ثانياً: الإسلام في الحبشة

1- انتشار الإسلام :

كانت جل معرفة العرب بالمنطقة في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام تنصب على بلاد الحبشة وساحلها، فقد عرفها المسلمون منذ قرون عديدة وربطتهم بها صلات قوية كانت التجارة أساسها[82]. وقد سهّل التقارب بين الساحل العربي والحبشة في التجاذب والاختلاط بين الطرفين، وقد تضافرت عوامل عديدة لقيام تلك الصلات منها قرب السواحل العربية من الساحل، إذ ((لا يزال الفارق بينهما يضيق حتى يرى في بعض جنباته الجانب الآخر))[83].

لقد كانت العلاقات بين السودان الشرقي والعرب قديمة جداً وممتدة إلى عهد الفراعنة في مصر سنة (2470ق. م) لاسيما في عهد (ساحورع) من الأسرة الفرعونية الخامسة، حينما قام المصريون برحلة في البحر الأحمر وجلبوا خلالها الأخشاب والبخور من المنطقة[84]، واستمرت تلك العلاقات بين الطرفين، ثم امتدت لتشمل مناطق أخرى فوصل بعض السومريين والاكديين إلى المنطقة، إذ وجدت عملات نقدية سكت في بلاد الرافدين، وعُثر على بقايا برج قد تم بناؤه على طراز الزقورة[85].

كما حدثت اتصالات أخرى مع السودان الشرقي تمثلت بهجرة العديد من أبناء شبه الجزيرة العربية ولاسيما من اليمن، إذ كان لدولة أوسان[86] العربية مراكز تجارية على الساحل الشرقي تابعة لها سياسياً، حتى أن تسمية (ازانيا) التي أطلقت على الساحل كانت مشتقة من اسم أوسان[87].

لقد هاجر اليمنيون والحضارمة إلى القرن الإفريقي واستقروا في الحبشة، وكانت قبيلة

الأجاعز في مقدمة القبائل المهاجرة والتي استقرت في الأجزاء الجنوبية من مرتفعات إريتريا، ونشرت لغتها الجعزية بين سكان الهضبة، ثم تبعتها قبيلة حبشت اليمنية واستقرت جنوب مواطن قبيلة الأجاعز، لتأخذ المنطقة من تلك القبيلة اسمها[88]، كما أن استمرار توافد العرب إلى بلاد الحبشة قبل الإسلام قد أعاد ازدهار مملكة أكسوم[89] إذ وضعوا أساس الحضارة الحبشية، وغرسوا النواة التي ترعرعت منها تلك المملكة[90].

كان للقرب الجغرافي لبلاد العرب من شرق إفريقيا دور كبير في التواصل بين الجانبين منذ فترات سابقة للإسلام تعود إلى عصر الدولتين السبأية والحميرية حينما خرجت هجرات فردية وجماعية باتجاه المنطقة لاسيما حينما واجهت المنطقة العربية مشكلات عديدة طبيعية وسياسية تمثلت في انهيار سد مأرب وما تبعه من تدمير للأراضي الزراعية، فضلاً عن سنوات الجفاف التي أرغمت الكثير من المزارعين لترك أراضيهم والبحث عن أماكن أكثر خصوبة.

وتمثل الحبشة نقطة اللقاء الأولى بين العرب والأفارقة بعد ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، لاسيما بعد الاضطهاد والتعذيب الذي لاقاه الصحابة الأوائل على يد مشركي مكة في بداية الدعوة الإسلامية.

وكان لحكمة الرسول محمد ﷺ دور كبير في اختيار الحبشة كمكان يهاجر إليه أصحابه دون غيرها من الأماكن، فهو لم يختر اليمن مثلاً كونها تمثل مكان صراع القوى العظمى وهي الفارسية والعربية، فضلاً عن أنها مكان يتواجد عليه أتباع ديانتين هما اليهودية والمسيحية، كما أنه لم يختر أي من مدن وقرى الجزيرة العربية كونها تمتلك معاهدات مع قريش تتيح للطرفين إعادة من خرج هاربا منها.

ووفقا لتلك الحكمة المحمدية فقد توجه الصحابة الأوائل من مكة متجهين نحو بلاد الحبشة التي نصحهم الرسول محمد ﷺ بالذهاب إليها لما عرفه عن عدل وصبر وحلم ملكها الذي استقبلهم وقبل بوجودهم في بلاده ليكونوا النواة الأولى للإسلام على تلك الأرض.

لقد ضم الوفد الذي وصل إلى بلاد الحبشة عدداً من كبار الصحابة الكرام والذين اندمجوا في المجتمع الحبشي طيلة فترة بقائهم هناك، وقد تزايد عددهم لاسيما بعد وصول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إليهم ليصل عددهم حوالي (82) رجل و (26) امرأة و (12) طفلا[91].

وأكدت الروايات أن المجموعة الأولى من المسلمين خرجت إلى الحبشة في شهر رجب من سنة (خمسة) للبعثة النبوية[92] إلا أن تلك الروايات اختلفت في تحديد عددهم فابن إسحاق أشار إلى أنهم عشر رجال وأربع نساء ومجموعهم أربعة عشر شخصا[93] بينما ذكر ابن

سعد أنهمكانوا أحد عشر رجلا وأربع نساء[94] في حين يذكر اليعقوبي أنهم كانوا اثنا عشر رجلا من غير ذكر عدد النساء[95]. ومهما كان عددهم فإنهم يمثلون النواة الأولى التي عرفت الأحباش بالإسلام والمسلمين.

وكانت تلك الدفعة من المهاجرين تمثل الدفعة الأولى والتي ربما عملت على استطلاع الحبشة والتهيئة لحضور دفعات أخرى من المهاجرين، بعد التأكد من مدى استعداد تلك البلاد لقبول المهاجرين[96]، وفي حين أن المصادر لم تتطرق لحياة أولئك الصحابة في الحبشة ومكان سكنهم ومدى اندماجهم في المجتمع الحبشي إلا أنها أشارت إلى مسالة عدم التقائهم بالنجاشي[97].

وعلى الرغم من عدم استمرار مهاجري الدفعة الأولى طويلا في الحبشة وعودة أغلبهم إلى مكة بعد سماعهم بإسلام زعماء قريش وسجودهم بعد الإستماع إلى سورة النجم متوهمين أن ذلك الأمر أصبح حقيقة، إلا أن جلاء الأمر وبيان الحقيقة أسهم في قيام دفعة جديدة بالتهيؤ للهجرة مرة أخرى إلى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه[98].

وتبدو عظمة الإسلام وصدق حكمة الرسول ﷺ وصحة اختياره للحبشة في عدم تسرع النجاشي في الحكم على المهاجرين وتسليمهم لوفد قريش المطالب بهم، فهو يقرر جلبهم للوقوف أمام وفد قريش للاستماع للجانبين وهو ما حصل فعلا ، فريق قريش الذي جلب معه الهدايا والتي منحها للنجاشي ولأعوانه لكي يساعدوهم على مبتغاهم[99] والمسلمون الذين لا يملكون سوى الكلمة الصادقة للدفاع عن دينهم، والذي اتفقوا على أن يكون جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه متحدثا عنهم أمام النجاشي وربما اختيار جعفر قد جاء نتيجة لكونه ابن عم النبي ﷺ وهو المهاجر الوحيد من بني هاشم[100] إلا أن الاختيار لم يكن ليقع عليه لولا وجود ميزات امتاز بها عن غيره كالخطابة وقوة الصوت والقدرة على الإقناع والمجادلة الحسنة.

إن الحوار الذي دار بين النجاشي ووفد المسلمين يمثل البذرة الأولى لانتشار الإسلام وأفكاره في ذلك البلد، فقد تعرف منهم على الإسلام وعلى نبيه محمد ﷺ وعلى القرآن الكريم وموقفه من نبي الله عيسى عليه السلام ومن السيدة مريم العذراء[101]، كما شملت موقف الإسلام من المرأة على نحو عام ردا على وفد قريش وافتراء (عمرو بن العاص) عليها[102]، كما أن النجاشي تفهم عدم سجود المهاجرين له لأن الإسلام يمنع السجود إلا لله تعالى فسامحهم على ذلك وقرر استضافتهم في بلاده[103]. ويبدو أن تقبل النجاشي للمهاجرين المسلمين كان نابعا من قناعته بالمقاربة بين الإسلام والنصرانية التي يُدين بها الأحباش، فرفض أن ينصر عبدة الأصنام على ديانة توحيدية[104].

لقد سعى مهاجرو الحبشة إلى توضيح تعاليم الإسلام والتأكيد على الوحدانية التي دعا إليها الإسلام كلما سنحت الظروف لهم باللقاء والتفاعل مع الأحباش، وكان تفهم الأحباش للدين الإسلامي قد جاء من خلال الشعائر الإسلامية التي مارسها المهاجرون(105).

ويبدو أن إقامة المهاجرين في الحبشة قد فرضت عليهم العمل في مهنة التجارة ومهن أخرى لكي لايحتاجوا إلى أحد ويعيشوا من كدهم، وكانت التجارة هي العمل الأبرز في تلك الفترة، من خلال استيراد وتصدير البضائع من مكة أو من مدن أخرى، كما أن أولئك المهاجرين وان سكتت المصادر عن الحديث عن حياتهم اليومية إلا أنهم (106).

منحتهم الفترة التي قضوها في الحبشة فرصة تعلم مفردات اللغة الحبشية والتي كان بعضهم يعرفها منذ وجوده في مكة بحكم تواجد عدد كبير من الأحباش هناك، كما نقل العائدون من الحبشة إلى المدينة المنورة فيما بعد بعضا من ألفاظ تلك اللغة مثل (سنا) أي (حسنا) وغيرها من الكلمات(107).

فضلا عن ذلك فإن المهاجرين قدروا موقف النجاشي منهم وحسن الضيافة التي لاقوها من الأحباش فعملوا على تجنب إيذاء الأحباش والتقرب منهم، وأدى ذلك إلى تفاعل المهاجرين مع الأحداث التي تمر بها الحبشة ،فقد شجعوا الأحباش في معركة خاضوها ضد أعدائهم للحد الذي جعل (الزبير بن العوام) يعبر النهر (النيل الأزرق) لكي يعرف نتيجة المعركة والتي كانت نصرا للأحباش ويعود ليبلغ المهاجرين الذين فرحوا بالخبر(108).

وعلى الرغم من هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة وتأسيس دولته فيها وعودة بعض المهاجرين من الحبشة، إلا أن البعض بقي هناك حتى السنة السابعة للهجرة حينما أرسل الرسول ﷺ رسوله (عمرو بن أمية الضمري) إلى النجاشي يدعوه للإسلام، ليعود حينها إلى المدينة (جعفر بن أبي طالب) (ومن بقي معه بصحبة (عمرو)(109).

لقد برزت عملية تكريم الرسول ﷺ للحبشة على نحو عام وللنجاشي على نحو خاص في أمره لأصحابه بالاستغفار للنجاشي يوم موته، وقيامهم بالصلاة عليه كونه رجلا صالحا عمل على استقبال مهاجري المسلمين وإكرامهم(110)، كما رفع الرسول ﷺ مكانة النجاشي حينما طلب منه أن يزوجه (أم حبيبة) بنت أبي سفيان بعد أن تنصر زوجها في الحبشة تاركا الإسلام(111) فكان النجاشي وكيلا عن الرسول ﷺ، في حين وكلت (أم حبيبة) (خالد بن سعيد) وليا عليها كونه ابن عم لأبي سفيان، وقد دفع النجاشي مهرا وأقام حفلا بالمناسبة(112).

وكدليل على حسن العلاقات بين الحبشة والمسلمين حتى السنة السابعة للهجرة حينما قرر

المهاجرون العودة إلى بلادهم تلبية لدعوة الرسول محمد ﷺ لهم، عمل النجاشي على تهيئة (سفينتين) لحملهم[113]، ومنحهم العديد من الهدايا وأهدى للرسول ﷺ (خفين أسودين ساذجين)[114].

لقد صادفت عودة الدفعة الأخيرة من المهاجرين إلى المدينة في أيام فتح المسلمين لخيبر وانتصارهم على اليهود، وقد قرر المهاجرون العائدون من الحبشة ترك النساء والأطفال في المدينة والالتحاق بالرسول الكريم وأصحابه في خيبر إلا أنهم وصلوا بعد انتهاء القتال فاستقبلهم الرسول ﷺ قائلاً: (ما أدري بأيهما أنا أُسر، بقدوم جعفر أو بفتح خيبر)[115]. وتذكر الروايات أن (جعفر بن أبي طالب) مشى برجل واحدة أمام الرسول ﷺ حتى عانقه[116]، وهو تقليد كان يفعله الأحباش حينما يلاقون من يحترمونه احتراما فائقاً، وهي من العادات التي تعلمها الصحابة هناك ولا تمس عقيدتهم بشيء[117].

إن القاعدة التي تعامل فيها المسلمون وفي مقدمتهم الرسول ﷺ تقدم على الآية القرآنية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[118] والتي لم تفرق بين عربي أو أعجمي وبين أبيض أو أسود وبين طويل أو قصير، فكانت التقوى هي المقياس، لذا فالرسول ﷺ يختار سيدنا (بلال الحبشي) وهو أسود اللون ليكون مؤذنا للمسلمين فتقواه هي الأساس في قبوله كمسلم، وصوته الجميل هو مؤهله لكي يؤذن، ويشير الترمذي في سننه إلى حديث نبوي شريف ينفرد هو في ذكره قول الرسول محمد ﷺ : ((الملك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة، والأمانة في الازد))[119]، فضلا عن ذلك فإن هناك دلائل كثيرة على وجود أفراد سود اللون من بلاد الحبشة وبقية بلاد السودان كانوا قد انخرطوا في الدولة الإسلامية كفقهاء ومحدثين وشعراء وكتاب وغيرهم[120].

وفي عصر الخلافة الراشدة بدأت عملية الاهتمام بالتجارة من كافة البقاع التي كان بالإمكان الوصول إليها بما فيها أراض الحبشة، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحينما اشتكى التجار المسلمون من مضايقات القراصنة الأحباش لهم في البحر الأحمر أرسل ذلك الخليفة حملة بحرية بقيادة (علقمة بن مجزر المدلجي) لتأديب أولئك القراصنة، إلا أن تلك الحملة لم توفق في مسعاها[121].

وذلك الأمر لم يؤثر في وجود التجار المسلمين في الحبشة، بل ازدادت أعدادهم ونشطوا

كوسطاء تجاريين بين مصر والهند والصين للحد الذي جعل بعض المدن الحبشية (كعدل) والواقعة حاليا في ميناء (زولا) جنوب (مصوع) تعمل كمركز تجاري مهم بحكم موقعها في وسط طرق التجارة العالمية، فهي بين جنوب آسيا وشرقها وشرق إفريقيا والبحر الأحمر ومدنه لا سيما مصر[122] فضلا عن وقوع ميناء (عدل) على الطريق البري والرابط بين داخل بلاد الحبشة بالبحر الأحمر، وهو طريق دائري يبدأ بعدل ويمر بعدوة واكسوم واسمرة ثم ينتهي بعدل ثانية[123].

لقد نجح المسلمون في مسعاهم لعزل الحبشة عن الإغريق وزرع بذور الإسلام فيها من خلال التحكم بميناء (عدل) أو (عدول) أو (عدوليس) والذي مثل ثغر الحبشة، مما أدى إلى قطع صلات الحبشة بالعالم الخارجي إلا من خلال العرب المسلمين وقلل من عدد التجار الأجانب من غير العرب في الحبشة (دولة اكسوم)، فضعف العنصر الإغريقي وزالت اللغة الإغريقية التي كانت لغة الثقافة في العاصمة، وقد ارتبط ذلك الأمر بحدوث مشكلات بين الحكام المحليين، وقد ضعف أمر العقيدة المسيحية للحد الذي دفع أبناء بعض القبائل للعودة إلى الوثنية[124].

وربما تكون تلك الأحداث قد ساعدت على وصول التجار المسلمين إلى الحبشة وبالتالي انتشار الإسلام لاسيما مع انهيار (مملكة اكسوم الحبشية) نتيجة للهجمات التي كان يشنها البجة في السهول بين الهضبة والبحر من خلال قطع العراق ومهاجمة المدن الحبشية معطلين النشاط الاقتصادي، فضلا عن هجرات اليهود منذ سنة 640م وثورات الوثنيين، كل ذلك فسح المجال أمام المسلمين للوصول إلى الحبشة والانصهار مع السكان الحبشيين والتزاوج معهم[125].

ومع استمرار تعرض القراصنة الأحباش لسفن وقوارب التجار المسلمين فضلا عن هجومهم المستمر على ميناء جدة، قرر الخليفة (عبد الملك بن مروان) تجهيز حملة عسكرية بحرية هاجمت مجموعة جزر (الدهلك) – والتي كان القراصنة يلجؤون إليها بعد مهاجمتهم (جدة) – وتمكنت من تحريرها سنة 83هـ/ 702م[126] لتصبح مدخلا للتجار المسلمين داخل الحبشة[127]. ونتيجة لعدم توقف القراصنة الأحباش عن الاعتداء على التجار المسلمين وهجومهم على ميناء جدة سنة (153هـ/770م) فقد قرر الخليفة العباسي (أبو جعفر المنصور) إرسال حملة لتفريق شمل القراصنة الأحباش وطردهم من المنطقة[128]، بل أن الخليفة (هارون الرشيد) كان يفكر في بناء قناة مكان قناة السويس الحالية ليسهل أمر التجار ويختصر الطرق أمامهم إلا أنه اصطدم بأمر خوفه من استغلال البيزنطيين لذلك الأمر والعبور نحو مكة[129].

وبمرور الزمن ومع سيطرة المسلمين على بلاد البجة وسريان معاهدة البقط بين نصارى النوبة ومسلمي مصر تقدم الإسلام على نحو سريع في بلاد الحبشة التي كانت بحاجة ماسة إلى الكنيسة القبطية في مصر القائمة على تعيين رئيس لكنيسة الحبشة، فكان الأحباش بحاجة إلى تحسين علاقاتهم مع المصريين[130] وفي تلك الأثناء كانت الدعوة الإسلامية تنتشر بين الأحباش وتؤسس لقيام ممالك إسلامية فيها لمواجهة الوجود الصليبي فيها.

2- قيام الدول الإسلامية في الحبشة

بعد استقرار الإسلام في بلاد الحبشة وازدياد أعداد المسلمين هناك بدأت عملية تأسيس دول وممالك إسلامية على يد العرب المسلمين المهاجرين إلى المنطقة ، فقد تم تأسيس مملكة (شوا) (283-688هـ/896-1289م) فوق مرتفعات الهضبة الحبشية في موقع مدينة (أديس أبابا الحالية)[131].

ويعود الفضل في تأسيس مملكة (شوا) على يد عرب من بني مخزوم عملوا بالتجارة مع الحبشة ومن ثم هاجروا إليها واستقروا بها مؤسسين دولتهم نتيجة المصاهرة التي عُقدت بينهم وبين سكان المنطقة، فضلاً عن محبة أولئك السكان للعرب المهاجرين وتقربهم منهم مما دفعهم لاختيارهم كحكام للمنطقة[132]، إلا أن الأمر الغريب هو قلة المعلومات عن تلك المملكة على الرغم من استمرارها لمدة أربعة قرون سوى المعلومات التي عثر عليها المستشرق الإيطالي (شيروللي E .Ceruli) سنة (1936م) والتي تناولت تاريخ المملكة في نهاية حكمها من سنة (629- 688هـ/1231 - 1289م)، تلك الفترة التي كانت مليئة بالفتن والاضطرابات والصراعات الداخلية على السلطة، فضلاً عن دخولها في صراع مع الممالك الإسلامية المجاورة لها الأمر الذي أدى إلى ضعفها وعدم مقدرتها على الصمود أمام مملكة عربية ناشئة هي مملكة (أوفات) والتي تمكنت من الاستيلاء عليها سنة (684هـ/1285م)[133]. وعلى الرغم من ذلك فإن تاريخ مملكة (شوا) يشير إلى أنها مملكة قوية استطاعت بسط سيطرتها على ممالك أخرى ونشر الإسلام فيها كسيطرتها على بلاد (أرجوبا Argobba) سنة (502هـ/ 1108م)[134].

ولم يقتصر الأمر في الحبشة على قيام مملكة (شوا) الإسلامية وإنما نشأت على تلك الأرض ممالك إسلامية أخرى سميت بممالك الطراز الإسلامي، والتي تقع في الجهة المقابلة لبر اليمن، وتمثل الجزء الشمالي من ساحل شرق إفريقيا، كما سميت من قبل أهل الشام ومصر ببلاد الزيلع نسبة إلى جزيرة من جزرها في البحر الأحمر اسمها زيلع[135].

وعدد تلك الممالك سبع تتفاوت مساحة كل منها عن الأخرى، كما أنها تخضع جميعاً لصاحب (أمحرا) النصراني بسبب تفرق كلمتها وعدم توحدها أمامه، إذ لم يستفد حكام تلك الممالك من الصعاب التي واجهتهم ولم يأخذوا منها العبر والدروس، بل على العكس كان يحارب بعضهم بعضاً فلو اجتمعت كلمتهم لاستطاعوا تحقيق النصر على عدوهم المشترك صاحب (أمحرا)[136]، إلا أنهم رضخوا له ورضوا بالذل للحد الذي جعلهم يدفعون له في كل عام ضريبة ممثلة بقطع القماش والحرير والكتان مما يُجلب لهم من مصر واليمن والعراق[137].

إن أوسع تلك الممالك مساحة هي مملكة (أوفات) القريبة أكثر من غيرها من الممالك إلى مصر[138]، والتي تسمى أيضاً (جبرة) وهو اسم مُشتق من (اجبرت) وهي كلمة حبشية تعني (عباد الله)[139]، ويعتنق سكانها الإسلام على المذهب الشافعي، كما أن لاتساع حدودها وكثرة سكانها قياساً لبقية الممالك فإنها امتلكت جيشاً كبيراً بالعدد والعُدة ضم خمسة عشر ألف فارس يركبون الخيول بلا سروج، وعشرين ألفاً أو أكثر من المشاة[140]، ويعود تأسيس مملكة أوفات إلى القرن 3هـ/9م حينما انفصلت عن مملكة (شوا) بقيادة (عمر ولشمع) والذي تمكن من الاستقلال (بأوفات) ومن ثم ضم (شوا) إليها سنة (684هـ/1285م)[141] لتصبح فيما بعد أهم الممالك الإسلامية في الحبشة وأعظمها شأناً[142].

وينفرد المؤرخ المقريزي بالقول أن مؤسس مملكة أوفات (عمر ولشمع) يعود بنسبه إلى جماعة من قريش هاجرت إلى أوفات واستقرت فيها وأن تلك الجماعة تصل بنسبها إلى بني عبد الدار أو بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب[143]، كما تأتي أهمية تلك المملكة من وقوعها على طرق التجارة المارة من داخل الحبشة وصولاً إلى المدن الساحلية كزيلع وبربرة [144]، الأمر الذي مكنها من تنشيط تجارتها والحصول على مدخولات مالية كبيرة جعلت من الكثير من سكانها أغنياء للحد الذي تمكنوا فيه من إرسال أبنائهم للدراسة في مصر والمغرب والحجاز وبلاد الشام واليمن[145].

ونظراً لكبر مساحة مملكة أوفات فإن حكامها - كان يُطلق عليهم لقب قاط - كانوا مسموعي الكلمة لدى حكام بقية الممالك المسلمة، وقد ذكرت المصادر التاريخية والجغرافية العربية المكانة التي وصل إليها حكام تلك المملكة من خلال وصف مجالسهم وقصورهم ملابسهم، فالملك يعصب رأسه بعصابة من الحرير مبقياً وسطه مكشوفاً متميزاً بذلك عن أمرائه ووزرائه الذين يعصبون رؤوسهم بعصابة من القطن[146]، أما الملك فكان يجلس على كرسي مرتفع عن بقية وزرائه وأمرائه الذين يجلسون على كراسي منخفضة، كما أنه كان يتوكأ على رجلين من خاصته حينما يمشي لإظهار الرفعة والأبهة[147]. فضلاً عن ذلك فإن

مملكة أوفات قادت الجهاد ضد الممالك النصرانية فانتصرت تارة وخسرت المعركة تارة أخرى وهو ما سيتم تفصيله لاحقاً.

أما المملكة الثانية من ممالك الطراز الإسلامي فهي مملكة (هدية) التي تُعد أعظم الممالك السبع قوة، وملكها أقوى وأشد بأساً من حكام بقية الممالك وأكثر رجالاً وخيلاً، فله أربعون ألف فارس، ومن المشاة مثل ذلك العدد مرتين أو أكثر[148]، ويعتنق سكانها الإسلام على المذهب الحنفي، وقد اشتهرت تلك المملكة بكونها مكان لتداوي الرقيق الذين يتم اخصائهم في بلدة (وشلو) المجاورة والتي كانت تبيع أولئك الرقيق ليتم استخدامهم في قصور الخلفاء والأمراء في بلاد الشام والعراق ومصر والمغرب[149].

والمملكة الثالثة تسمى (أرابيني)[150] وتقع في الشمال الشرقي من بحيرة (تانا)[151]، وهي مربعة الشكل طولها مساوي لعرضها ولها جيش فيه ما يقارب العشرة آلاف فارس فضلاً عن عدد كبير من المشاة، ويعتنق أهلها الإسلام على المذهب الحنفي كأهل مملكة هدية[152]، أما المملكة الرابعة من ممالك الطراز الإسلامي فهي مملكة (دوارو)[153] الواقعة جنوب مدينة (شوا)[154]، وأهلها حنفية أيضاً ، ويمتاز جيشها بالقوة ويقارب بالعدد جيش مملكة (أوفات)، فضلاً عن تشابه مزروعاتهم ومأكولاتهم وملابسهم مع تلك المملكة[155].

ومملكة (شرحا)[156] تُعد المملكة الخامسة من ممالك الطراز والواقعة إلى الغرب من مملكة (أوفات)[157]، وللمملكة ثلاثة آلاف فارس ومثل ذلك بمرتين أو أكثر من المشاة، ويعتنق أهلها المذهب الحنفي[158]، كأهل مملكة (بالي) والواقعة جنوب مملكة (دارة) والتي تمتلك حوالي ثمانية عشر ألف فارس وعدد كبير من المشاة، وتمتاز مملكة (بالي) عن غيرها من الممالك بأنها أخصبها أرضاً وأطيبها مسكناً وأبردها هواءً وماءً، ولا يتعامل سكانها بالنقود بل بالعوض مثل البقر والغنم والأقمشة[159].

والمملكة السابعة والأخيرة هي مملكة (دارة) الواقعة على الحدود الغربية لملكة (أوفات)، ويميزها عن بقية الممالك أنها أضعفهم حالاً وأقلهم خيلاً ورجالاً، ولا يزيد جيشها عن ألفي فارس وراجل، لكنها تشابه بقية الممالك من حيث مأكل ومشرب وملبس سكانها ومذهبهم هو المذهب الحنفي، وهي تتعامل بالأعواض كمملكة بالي[160].

إن أوضح وأدق المعلومات عن تلك الممالك جاء في كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، فمعلوماته عنها لم تأتِ من مشاهدته وزيارته لتلك الأماكن، بل جاءت من خلال عمله في ديوان الإنشاء في مصر واطلاعه على الكثير من المراسلات الرسمية بين حكام مصر

وحكام بقية الدول ومنها الحبشة، وكذلك من لقائه بعدد من المصريين الذين زاروا الحبشة، أو من الأحباش الذين زاروا مصر كالشيخ عبد الله الزيلعي[161]، والشيخ الصالح عبد المؤمن، والتاجر فرج الفوي، وغيرهم من الفقهاء. والذين زودوا العمري بمعلومات كبيرة عن مملكة أوفات[162] قياساً لمعلوماته عن الممالك الأخرى.

لقد أشار العمري في القسم الخاص ببلاد الحبشة إلى موقعها في بداية الأمر قائلاً أن بحر الهند (المحيط الهندي) واليمن يحدانها من الشمال الشرقي، ومن الغرب بلاد التكرور[163]، إلا أنه لم يذكر ما يحيط بالحبشة من الشمال أو الجنوب. في حين يشير إلى وجود نهر يسمى سيحون يجري في الحبشة ويزود النيل بالماء وماءه حلو غير مالح[164]. ويتضح لنا من خلال ما سبق عدم مقدرة العمري على إعطاء التسميات الدقيقة للأماكن بسبب عدم زيارته للمنطقة، كما أن تسميته للباب الثامن من الكتاب جاء مخالفاً للحقيقة وغير دقيق قياساً لكل من عاصره أو سبقه من المؤرخين والجغرافيين المسلمين والذين أكدوا أن ممالك المسلمين في الحبشة تشمل أكثر من ذلك ويؤكد ذلك القلقشندي بقوله: ((وأهمل المقر الشهابي بن فضل الله في مسالك الأبصار عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين ومنها جزيرة دهلك ومدينة عوان ومدينة مقديشو))[165].

لقد كانت طبيعة أرض الحبشة وعرة لكثرة جبالها العالية وارتفاع أشجارها وتشابكها مع بعضها، لدرجة أنه إذا ما خرج أحد ملوكها ليذهب إلى مكان ما يسبقه رجاله لفتح الطريق من خلال قطع الأشجار وحرقها[166]. أما مساحتها فطولها في البر والبحر مسيرة شهرين[167] وعرضها ممتد أكثر من ذلك إلا أنه مقفر. أما ما هو معمور من تلك الأراضي فيساوي ثلاثة وأربعين يوماً طولا ، وأربعين يوماً عرضاً[168].

أما لغة ممالك الحبشة، فسكانها يجيدون الحبشية فضلاً عن اللغة العربية، إلا أن لغاتهم متعددة وتصل إلى خمسين لساناً (لغة)[169]. وربما أن اللغة الحبشية هي اللغة الجعزية والتي كانت تستخدم في الحبشة لوقت متأخر، فهي تُكتب كالعربية من اليمين إلى اليسار، إلا أنها تنفرد بكونها تتألف من ستة عشر حرفاً لكل سبعة فروع، ليكون مجموع حروفها مئة واثنين وثمانين حرفاً فضلاً عن حروف أخرى مستقلة بذاتها[170]. ويبدو أن العمري عاد هنا مرة أخرى ليعطينا أرقام خاطئة فإذا ما ضربنا عدد الأحرف في الفروع فلن ينتج لنا ما توصل إليه المؤلف، كما أنه لم يوضح لنا هل اللغة الحبشية تتألف من الفروع السبعة أم هناك فروع أخرى.

ويعتنق سكان ممالك الطراز الإسلام على المذهب الحنفي باستثناء مملكة أوفات والتي يتبع سكانها المذهب الشافعي[171]. ويبدو أن وصول المذهب الشافعي إلى مملكة اوفات كان بسبب قربها من مصر واختلاط أهلها مع المصريين وتأثرهم بمذهبهم، أما المذهب الحنفي الذي تمسكت به بقية الممالك فهو أيضاً أحد المذاهب المتبعة في مصر وربما جاء من خلال الذهاب لتأدية فريضة الحج والإطلاع عليه والحصول على الكتب التي كُتبت عنه.

وفيما يتعلق بالنظام العسكري لتلك الممالك فقد كان متشابهاً فمملكة هدية تمتلك أكبر عدد من الجند، فيبلغ عدد فرسانها نحو أربعين ألف فارس، أما المشاة فهم أكثر من ذلك بمرتين[172] في حين يصل عدد فرسان مملكة بالي إلى ثمانية عشر ألف فارساً، والمشاة أكثر من ذلك [173]، وعدد فرسان مملكة دوارو يزيد عن فرسان مملكة أوفات والبالغ خمسة عشر ألف رجل يتبعهم عشرون ألفاً أو يزيد من المشاة[174]، أما عدد جند مملكة ارابيني فهم عشرة آلالف فارس أما المشاة فكثير[175]، وفي مملكة شرحا كان هناك ثلاثة آلالف فارس وضعف ذلك من المشاة، فيما يبلغ جند مملكة داره[176] ألفي رجل بين فارس وراجل[177].

أما سلاح الجيش في تلك الممالك فهو القسي والنبال الشبيهة بالنشاب[178]، والسيوف والمزاريع[179] والحراب، أما الترس فمنهم من يستخدم الترس الطويل ومنهم من يرتدي أتراس قصيرة، وهناك جزء آخر مكمل لتجهيزات الجيش وهو الأبواق، إذ يستخدم الجند أبواق مصنوعة من خشب القنا المجوف ومن قرون البقر المجوفة[180]. وفيما يتعلق بالدواب التي يستخدمها الجند في القتال فهي الخيل، إذ يركبها أهل مملكة أوفات من غير وضع السروج على ظهورها بل يستبدلونها بوضع جلود مصنوعة من المرعز، إلا أن استخدام البغال كان أكثر من الخيل في بقية الممالك[181].

ويمتلك أولئك الجُند شجاعة كبيرة ورغبة في القتال لدرجة أنهم لا يلبسون دروعاً في أثناء القتال ولا يُلبسون خيولهم السروج أو الدروع، كما أنهم ملتزمون بأخلاق الفارس فهم رغم شجاعتهم وقدرتهم على هزيمة أعدائهم إلا أنهم يُصفحون عمن يؤذيهم إن أمكن ذلك فكل من رمى سلاحه في أثناء القتال يحرمون قتاله[182].

ويحمل رجلان على رأس الملك السلاح، وينفرد ملكها عن بقية ملوك الممالك السبع بأنه إذا ما ركب على فرسه يُحمل على رأسه جتر حرير[183] من قبل أحد غلمانه، كما يتقدم موكبه الحُجاب والنقباء لفتح الطريق، وتُضرب أمامه الشبابة[184] والأبواق المصنوعة من الخشب، وفي رؤوسها قرون البقر، وتضرب معها الطبول المعلقة في أعناق الرجال، كما يتقدم الجميع رجل يحمل بوق اسمه (الحنبا) مصنوع من قرون نوع من أنواع البقر الوحشي يُدعى

(عجزين)، ويكون ذلك البوق مخروقاً من الأعلى وله صوت عالي ليفتح الناس الطريق أمام موكب الملك، ويبالغ المؤلف في ارتفاع صوت ذلك البوق ليقول أنه يسمع من مسافة نصف يوم (24 كم)[185].

ولا يرتدي الثوب المخاط سوى الملك والفقهاء وعلية القوم، إذ أن الغالب على بقية الرعية الأتزار بوزرتين واحدة على الكتف والأخرى على الوسط، وعلى الرأس يلبس العامة الكوافي البيض[186] كما يلبس الفرسان السراويل[187]. وتكاد تكون ملابس الخاصة والجند متشابهة في أغلب الممالك صيفاً وشتاءاً والمتمثلة بالأقمشة الحريرية والابراد الهندية[188] أما العوام فيرتدون الثياب المصنوعة من القطن المنسوج غير المخيط، إذ يرتدي كل واحد ثوبان أحدهما يشد به وسطه وآخر يلتحف به[189].

ولا يمنح ملك أوفات أمرائه وجنده نقوداً بل يمنحهم الأراضي الواسعة الموجودة في المملكة لزراعتها، ولذلك الملك سماط[190] عام ممدود، وسماط له ولخاصته إلا أنه كان يعطي أمراءه ولاسيما المقربين منهم بقراً عوضاً عن تلك السماط .ويحتل الملك في مملكة أوفات في بعض الأحيان مكانة القاضي إذ يحل المشكلات بنفسه ويحكم بين الرعية على الرغم من وجود قاضي أو فقيه يلجأ إليه الناس[191]. ويبدو أن الملك يريد بذلك التشبه بما فعله الحكام المسلمون في إفريقيا جنوب الصحراء، إذ كان سلطان دولة مالي الإسلامية (سليمان) يجلس لسماع مشكلات الناس وحلها[192]، وربما ذهبوا أبعد من ذلك ليتشبهوا بما كان يفعله الخلفاء الراشدين من التصدي لما يواجه المسلمون من مشكلات ولاسيما التي لا تدخل ضمن صلاحيات القاضي[193].

والحكم في الممالك السبع وراثي سوى مملكة بالي والتي أصبح فيها الحكم في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي بيد رجل ليس من بيت الملك الذي سبقه بسبب تقرب ذلك الرجل من صاحب امحرا[194] حتى ولاه الحكم في المملكة فاستقل بها، وعلى الرغم من كون الحكم في بقية الممالك كان وراثياً إلا أن تولي الحكم لن يتم إلا بعد أخذ موافقة صاحب امحرا، فإذا ما مات الملك توجه بقية أفراد العائلة إلى النجاشي ليتقربوا منه ليختار أحدهم فيسمع البقية له ويطيعوه، وعلى الرغم من ذلك فقد كان حكام تلك الممالك يعدوا حاكم مملكة أوفات مثلهم الأعلى ومرجعهم فيما يواجههم من مشكلات فينقادوا له بالمعاضدة إذا اقتضى الأمر[195] .

لقد كانت العلاقات بين الممالك المسلمة والنصارى هناك متبادلة فحاجة الحبشة لمصر في تعيين مطران لكنيستها من خلال اختيار كنيسة الإسكندرية له، يقابلها حاجة مصر في أن يقوم الأحباش برعاية المسلمين في بلادهم وعدم إيذائهم فضلاً عن قيام الأحباش بالحفاظ على

مجرى نهر النيل وإصلاح سلوكه[196]. ولولا تلك المصلحة ولاسيما تلك المتعلقة بتعيين مطران لكنيسة الحبشة من قبل كنيسة الإسكندرية لما تأخر الأحباش يوماً في القضاء على المسلمين الموجودين في الحبشة ولما تنازلوا لسلطان مصر أبداً بطلبهم ذاك[197].

ويوجد في تلك الممالك الكثير من المساجد والجوامع المنتشرة في تلك الممالك، مما يدل على تمسك أهلها بإقامة شعائر الإسلام، إلا أنه لا توجد فيها مدارس وأربطة وخانقاه[198] وزوايا كالموجودة في بقية بلاد الإسلام[199].

والسكان في الحبشة على نحو عام يمتازون بالصدق والأمانة، وحاكم مدينة (اقا) كان يتخذ منهم أمناء على الحريم والأولاد، كما أن التجار الكارمية[200] وأغنياء القوم كانوا يجعلونهم نواباً على حفظ أموالهم وتجارتهم الخارجية[201] . كما أنه إذا ما طلب المجرم العفو من المُعتدى عليه مع اعترافه بالذنب تجاوز عنه، كما أنهم يحبون الغريب ويكرمون الضيف، ولا ينقضوا عهداً لصديق، وإذا ما تعاهدوا أكدوا المحبة، وإذا تباغضوا أعلنوا المباينة، فضلاً عن كونهم أذكياء أقوياء الحدس لهم صناعات وعلوم[202].

أما المساكن فهي مبنية من الطين أو الحجر أو الخشب ومسقفة على شكل قباب أو جملونات، ولا يحيط بتلك الدور أسوار، كما أنها ليست فخمة البناء[203]، والمساكن ولاسيما في القرى والمدن الصغيرة مبنية من الاخصاص[204]، أما الأواني التي يستخدمونها في الطعام فمصنوعة من الفخار المدهون بالأسود، ووقودهم الشمع ووقود مصابيحهم شحوم البقر، كما يستخدم النساء والرجال السمن لدهن وجوههم[205].

وكان بعض تجار المنطقة من الذين لم يدخلوا في الإسلام والذين وصفهم المؤلف (بالهمج الكفار) من سكان مدينة وشلوا[206] كانوا يقومون بجلب الرقيق إلى بلادهم والقيام بإخصائهم ليتم بيعهم في المدن التي تحتاج إليهم لحماية نساء القصور، وكان الرجُل الذي يتم إخصائه يتعرض لسد مجرى البول ولهذا يتم معالجته في مملكة هدية المسلمة والتي كان يرفض ملكه وسكانها عملية الإخصاء والتي رفضها الإسلام على نحو عام[207].

وبسبب عدم وجود دار لضرب العملة في مملكة أوفات كانوا يتعاملون بدنانير ودراهم تدخل إليهم مع التجار الداخلين لبلادهم[208]. وربما تكون تلك المملكة هي الوحيدة التي تستخدم تلك العملة. فمملكة دوارو ومملكة شرحا ومملكة ارابيني تتعامل بالحديد والذي يكون على شكل إبرة يُطلق عليها اسم (حكنه)، وغالباً ما تكون تلك العملة بعرض ثلاث إبر وليس لها سعر تُضبط به، فسعر البقرة مثلاً بخمسة آلاف حكنه ويباع رأس الغنم الجيد بثلاثة آلاف حكنه، وهناك نوع آخر من العملة يُستخدم في ممالك بالي وهدية وداره ويتمثل بالمقايضة، فيقوم من لديه بقر أو غنم أو قماش بتقديمها للحصول على المواد الغذائية الأخرى مثلاً [209].

ويستخدم سكان مملكة أوفات في أوزانهم وحدة تسمى الرابعية ومقدارها ويبة مصرية[210]، وقيمة الرطل لديهم أاثنا عشر أوقية، إذ إن وزن الأوقية عشرة دراهم نقرة بصنجة مصر[211].

ويُجلب إلى ممالك الطراز معدن الذهب من مدن داموت وسحام[212] إذ تساوي الأوقية[213] منه من ثمانين إلى مئة وعشرين درهماً حسب جودته، ويسمى النوع الجيد منه (سنبرا) كما يوجد معدن الفضة أيضاً في تلك المالك[214].

3- الصراع بين المسلمين والنصارى في الحبشة :

على الرغم من أن ممالك الحبشة مسلمة فإنها جميعاً تطيع ملك الحبشة النصراني الذي لا يتم تعيين أي من ملوك تلك المالك من غير موافقته وتأييده حتى أصبح في كل مملكة بيت يتوارث أبناؤه الحكم بعد أن يمنحه ملك أمحرا النصراني التأييد، سوى بعض الحالات التي كان يمنح فيها صاحب أمحرا الحكم لرجُل من خارج تلك البيوت، وتتم عملية اختيار الملك الجديد بعد وفاة والده، وعلى جميع السكان في المملكة تقديم فروض الطاعة والاعتراف لذلك الملك الجديد[215].

إن المتابع لعلاقة المسلمين بحكام الحبشة النصارى يلاحظ أنها كانت بأحسن حال على عهد النجاشي (أصحمة) المعاصر للرسول محمد ﷺ والذي استقبل الصحابة الكرام عند هجرتهم، وبقيت سلمية وهادئة في فترات لاحقة، لاسيما في الفترة التي انشغلت فيها الحبشة بمشكلاتها الداخلية، إلا أن ذلك الأمر تبدل بانتهاء تلك المشكلات وتنبه الغرب المسيحي لوجود تلك الممالك المسلمة في الحبشة ورغبتهم في زج المملكة المسيحية بالحبشة في الحروب الصليبية التي كانوا يخوضونها في المشرق الإسلامي، وكانت اللبنة الأولى للاتصال من خلال السماح للأحباش ببناء دير لهم في القدس[216].

لقد نبهت الرسالة التي بعث بها ملك الحبشة سنة (560هـ/1165م) إلى الامبراطور البيزنطي (كومنيوس) العالم الغربي إلى وجود من يساند النصارى في الحبشة خلال حروبهم ضد المسلمين والتي أصبحت مثلاً يُقتدى به في الغرب ، فقد جاء في تلك الرسالة: ((أن لدي اثنين وسبعين ملكاً يأتمرون بأمري، وأني أذهب إلى الحرب ومعي ثلاثة عشر صليباً من الذهب، كل صليب منها على رأس عشرة الآلف فارس ومائة ألف من المشاة، وأن كل أمنيتي أن استخدم هذه الجيوش في قتال أعداء الصليب، وأن أمكن المسيحيين من الحج إلى بيت المقدس))[217].

ومهما يكن من أمر فإن العلاقة بين مسيحيي أوربا ونصارى الحبشة أصبحت قوية ومتينة مع بدايات الحروب الصليبية على المسلمين، ففي القرون الأولى للإسلام كان المسلمون في أوج قوتهم، والغرب المسيحي مشغول بمواجهة الزحف الإسلامي، كما أن الحبشة مشغولة

بمشكلاتها الداخلية، إلا أن العصور العباسية المتأخرة وما تبعها من احتلال المغول لبغداد وانتهاء مشكلات الحبشة الداخلية ساعد على قيام تحالف حبشي غربي[218].

وفي سنة (573هـ/1177م) حدث أن تبادل البابا (الكسندر الثالث) الرسائل مع ملك الحبشة للاتفاق على انضمام الحبشة إلى معسكر الصليبيين لمحاربة المسلمين في شرق أفريقيا[219]، فضلاً عن ذلك فقد اتصل نصارى الغرب بنجاشي الحبشة سنة (615هـ/1218م) ليدعوه للتعاون معهم في حروب الإسلام عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة[220]، فضلاً عن رسالة أخرى من أسقف (عكا) (جاك دي متري) سنة (619هـ/1222م) إلى ملك الحبشة يدعوه فيها للانضمام للصليبيين لإنقاذ الأماكن المقدسة من يد المسلمين ومن ثم الهجوم على مصر من الشمال والجنوب[221]، وكانت تلك الرسالة قد وصلت إلى عهد ملك الحبشة (لاليبيلا Lalibela) (585-623هـ/1190-1225م) والذي كان يُعد من أشهر ملوك سلالة (الزاجوي) الحبشية والذي عمل على توحيد الكنيسة والدولة لتدعيم أركان حكمه[222].

إلا أن وفاة ملك الحبشة (لاليبيلا) كان بداية لدخول الحبشة مرة أخرى في صراع داخلي واستلام ملوك ضعفاء للحكم انتهى حكمهم بنهاية حكم أسرة الزاجوي للحبشة وبداية حكم أسرة أخرى هي الأسرة السليمانية لا سيما على عهد أول ملوكها (يكونو أملاك Yekuno Amlak) (668-684هـ/1270-1285م) والذي اختار (الأب تكلا حيمانوت) ليكون مستشاراً له ووعده بمنح الكنيسة ثلث أراضي الحبشة نظير دعمها له[223].

وبسبب حاجة الحبشة إلى موافقة كنيسة الإسكندرية على تعيين راعياً لكنيسة الحبشة فقد تجنب الأحباش الاصطدام بحكام مصر في تلك الفترة لكي لا يتعرضوا للضغط من قبل حكامها المسلمين، وقد شجع ذلك الأمر البابا (نيقولاي الثاني) على دعوة ملك الحبشة الجديد (ياجباصيون Yagbea Seyon)(684-694هـ/1285-1294م) والذي وصل للحكم بعد وفاة أبيه (يكونو أملاك) إلى التحول إلى كنيسة روما حتى تتحرر الحبشة من ارتباطها بكنيسة الإسكندرية وبالتالي يتمكن الأحباش من البطش بالمسلمين[224].

وحينما توفي (ياجباصيون) استكمل أولاده الخمسة من بعده الطريق الذي بدأه والدهم فتقربوا من الكنيسة الغربية وحاربوا مسلمي الحبشة، إلا أن ملك الحبشة الذي جاء بعدهم للحكم وهو (ودم أرعد Wedem Arad)(699-714هـ/1299-1314م) وهو الابن الأصغر ليكونو أملاك بتطوير تلك العلاقة فأرسل رسالة للبابا (كلمنت الخامس) طالباً فيها المساعدة على القضاء على ممالك الطراز الإسلامي[225].

وكانت المراسلات المستمرة بين نصارى الحبشة والغرب لمدة قرنين من الزمن قد أتت أُكلها سنة (767هـ/1365م) حينما جهز ملك الحبشة آنذاك (سيف أرعد) حملة عسكرية توجهت

نحو حدود مصر الجنوبية لمهاجمتها في الوقت نفسه الذي كان (بطرس لوزنجان) يحاصر الإسكندرية، إلا أنه وقبل أن يصل مصر سمع بفشل حملة (بطرس) (ملك قبرص) فعاد أدراجه[226].

لقد شهد عهد (يكونو أملاك) البدء بتنفيذ مخطط صليبي ذو ثلاث أهداف أو مراحل، فالهدف الأول يتمثل في الحد من انتشار الإسلام في الحبشة، والعمل على تنصير الوثنيين في الحبشة وتوحيد البلاد تحت لواء ديني واحد يمكنه من تحقيق الهدف الثاني وهو القضاء على ممالك الطراز الإسلامي المحايدة للحبشة من جهتيها الشرقية والجنوبية، والتي شكلت بموقعها ذاك حاجزاً فصل الحبشة عن المحيط الهندي والبحر الأحمر، ومن غير السيطرة على تلك الممالك فسوف لن يتحقق الهدف الثالث والمتمثل بالتعاون مع الصليبيين للسيطرة على العالم الإسلامي[227].

لقد عمل (يكونو أملاك) جاهداً لتحقيق الهدف الأول من خلال القيام بتكليف الأب (تكلا حيمانوت) بقيادة حملة واسعة بين القبائل الوثنية للتبشير والتي نجحت على نحو كبير بفضل الأموال الكبيرة التي رصدت لها والدعم اللامحدود من قبل الملك لها[228]، أما الهدف الثاني وهو القضاء على ممالك الطراز الإسلامي فقد بدأ من عهد يكونو أملاك الذي كان يكره المسلمين كثيراً ، فحشد قواته وهاجمهم إلا أن قواته هُزمت وتكبدت خسائر كبيرة في تلك المعركة[229].

ونتائج ذلك الهجوم لم تقتصر على الخسائر العسكرية فقط، بل شملت غضب المماليك في مصر التي كانت الحبشة بأمس الحاجة لها لتعيين مطران لكنيستها بأمر من السلطان المملوكي[230]، وهو ما دفع بملوك الحبشة على مر السنين بعدم البوح بعدائهم للمسلمين، وجعلهم يتقربون بكل الوسائل الممكنة لسلاطين مصر[231].

وفي الوقت الذي كان يحارب فيه (يكونو أملاك) المسلمين في الحبشة خلا منصب المطران في الحبشة، فلم يتجرأ الملك على توجيه رسالة للسلطان الظاهر بيبرس (659-676هـ/126-1277م) يطلب فيها تعيين مطران جديد ، مما استدعاه للتوسط لدى حاكم اليمن ليوصل كتابه للظاهر بيبرس والذي كان مليئاً بكلمات الاعتذار والتذلل بما نصه: ((أقل المماليك يقبّل الأرض، وينهي بين يدي السلطان الملك الظاهر، خلّد الله ملكه، أنّ رسولا وصل إليّ من والي قوص، بسبب الراهب الذي جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهّز لنا مطرانا يكون رجلا جيّدا عالما، لا يجني ذهبا ولا فضّة، ويرسله إلى مدينة »عوان« . وأقلّ المماليك يسيّر إلى نوّاب مولانا الملك المظفّر، صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيّره إلى نوّاب مولانا السلطان، وما كان سبب تأخير الرّسل عن الحضور إلى ما

بين يدي مولانا السلطان، إلاّ أنني كنت في سكار والملك داود قد توفّي، وقد ملّك موضعه ولده، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين، وأما النصارى فكثير لا يحصون، والكلّ غلمانك وتحت أمرك، والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلّهم يقولون آمين، وكلّ من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقلّ المماليك، ونحفظهم ونسفّرهم كما يحبّون ويختارون، وأما الرسول الذي سفّروه فهو مريض، وبلادنا وخمة، أيّ من مرض لا يقدر أحد يدخل إليه، وأيّ من شمّ رائحته فيمرض فيموت. ونحن نحفظ كلّ من يأتي من بلاد المسلمين، فسيّروا مطرانا يحفظهم))[232]. إلا أن السلطان الظاهر بيبرس تنبه للأمر ورد على ملك الحبشة بأنه لن يرسل مطراناً لكنيستها، مما اضطر ذلك الملك لجلب مطران من سوريا اسمه (يوب Youb) لم يلقى الرضا من قبل الأحباش[233].

وأمام ذلك التحدي كان على المسلمين في ممالك الطراز توحيد كلمتهم والتهيئة لملاقاة عدوهم الذي سيبدأ بمهاجمتهم كلما سنحت له الفرصة للقيام بذلك، وهو ما كان يفعله على نحو مستمر لاسيما بعد أن ضم ملك مملكة أوفات المسلمة مملكة (شوا) الإسلامية لحكمه سنة (684هـ/1285م) ووحد جميع الممالك تحت لوائه، فكان أن تصدت تلك الممالك لهجوم شنه (يكونو أملاك) وجنده عليها في ذلك العام (648هـ/1285م) وهو العام الأخير من حكم (يكونو)[234].

وبعد وفاة (يكونو أملاك) تولى ابنه (يجبا صيون) (684-694هـ/1285-1294م) الحكم والذي استهل فترة حكمه بهجوم على مدينة (عدل) التابعة لملكة (أوفات) انتهى بالفشل وعقد هدنة مع جيرانه المسلمين تم بموجبها فتح الحبشة أمام التجار المسلمين وبالمقابل موافقة سلطان مصر المملوكي (المنصور قلاوون) سنة (689هـ/1290م) على إرسال مطران لكنيسة الحبشة، وقد بقيت تلك الهدنة حتى نهاية حكم (يجبا صيون) سنة 694هـ/1294م[235]، وقد استغل مسلمو الحبشة فترة الاضطراب السياسي الذي تبع وفاته والذي استمر لمدة خمس سنوات في توحيد الصفوف والتهيؤ للمواجهة وتعزيز الدفاعات على حدودهم مع الحبشة النصرانية[236].

إن الناظر إلى تلك الأحداث المتسارعة في الحبشة وما رافقها من تحالفات حبشية غربية ضد المسلمين ومحاولة القضاء عليهم وبالتالي البدء بمهاجمة مصر وغيرها من بلاد الإسلام، يلاحظ أنها لم تكن قد حدثت دون تدبير ومتابعة الغرب الذي ما أن سنحت له الفرصة حتى وصل إلى المنطقة بحجة الاستكشافات الجغرافية ليتغلغل في مدنها وقراها شيئاً فشيئاً.

وبالمقابل فإن الأحداث على أرض الحبشة كانت تتصاعد لاسيما مع تسلم (ودم أرعد) (699هـ/1299م) الحكم وقيامه بالتحرش بممالك الطراز الإسلامي، إلا أن ظهور رجُل مُسلم

اسمه (أبو عبد الله محمد) وتزعمه لحركة الجهاد ضد النصارى حد من نفوذهم وأدى إلى هزيمة (ودم أرعد) وجنده وإجبارهم على الانسحاب من المقاطعات الحدودية مع ممالك الطراز نحو الداخل وإبعاد خطرهم عن البلاد مدة ثمان وعشرين سنة[237].

إلا أن الأمر اختلف في نهاية تلك السنوات فكان نصارى الحبشة يشنون الهجوم تلو الآخر ضد المسلمين هناك والمعارك التي حدثت بين الجانبين تؤكد ذلك. كما أن تحالف الأحباش مع الغرب الصليبي والذي بدأ منذ النصف الثاني للقرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي توطد في تلك الفترة، وما تبعها من اعتداءات مستمرة على ممالك الطراز الإسلامي في الحبشة، ولاسيما حينما تسلم عرش الحبشة (عمدا صيون بن ودم ارعد) للمدة 714 – 745هـ/1314–1344م والذي يُعد المؤسس الحقيقي للمملكة[238]، ورغم كل ذلك إلا أن مؤرخين معاصرين للأحداث كالعمري لم يشير إلى ذلك سوى إشارة عابرة تمثلت بقوله: ((وتسلط ملك ملوك الحبشة صاحب امحرة عليهم مع ما بينهم من عداوة في الدين ومباينة ما بين النصارى والمسلمين))[239].

لقد قاد (عمدا صيون) عدة حملات عسكرية ضد ممالك الطراز الإسلامي أسفرت عن إخضاع المناطق الواقعة شمال بحيرة (تانا) والتي تقطنها غالبية يهودية، كما أخضع (داموت) و (جوجام) والواقعة جنوب العاصمة (امحرا)، وأخضع كذلك مدينة (هدية) إحدى ممالك الطراز التي حصل منها ومن بقية المناطق التي سيطر عليها عدداً من الأسرى الذين استخدمهم كجنود لمقاتلة المسلمين[240].

ومثل عهد (عمدا صيون) بداية لتغيير موقف الأحباش من مصر، فبعد أن كان أسلوب التذلل والتوسل هو السائد في رسائل ملوك الحبشة إلى سلاطين مصر، أصبح التحدي والوعيد هما السائدان كلغة تخاطب، وهو ما ظهر جلياً في الرسالة التي أرسلها (عمدا صيون) للسلطان (الناصر محمد بن قلاوون) طالباً منه بالإحسان إلى النصارى وإكرامهم وإلا فسوف يقوم بتخريب مساجد المسلمين في الحبشة ويمنع مياه النيل عنهم، إلا أن السلطان (محمد بن قلاوون) سخر من ذلك الكلام[241].

لقد كانت هذه المسألة ذريعة اتخذها (عمدا صيون) للهجوم على مسلمي الحبشة، فضلاً عن ذريعة أخرى تمثلت في أن (حق الدين الأول)[242] كان يقيد حركة انتقال المواطنين الأحباش[243]، فهاجم (عمدا صيون) مملكة أوفات سنة 729هـ/1328م ودخلها ناهباً ومدمراً لممتلكات سكانها، كما أسر ملكها (حق الدين) ونصب أخيه (صبر الدين) بدلاً عنه لتصبح مملكة (أوفات) وللمرة الأولى تابعة لملكة الحبشة النصرانية[244].

وحينما حاول المسلمون التخلص من تلك التبعية لملك الحبشة وتشكيل قوة عسكرية من ثلاث ممالك مسلمة هي (أوفات و هدية و دوارو) هاجمهم (عمدا صيون) وهزمهم محتلاً تلك الممالك الثلاث، وقد عمل جنده على قتل الرجال والنساء والأطفال ونهب الممتلكات، كما أن ملك أوفات (صبر الدين الأول) وقع في الأسر وأرسل إلى العاصمة إلا أنه سرعان ما عفا عنه (عمدا صيون)، وعلى الرغم من ذلك فإن إحدى كُتاب الغرب أشار إلى أن صبر الدين أُجبر على المثول أمام (عمدا صيون) فقتله[245]، ونصب أخيه (جمال الدين) بدلاً عنه على مملكتي (هدية وأوفات) بعد أن جمعهما بمملكة واحدة شريطة أن يُعلن (جمال الدين) تبعيته لملك الحبشة[246].

إلا أن مسلمي الحبشة ومعهم (جمال الدين) لم يستكينوا للأمر واستجمعوا قواتهم من أغلب الممالك ومدنها لملاقاة العدو ووضعوا خطة تقضي بمهاجمة الملك الحبشي وجنده خلال ساعات ثلاث تسبق الفجر باستخدام أسلوب الكر والفر ليتمكنوا من سحب قوات العدو نحو منطقة مورا الشهيرة بهبوب الرياح القوية[247]، وربما استطاع المسلمون تحقيق الشق الأول من خطتهم إلا أنهم خسروا المعركة بعد أن استعاد جند (عمدا صيون) قواتهم وحققوا النصر[248].

ويصف المؤرخ العمري حالة المسلمين في الحبشة في تلك الفترة بقوله: ((وهؤلاء مع الذلة والمسكنة عليهم لصاحب أمحرة قطائع محددة تُحمل كل سنة))[249]، وفي ضوء ذلك قرروا توجيه رسالة للسلطان المملوكي (محمد بن قلاوون) في ولايته الثالثة سنة 738هـ/1337م، حملها الشيخ (عبد الله الزيلعي) طلب فيها مسلمي الحبشة بتدخل السلطان لإنقاذهم، وقد صادف وصول الشيخ الزيلعي إلى مصر مع وصل وفد ملك الحبشة إلى السلطان قلاوون يطالبه بإرسال مطران جديد لكنيسة الحبشة فطلب السلطان من البطريرك أن يكتب لملك الحبشة رسالة يُنكر فيها عليه أساءته للمسلمين[250].

إلا أن كتاب بطريرك كنيسة الإسكندرية لم يلقى أذاناً صاغية لدى ملك الحبشة واستمر في عدوانه على المسلمين، كما أنه لم يسمع لنداء جنده المطالبين بالعودة لديارهم وخطب بهم قائلاً: ((ومن المناسب للحيوانات الرجوع إلى مواطن الرعي الخاصة بها، أما بالنسبة لي فإليكم ما أنوي فعله: سنقتل الكفرة المتواجدين في هذه المناطق وسنرجع إلى وطننا))[251].

وبالمقابل فقد حاول مسلمو الحبشة توحيد قواهم للوقوف بوجه (عمدا صيون)، فبعث ملك أوفات (جمال الدين) برسالة إلى حاكم (عدل) يدعوه فيها للتمرد ضد ملك الحبشة النصراني وعدم إعطاءه الجزية التي فرضها عليهم، فاتفقوا على مهاجمة معسكر الجيش الحبشي إلا أن هجومهم ذاك باء بالفشل وانتهت المعركة بانتصار عمدا صيون وجنده الذين دعاهم لتدمير

الجوامع في كل مدينة يدخلونها، وأرسل رسالة إلى (جمال الدين) يهدده بتدمير بلاده إن لم يسلمه كل من أسلم من النصارى ليعاقبه بالجلد ووسم الصدر والأكتاف لكي لا يتجرأ بعدهم أحد على دخول الإسلام، كما استباح مملكة (دوارو) وهدم دورها ومخازنها[252].

لقد استخدم نصارى الحبشة أسلوب تبشيري بحت في المناطق التي سيطروا عليها، فقد أرسل (عمدا صيون) رهبان الأديرة إلى المناطق التي قام بغزوها واحتلالها للعيش هناك والتبشير للمسيحية وبالتالي ضم أكبر عدد من الناس لتلك الديانة وبناء كنيسة في تلك البلاد، وقد تعددت تلك الكنائس والأديرة لتشمل مدن (جوجام، وداموت) بل وشملت حتى الممالك الإسلامية التي قاموا باحتلالها (كأوفات، ودوارو، وبالي)، كما أجبر (عمداصيون) سكان البلاد بحماية أولئك الرهبان المبشرين وأتباعهم سواء قبل بذلك أولئك السكان أم رفضوا مما ولد جفوة كبيرة بين السكان والسلطتين السياسية والدينية[253].

وبعد وفاة (عمداصيون) تسلم الحكم ابنه (سيف ارعد) الذي استمر بسياسة أبيه المعادية للمسلمين مستخدماً القتل والتهجير والسبي وأخذ الجزية منهم ، إلا أن رجلاً من المسلمين يُدعى (الإمام صالح) أراد الوقوف بوجه أولئك الكفار فحرض المسلمون على عدم دفع الجزية مما أغضب (سيف أرعد) ودفعه للهجوم على ممالك الطراز الإسلامي سنة (753هـ/1354م)، إلا أن هجومه ذاك انتهى بالفشل بسبب سوء الأحوال الجوية وهبوب رياح عاتية أدت إلى تلبد السماء بالأتربة التي أحالت النهار ظلاماً[254].

وفي سنة (755هـ/1354م) أمر السلطان الصالح بمصادرة جزء من الأراضي الموقوفة على الكنائس في مصر لكي يحرج (سيف أرعد) ويرغمه على إيقاف اعتداءاته على المسلمين[255]، إلا أنه رفض ذلك واعتقل جميع التجار المسلمين في الحبشة وقتل عدداً منهم ، كما أجبر المسلمين في بلاده على التنصر وقتل من رفض منهم[256].

4- حركة الجهاد الكبير في الحبشة :

مع بدايات الاعتداء الحبشي على ممالك المسلمين تنبه الكثير منهم هناك إلى ضرورة مواجهة ذلك الزحف الصليبي، فتزعم أمراء تلك البلاد الجهاد ضد الحبشة وسميت المرحلة (دور الفتح الأعظم) أو (دور هرر) والتي كانت قد بدأت بعد استلام سلاطين عدل للأحباش وخضوعهم لهم، فالتف المسلمون حول عدد من الأمراء الذين عملوا على توعية الناس وتحذيرهم من خطورة ما آلت إليه أوضاع المسلمين هناك[257].

ويبدو أن (الأمير عثمان) حاكم زيلع أعلن الجهاد بعد وفاة السلطان (محمد بن شهاب الدين) سنة (876 هـ / 1471م) مباشرة[258]، إلا أن ملك الحبشة آنذاك (بكيد مريم) أرسل

حملة تمكنت من هزيمته، وعاد (عثمان) مرة أخرى وجمع قواته وحقق النصر على أعدائه وقتل قائد جيش الحبشة، ثم ما لبث الأحباش أن جمعوا قواتهم وحققوا النصر على المسلمين وقتلوا الأمير عثمان[259].

فضلاً عن ذلك فقد أعلن الأمير (محفوظ) في مدينة (هرر) الجهاد ضد الحبشة سنة (896 هـ / 1490م) وحققوا انتصارات كبيرة ضد الأحباش[260]، وبعد وصول البرتغاليين إلى المنطقة وسيطرتهم على مياه وسواحل المحيط الهندي ومن ثم مدخل البحر الأحمر والخليج العربي استمرت حركات الجهاد ضدهم، ففي سنة (923هـ/ 1517م) قرر سلطان عدل (محمد بن أزر) التخلص من سيطرة الأحباش وأوكل قيادة الحملة المتوجهة إلى مملكة (بالي) التابعة لسلطة الأحباش إلى أحد قادته وهو (وناج جان) والذي استطاع أن يحرر المملكة إلا أن الأحباش عادوا واستولوا عليها وأسروا (وناج) واحضروه إلى ملك الحبشة فعفا عنه بعد شفاعة أخوه الذي كان مقرباً من الملك[261].

وما أن عاد (وناج) إلى بالي حتى قرر الخروج مجدداً على السلطة الحبشية، فدبر مكيدة للقادة الأحباش الذين رافقوه إلى بلاده وتخلص منهم، وطلب مساعدة السلطان (محمد) سلطان عدل للوقوف بوجه الأحباش لتأكده من قدومهم للانتقام إلا أن السلطان (محمد) تأخر في تلبية طلب وناج حتى وصلت قبله قوات الأحباش ودخلت المدينة ودمرتها[262]، وحينما سمع السلطان محمد بذلك قرر الانتقام من الأحباش فجمع جيشاً وهاجم مدينة بالي واستعادها ونظم أمورها ثم غادرها إلى العاصمة بعد أن ترك فيها عدداً من أمرائه لتدبير أمورها[263].

لقد أدت خسارة السلطان محمد في معركته تلك ومن ثم وفاته إلى ضياع هيبة الدولة وبدء الصراع على السلطة، وأول من بدأت في عهده تلك الصراعات السلطان (محمد بن أبي بكر بن محفوظ) والذي حكم البلاد لثلاثة أشهر فقط ، فقد قتله أحد قادة الأمير (محفوظ) وتسلم الحكم بدلاً عنه إلا أنه لم يبقى في الحكم أكثر من سابقه إذ قتله قائد آخر اسمه (منصور بن محمد)[264].

أمام تلك الصراعات الداخلية على السلطة وانتشار الفوضى وحالات السرقة وانتشار قطاع الطرق وانتشار المنكرات من شرب الخمر وغيرها برز في البلاد أحد الأمراء المجاهدين الراغبين في إصلاح البلاد وإعادتها إلى وضعها الطبيعي ذلك الأمير هو (الجراد آبون) والذي جمع حوله كل الناقمين على الوضع، فتحرك ضد الحاكم (منصور بن محمد) وتسلم الحكم بعد خمسة أشهر من القتال[265].

لم يتمكن (الجراد آبون) من إصلاح الأوضاع في بلاده على نحو كامل، فبينما هو يحاول

القضاء على قطاع الطرق والقضاء على شاربي الخمر ومرتكبي الجرائم وتنظيم أمور البلاد الإدارية والمالية ظهر مطالب جديد بالسلطة والذي لم يكن قائداً أو أميراً وإنما هو الوريث الشرعي للحكم، ابن السلطان (محمد بن أزر) المدعو (أبو بكر محمد بن أزر) والذي لم يلاقي قبولاً من قبل الرعية الذين كانوا قد اطمأنوا لعهد (الجراد أبون)، بينما لقي دعم وتأييد قطاع الطرق الذين لم يرتاحوا لسياسة (الجراد أبون)، فبدأت المعارك بين الجانبين واستمرت لمدة خمسة أشهر انتهت بمقتل (الجراد أبون) وتولي (أبو بكر بن محمد السلطة) سنة (932 هـ / 1525م)[266].

وحالما تسلم (أبو بكر بن محمد) الحكم قررت مجموعة من سكان البلاد الهجرة عن البلاد إلى بلاد (هوبت) نتيجة لما رأته من خروج عن أوامر الله تعالى وشرعه من قبل حاكم البلاد (أبو بكر)، وكان على رأس المهاجرين (أحمد بن إبراهيم) (932 – 950 هـ/ 1526 – 1543م) وهو من أكثر المقربين للجراد أبون، وقد اشتهر (أحمد) باسم (جران) وهي تحريف لكلمة (جري) التي كانت تستخدم في الصومال وتعني الأعسر (أي الذي يستخدم يده اليسرى)، كما سمي الأمام والغازي[267].

وفي أثناء وجود الإمام أحمد في بلاد (هوبت) هاجمت قوة حبشية تلك البلاد فكانت الفرصة مواتية له ولأتباعه للتصدي لتلك القوة وهزيمتها مما زاد من ثقة الناس به وشهرته بين المدن الأخرى[268]، إلا أن ذلك الأمر لم يرق للسلطان (أبو بكر) وأتباعه والذين كانوا يرغبون في محاربة أخوانهم نصرة للأحباش لأن السلطان (أبو بكر) كان يعلم أن الإمام (أحمد جران) ما أن ينجح في مسعاه لتوحيد جهود الأمة حتى يسيطر على الحكم ويواصل الجهاد ضد الأحباش وهو أمر لا يستطيع السلطان (أبو بكر) السكوت عنه[269].

فجهز جيشاً وهاجم الإمام (أحمد جران) وقواته فجرت بينهما عدة جولات من المعارك كانت كفة (الإمام أحمد) هي الراجحة فيها إلا أن قوات السلطان (أبو بكر) عادت لتنتصر، إلا أن تدخل وجهاء البلاد أوقف تلك المعارك بين المسلمين التي لم تكن ذات فائدة إلا للأحباش ومناصريهم، وتم عقد صلح بين الجانبين يتعهد بموجبه الإمام أحمد وأتباعه بالعودة إلى طاعة السلطان (أبو بكر)[270].

وعلى الرغم من ذلك الصلح إلا أن الجانبين لم يكن أحدهما مطمئناً للآخر، وفعلاً غدر السلطان (أبو بكر) وأتباعه (بالإمام أحمد) ونقض الصلح واستولى على أملاك وأسلحة الإمام وقتل أحد أتباع الإمام المقربين وهو (عثمان بن ياسين)، فقصد الإمام أحمد مدينة (هوبت) مرة ثانية هرباً من بطش السلطان (أبو بكر) الذي لحقه إلى هناك لتحصل معارك عدة بين الجانبين انتهت بعقد صلح ثاني على أن يكون الإمام أحمد فيه (أميراً) له صلاحيات تضمن له إعلان

الجهاد وإصلاح أوضاع البلاد من الداخل مقابل اعترافه بالسلطان (أبو بكر) سلطاناً رسمياً للبلاد[271].

إلا أن استخدام (الإمام أحمد) لصلاحياته وطموحاته دفعت للخروج بقوة لمهاجمة حامية عسكرية حبشية في مدينة (دوارو) الخاضعة للسيطرة الحبشية فقتل وأسر عدد من الجنود وغنم وعاد إلى مدينة (هرر)، وذلك الأمر أثار السلطان (أبو بكر) الذي صمم على قتل الإمام أحمد، إلا أن الإمام أحمد هو الذي قتل السلطان (أبو بكر) سنة (934 هـ/1527م)[272].

وبعد ذلك بدأ الإمام (أحمد جران) بتنظيم الجيش والتهيئة للهجوم على الأحباش واسترداد ما اغتصبوه من أراضي المسلمين ، كما عين أخو السلطان أبو بكر سلطاناً للبلاد وأسمه (عمودين)[273]، وهو ما يؤكد عدم طمع الإمام أحمد في السلطة أو طلباً للجاه وإنما كان هدفه هو الجهاد في سبيل الله[274].

بدأ الإمام (أحمد جران) مرحلة جديدة من جهاده تمثلت في الإعداد النفسي لقواته من خلال حملات صغيرة على الممالك الإسلامية التي كانت محتلة من قبل الأحباش، فهاجم (دوارو) وطرد منها الحامية الحبشية، ثم انقسم مقاتلوه بين العودة إلى هرر وبين مواصلة الجهاد في مكان آخر فانضم برأيه مع القسم الثاني فسار نحو مدينة (جندبلة) – وهي إحدى مدن مملكة أوفات –، وكان سكان المدينة المسلمين يؤدون الأتاوة السنوية للأحباش ففرحوا بوصول الأمام أحمد وقواته وأسهموا بدفع (عشرين أوقية) من الذهب تعبيراً عن تضامنهم فاشترى الأمام أحمد بها مائة سيف ووزعها على مقاتليه وعاد إلى هرر[275].

قرر الإمام أحمد جران الإفادة من الغنائم التي حصل عليها من حملاته الاستطلاعية السابقة ليوزعها على المسلمين في ممالك الطراز الإسلامية ليواجهوا الأحباش، كما بدأ بدعوة المسلمين في المنطقة للجهاد ومواجهة الصليبيين وتحفيزهم على القتال من خلال تذكيرهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الداعية للجهاد، فضلاً عن ذكر أبيات الشعر التي تزيد العزيمة وتحفز على القتال ونصرة الإسلام، فبدأت القبائل المسلمة في الصومال وغيرها من المناطق بالتوافد على (هرر) لتأكيد دعمها للأمام والقتال بجانبه[276].

وما أن سمع ملك الحبشة (لبنادنجل) بتقدم المسلمين نحو مدينة (بادقي) حتى تركها وأبقى فيها حامية عسكرية على رأسها أحد البطاركة والذي اتسم هو ومن معه بالثبات بوجه المسلمين الذين وجدوا تلك الحامية تنتظرهم خارج المدينة فبدأت معركة كبيرة أسفرت عن هروب عدد من مقاتلي الإمام (أحمد) مما استدعاه للانسحاب فوراً[277]، إلا أن الأحباش لحقوا به لاسيما بعد أن انضمت قوات (لبنا دنجل) لأفراد الحامية قبل أن يلتقوا مع المسلمين بموضع يسمى (صمبر كوري)[278]، والذي شهد انتصار المسلمين بقيادة الإمام أحمد على

الأحباش الذين جلبوا معهم قوات كبيرة تفوق قوات المسلمين بكثير إلا أن إرادة الله ساعدت على تحقيق النصر، فقُتل الكثير من الأحباش وأسر عدد أكبر منهم من بينهم صهر الملك (لبنا دنجل) الذي افتدى نفسه بخمسمائة أوقية من الذهب، وبعد تحقيق ذلك النصر في سنة 935هـ/ 1528م عادت قوات الإمام إلى مدينة (هرر)[279].

لقد أسهم ذلك النصر في رفع معنويات (الإمام أحمد) وجنده وحفزهم على استكمال الجهاد ضد الأحباش / ففي سنة (935 هـ/ 1529م) قام الإمام بمهاجمة مدينة (دوارو) والتي كانت تضم حامية على رأسها بطريك قرر حال وصول قوات المسلمين أن يدخل تحت طاعة الإمام ويدفع له الجزية[280]، ومن نتائج تلك الحملة أن عاد سكان (دوارو) إلى الإسلام بعد أن أجبرهم حكامهم الأحباش على التنصر[281].

وكان من بين أولئك العائدين من النصرانية إلى الإسلام أحد قادة (لبنا دنجل) وهو (أورغي عثمان) حاكم أوفات الذي أرسل برسالة للإمام أحمد يقول فيها: ((أنا من أول مسلم وابن مسلم أسروني المشركون ونصّروني، وإن قلبي مطمئن بالإيمان، والآن أنا جار الله وجار رسوله وجارك أن تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملته، فأنا تائب إلى الله، فهذه جيوش الملك الذين هم معي أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا))[282]. ويبدو من خلال الرسالة أن ذلك القائد يطلب من الإمام العفو عن أفعال قد فعلها يأتي في مقدمتها مقاتلة المسلمين، كما إن الشك يدور حول نية ذلك القائد الذي حاول استمالة عطف الإمام.

توجهت قوات الإمام أحمد نحو مملكة بالي وتمكنوا من هزيمة حاميتها الحبشية وأسر البطريك الموجود فيها وعادوا نحو مدينة (هرر) والتي قرر منها الإمام أن ينظم قواته ويبدأ بحملات عسكرية تسفر عن استقرار المسلمين في المناطق المفتوحة، كما خاطب أمير (زيلع) ليشتري له الأسلحة النارية، فاشترى سبعة مدافع وأقسم أن لا يرجع إلى هرر إلا منتصراً أو شهيداً [283].

فخرجت قوات الإمام باتجاه الممالك التي فتحها مسبقاً وخرجت عن طاعته بعد عودته عنها، فذهب باتجاه (دوارو) وأخضعها من غير مقاومة، وحال سماع (لبنا دنجل) بالخبر أرسل قوات كبيرة لمواجهة الإمام أحمد في معركة (انطوكية) سنة (937هـ / 1530م) فانتهت المعركة بانتصار المسلمين وتكبيد الأحباش خسائر كبيرة دخل على إثرها الكثير من الأحباش في الإسلام كما عاد الكثير من الذين تنصروا كرهاً لدينهم[284].

بعد ذلك أرسل الملك الحبشي (لبنا دنجل) قوات كبيرة لملاقاة قوات الإمام أحمد عند موضع (رزى) الذي حدثت فيه معركة كبيرة انتهت بخسارة المشركين وقتل (130 بطريكاً) [285] وعلى الرغم مما في الرقم من مبالغة إلا أنه دلالة على مدى الانتصار الذي حققه المسلمون،

فالمائة والثلاثون هم من المقاتلين الاعتياديين وربما يكون من بينهم عدد من البطاركة وليس جميعهم. وبعد المعركة أرسل الإمام أحمد رسالة إلى الملك لبنا دنجل لتبادل الأسرى وابلغه عزمه مواصلة الجهاد وإرغام (لبنا دنجل) وقومه على دفع الجزية إلا أن الملك رفض وغضب من عرض الإمام أحمد وأمر بقتل الأسيرين الذين حصل عليهم خلال المعركة[286].

وبعد ذلك الانتصار قرر الكثير من البطاركة الدخول في معاهدة صلح مع الإمام (أحمد) ودفع الجزية له على أن يعود عن بلادهم شريطة أن لا يؤذوا المسلمين المتواجدين بينهم ولا يعينوا ملك الحبشة عليهم ولا يمنعوا من أراد الدخول في الإسلام[287].

وبعد ذلك الصلح تابع الإمام أحمد جهوده لمقاتلة الملك (لبنا دنجل) في مدينة (بادقي) المسماة (مدينة الملك)، فجهز حملة وصلت المدينة التي تركها (لبنا دنجل) بعد أن قام بحرقها كي لا يصلها المسلمون ويحرقوها بأنفسهم[288].

وفي سنة (937هـ /1530م) توجهت جيوش الإمام (أحمد جران) نحو مدينة (شوا) والتي سرعان ما تمكن من فتحها، وفي تلك الأثناء جمع الملك الحبشي (لبنا دنجل) قواته للهجوم على المسلمين فكون جيشاً كبيراً وضع على رأسه (البطريرك روسن سجد) والذي جعل في جيشه (أربعين برتغالياً) يصنعون القوارب الصغيرة لمساعدة الجيش الحبشي على عبور الأنهار الموجودة في الهضبة الحبشية، إلا أن تلك القوات انهزمت أمام الجيش المسلم[289].

وفي سنة (938 هـ /1513م) تحصن ملك الحبشة (لبنا دنجل) في (جبل واصل) للاهتمام بمن تبقى من قواته أمام زحف قوات (الإمام أحمد) إلا أن ذلك لم ينفعه بشيء وهُزم أمام ذلك الجيش لكنه هرب من مكان المعركة بأعجوبة[290]، وبعد ذلك النصر قرر الإمام أحمد تحرير المدن والممالك التي كانت قد دخلت تحت طوعه لكنها خرجت حال خروجه منها (كدوارو) مثلاً، فبدأ حملة طارد فيها البطاركة الموجودين في تلك المملكة والممالك الأخرى حتى انسحبوا منها وعادت إلى الإسلام كما أرسل حملة نحو (شرخا) التي استقبل سكانها المسلمين الفاتحين بفرح وسرور، كما وافق سكانها النصارى على طاعة الإمام والخضوع له [291].

وبعد أن أتم الإمام (أحمد جران) فتوحاته تلك وضع نائب له على كل مدينة قام بفتحها وأرسل رسالة إلى السلطان (عمر دين) في (هرر) ليبعث عوائل المجاهدين ليستقروا في المدن المفتوحة[292]، وبعد ذلك توجهت جيوش الإمام (أحمد جران) نحو إقليم (تيجرة) الذي تم فتحه سنة (940 هـ / 1533م) ودخلت القوات المسلمة العاصمة أكسوم[293].

وبعد ذلك واصل الإمام (أحمد جران) ملاحقة الملك الحبشي (لبنا دنجل) الذي فر باتجاه إقليم (جوجام) والتي وصلتها قوات الإمام إلا أن ملك الحبشة قد هرب منها، ثم توجهت قوات

الإمام (أحمد) نحو (تيجرة) مرة أخرى لاستكمال فتحه، وفي عام (941هـ/ 1534م) تقدمت قوات الإمام (أحمد) نحو منطقة (سمين) وهي منطقة جبلية ذات حصون[294]، وبعد ذلك توجه الإمام أحمد إلى جزر بحيرة (تانا) والتي كان يظن سكانها أنهم في مأمن من هجمات (الإمام أحمد)، إلا أن جيوش المسلمين استطاعت أن تضع قوارب تعبر بها إلى تلك البحيرة وتخضعها بحلول سنة (943هـ/ 1536م) والتي اصبحت خلالها جميع أراضي الحبشة خاضعة لنفوذ السلطان (أحمد جران) وقواته باستثناء منطقة صغيرة تقع (جنوب النيل الأزرق) والتي اتخذها الملك (لبنا دنجل) مقراً له[295].

شعر (لبنا دنجل) أن بلاده قد ضاعت منه وأصبح في خطر كبير فبدأ باستجماع قواته ومخاطبة البرتغاليين لمساعدته، إلا أنه قرر وقبل وصول الدعم البرتغالي توجيه حملة لقمع الإمام (أحمد) فوضع ولديه (فكتور) (وميناس) على رأس قوة هاجمت المسلمين إلى أنها سُحقت وقتل فيها ولده (فكتور) فيما وقع أبنه (ميناس) أسيراً، ثم قاد الملك بنفسه حملة أخرى ضد إحدى وحدات جيوش المسلمين وانتهت كسابقتها بالخسارة فقرر الانتقال من مكان لآخر حتى توفي شريداً سنة (947هـ/ 1540م) ليخلفه ابنه (كلاوديوس Cloudius)[296].

ومع استلام الملك الجديد وصلت الحملة البرتغالية التي جاءت لتساعد الأحباش فرست في ميناء (مصوع) سنة (948 هـ/ 1541م) على متن حوالي الثمانين سفينة انقسمت قسمين الأول مكون من مئة رجل بقت في (مصوع) وقررت الذهاب إلى ملك الحبشة إلا أن قوات (الإمام أحمد) أبادتها بالكامل، والقسم الثاني توجه إلى السويس لملاقاة العثمانيين وقصدوا في طريقهم ميناء سواكن وجزر دهلك فدخلتها تلك القوات وأحرقتها وأسرت عدداً من سكانها[297].

بعد أن عاد قائد الأسطول البرتغالي (استيفاوا داجاما Esteroo Dw Gama) من حملته على السويس والتي لم تحقق نتائجها نزل في مصوع ودفع بـ (450 مقاتل) لقتال الإمام أحمد وجنده، وكان ملك الحبشة في تلك الأثناء يقوم بمواجهة قوات الإمام (أحمد جران) في (إقليم شوا) فقد هاجم ملك الحبشة ذلك الإقليم وجابه قوة يقودها ابن الإمام أحمد (نصر الدين) وهزمها، كما هاجم ملك الحبشة (كلوديوس) القوة نفسها قرب مملكة أوفات وانتصر عليها أيضاً مما أحيا الأمل للأحباش في استعادة أمجادهم[298].

وفي الوقت ذاته تمكنت القوة البرتغالية التي وصلت إلى المنطقة سنة (949هـ /1542م) ونزلت في موضع يسمى (اناسا) من الانتصار على قوات الإمام أحمد رغم كثرة عددها بسبب ما كانت تمتلكه القوات البرتغالية من أسلحة نارية ومدافع ثقيلة[299].

وبعد أن شعر الإمام أحمد بالخطر الصليبي (البرتغالي - الحبشي) لجأ إلى جبال (زوبول) ووجه رسالة للعثمانيين المتواجدين على السواحل اليمنية منذ عام (945هـ/ 1538م)

طالباً نجدتهم، وما كان منهم إلا أن لبوا طلبه وأرسلوا قوة بقيادة واليهم على مدينة (زبيد) (مصطفى باشا النشار) ويرافقه (900) جندي مسلحين بالبنادق وبعشرة مدافع وبرفقتهم جنود عرب أرسلهم شريف مكة[300].

وما أن وصلت القوة العثمانية العربية المشتركة حتى شنت هجوماً على القوات البرتغالية - الحبشية وكبدتها خسائر فادحة وصلت إلى (مائتي شخص) وأسرت قائدهم (كريستوفر داجاما) وأعدمته[301]، وما أن سمع قائد الأسطول البرتغالي (استيفاو) بما حدث حتى أرسل خمسة سفن على متنها الجنود البرتغاليين لتعزيز الحملة إلا أن السفن العثمانية حالت دون وصول تلك القوة إلى الساحل[302].

والخطأ الفادح الذي ارتكبه الإمام أحمد بعد انتصاره هذا يتمثل في اعتقاده أنه حقق النصر النهائي، فأعاد القوات العثمانية والعربية إلى بلادهم وعاد هو إلى مدينة (هرر) مما أعطى فرصة كبيرة لملك الحبشة لتجميع قواته وشن الهجوم المضاد على قوات الإمام أحمد في مقر إقامته سنة (949هـ / 1543م) ووقعت بين الجانبين معركة كبيرة انتهت بهزيمة الجند المسلمين، وأصيب الإمام أحمد في تلك المعركة على يد البرتغاليين ليستشهد في تلك المعركة[303].

وباستشهاد الإمام أحمد جران تشتت قواته وعادت إلى مدينة (هرر) وأصبحت الممالك الإسلامية تابعة لملك الحبشة كما كانت سابقاً[304]، وكافأ ملك الحبشة القوة البرتغالية التي غادرت الحبشة بعد انتهاء مهمتها وزوج من بقي منهم من نساء حبشيات[305]، أما المسلمون فقد انتخبوا ابن أخت الإمام (أحمد جران) إماماً لهم واسمه (نورالدين بن مجاهد) الذي بدأ يجمع قواته وبناء سور لمدينة (هرر) لتحصينها ومهاجمة ملك الحبشة إلا أن المعركة انتهت بانتصار الأحباش الذين هاجموا (هرر) وخربوها، وعلى الرغم من ذلك فإن المسلمين لم يستكينوا وعادوا إلى مهاجمة الأحباش سنة (967هـ / 1559م) وانتصروا عليهم وقتلوا ملكهم (كلوديوس)، إلا أن ذلك النصر لم يعد للبلاد قوتها التي كانت عليها أيام الإمام (أحمد جران)، كما أن موت (نور الدين مجاهد) سنة (975 هـ / 1567م) ادخل البلاد في بودقة النزاعات القبلية والصراع على السلطة[306].

فضلاً عن ذلك فإن الحبشة في تلك الفترة كانت تعاني بكل مكوناتها من الاضطهاد البرتغالي فبعد انتهاء مهمة القضاء على الجهاد الإسلامي بدأ البرتغاليون بإرسال المبشرين إلى الحبشة والذين لم يقتصر عملهم على المسلمين بل حتى على النصارى لغرض تحويلهم إلى المذهب الكاثوليكي[307].

الهوامش

(1) الأصطخري، المسالك والممالك، ص18؛ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، (الإسكندرية: 1958)، ص85-86.

(2) علوة: وهي إحدى ممالك بلاد النوبة وعاصمتها سوبة الواقعة شرقي مدينة الخرطوم الحالية بنحو (15 ميل)، ويحد علوة من الشرق الحبشة، ومن الغرب دارفور وكردفان، ومن الشمال منطقة الأبواب، ومن الجنوب منطقة القطينة. انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 165/1.

(3) المقريزي، المواعظ، 195/1؛ عبد الرزاق ذنون الجاسم، البجة والمؤثرات الحضارية العربية، بحث منشور في مجلة التربية والتعليم، ع6، (تشرين الأول: 1988)، ص227.

(4) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 156/1؛ الإدريسي، صفة المغرب، ص26.

(5) الحداربة: وهم الحضارمة تجار سواكن الذين جاؤا من حضرموت في القرن السادس الميلادي، وهم في الأصل خليط من البجة والعرب وحُرف اسمهم إلى الحداربة، وقد لعبوا دوراً مهماً في تاريخ بلاد البجة. انظر: يوسف فضل حسن، جذور العلاقات بين الثقافات الأفريقية والثقافة العربية، بحث منشور في المجلة العربية للثقافة (تونس: 1982)، ص177؛ جون لويس بوركهارت، رحلات بوركهارت إلى بلاد النوبة والسودان، (القاهرة:د/ت)، ص248.

(6) الزنافجة: ويطلق عليهم أيضاً الرنافجة وهم سكان بلاد البجة المجاورين للحداربة وملكهم يسكن مدينة نقلين. انظر: الدمشقي، نخبة الدهر، ص269؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص70.

(7) انظر: نخبة الدهر، ص269؛ وانظر: ابن الوردي، خريدة العجائب، ص70.

(8) مصطفى محمد مُسعد، البجة والعرب في العصور الوسطى، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بالقاهرة، مج21، ج2 ، (ديسمبر: 1959) ، ص2.

(9) غيث، الإسلام والحبشة، ص23.

(10) وادي العلاقي: ويقع في بلاد البجة في جنوبي أرض مصر وبه معدن التبر، وبينه وبين مدينة اسوان (4 مراحل)، كما أن بين العلاقي وعيذاب ثمان مراحل. انظر: الحموي، معجم البلدان: 4/ 145.

(11) محمد، الشعوب والسلالات، ص 255 .

(12) الاصطخري، المسالك والممالك، ص18.

(13) محمد، الشعوب والسلالات، ص 252.

(14) حسن محمد جوهر، السودان أرضه وتاريخه وحياة شعبه (السودان: 1970)، ص43.

(15) الإدريسي، صفة بلاد المغرب، ص26؛ مصطفى محمد مسعد، البجة والعرب في العصور الوسطى، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مج21، ج2، 1959، ص1.

(16) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، (القاهرة: د/ت) : 96/1.

(17) ابن حوقل، صورة الأرض، ص56 .

(18) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص189.

(19) عبيد الله بن الحبحاب: وهو مولى بني سلول وقد تولى على إفريقيا من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في سنة 114هـ وحتى سنة 123هـ، وكان والياً على مصر فيما قبل. انظر: اليعقوبي، تاريخ: ٣١٨/٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة: 259/1.

(20)الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص108.

(21) الشيخلي، ملاحظات، ص17.

(22) محمود، الإسلام والثقافة العربية: 384/1.

(23) المسعودي، مروج الذهب: 438/1.

(24) عبد الله بن الجهم: هو أحد قادة الخليفة المأمون العباسي (ت 218هـ) والذي قاد الهجوم على البجة في بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. انظر: المقريزي، المواعظ: 195/1.

(25) كنون بن عبد العزيز: وهو حاكم البجة والذي خسر المعركة أمام المسلمين بقيادة عبد الله بن الجهم ورضخ لمطالب المسلمين والمتمثلة في عقد اتفاقية تؤكد على تنفيذ معاهدة البقط بالإضافة إلى التزامات أخرى. انظر: المقريزي، المواعظ: 195/1.

(26) المقريزي، المواعظ 195/1.

(27) الطبري، تاريخ: 9/203-206 .

(28) عبد الله بن عمر بن محفوظ البلدي، سيرة ابن طولون، نشر: محمد كرد علي، (دمشق: 1978)، ص4.

(29) الجاسم، البجة والمؤثرات، ص237.

(30) يوسف فضل حسن، انتشار الإسلام في سودان وادي النيل، بحث منشور في كتاب ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، (بغداد: 1985)، ص25

(31)صباح إبراهيم الشيخلي وعادل محي الدين الالوسي، تاريخ الإسلام في إفريقيا وجنوب شرق أسيا، (بغداد: 1987)، ص37 .

(32) الحموي، معجم البلدان: 189/1؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 5/ 264.

(33) اليعقوبي، تاريخ: 42/1؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك: 125/1؛ المطهر بن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، (شالون: 1903): 3 /27.

(34) مملكة مروى: وهي مملكة نشأت حوالي القرن السادس قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الرابع الميلادي، وتقع على مسافة قصيرة شمال الخرطوم الحالية وأطلق المسيحيون على موقعها اسم النوبة. انظر: دونالد ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، (القاهرة: د/ت)، ص 27.

(35) H.A.Macmichael , A History Of The Arabs In The Sudan , Vol . 1, P. 4-3.

(36)الحموي، معجم البلدان: 309/5. ويشير المقريزي إلى أن "سلها جد النوبة وقرى جد المقرة من اليمن وأنهم من حمير". أنظر: المواعظ: 191/1-192.

(37) أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، (القاهرة: 1937): 258/4.

(38) ابن خلدون، العبر: 176/1.

(39) محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن: 1909): 91/1 ؛ الحموي، معجم البلدان: 189/1 ؛ محمد، الشعوب، ص284.

(40) الطبري، تاريخ الرسل: 515/2 ؛ ناصر خسرو ، سفرنامة: 82/1 .

(41) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 1/ 191.

(42) بلاد النوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر، وأول بلادهم بعد مدينة أسوان المصرية، والسكان كانوا نصارى يعاقبة عندما صالحهم الخليفة عثمان بن عفان (على أربعمائة رأس من الرقيق في السنة، ولا تبعد النوبة عن نهر النيل إلا قليلاً . انظر: ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان (بيروت:د/ت) : 309/5 ؛ أبو عبد الله محمد بن إدريس الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، (ليدن: 1968)، ص20-21 .

(43) ناصر خسرو ، سفرنامة، (بيروت: 1983)، ص81.

(44) ابن أبي سرح: وهو عبد الله بن سعد بن حبيب بن جنيمة العامري بن أبي سرح والي مصر في عهد الخليفة عثمان بن عفان (عقب عزل عمرو بن العاص سنة 25هـ/645م. ينظر: محمد بن سعد، الطبقات الكبير، (ليدن: 1228هـ): 496/7؛ المسعودي، مروج الذهب: 21/2.

(45) المقريزي، المواعظ، ج1، ص200 صباح إبراهيم الشيخلي، ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء - بحث منشور في مجلة آفاق الثقافة والتراث، س10،ع38 (تموز: 2002)، ص20.

(46) البلاذري، فتوح البلدان، ص281.

(47)حاج حمد محمد خير، زيارة ولي عهد النوبة إلى بغداد زمن المعتصم، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، العدد (23)، 1983، ص118.

(48) المقريزي، المواعظ : 201/1.

(49) حسن، انتشار الإسلام، ص32.

(50) الآلوسي، تاريخ، ص41 .

(51) مكي شبيكة، مملكة الفونج الإسلامية، (القاهرة: 1963)، ص21 .

(52) شبيكة، المرجع نفسه، ص35-36 .

(53) الآلوسي، تاريخ، ص42.

(54) أبن حوقل، صورة الأرض، ص55-56 .

(55) النويري، نهاية الأرب: 328/1؛ المقريزي، البيان والإعراب، ص45-46.

(56) المقريزي، البيان، ص45-46.

(57) المقريزي، الخطط: 190/1

(58) أبن الأثير، الكامل: 83/9-84.

(59) محمد جمال سرور، الدولة الفاطمية، ص109.

(60) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة: 292/5.

(61) أبن الأثير، الكامل: 155/11.

(62) المقريزي، الخطط: 12/2.

(63) أبن شداد، النوادر ص37 .

(64) أبن الأثير، الكامل: 186/11.

(65) عطية القوصي، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، دار المعارف بمصر، ط2، (القاهرة: 1981) ، ص82-84.

(66) القوصي، تاريخ، ص85-86.

(67) القلقشندي، صبح الاعشى: 276/5.

(68) ابن خلدون، العبر: 401/5 .

(69) المقريزي، السلوك، القسم الثالث: 752/1-753.

(70) القوصي، تاريخ، ص91-92.

(71) القوصي، المرجع نفسه، ص92 .

(72) القوصي، تاريخ، ص93.

(73) المقريزي، السلوك، القسم الأول: 161/2.

(74) القلقشندي، صبح الأعشى: 277/5.

(75) المقريزي، السلوك، القسم الأول: 162/2.

(76) المقريزي، السلوك، القسم الأول: 161/2.

(77) المقريزي، المصدر نفسه.

(78) القوصي، تاريخ، ص100.

(79) القوصي، تاريخ، ص102.

(80) المقريزي، السلوك، القسم الثاني:255/3.

(81) القوصي، تاريخ، ص103.

(82) سبنسر ترمنجهام، الإسلام في شرق إفريقيا، (القاهرة: 1973)، ص35 .

(83) ابن حوقل، صورة الأرض، ص51؛ جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب أبن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة بتاريخ المستبصر، (الرياض: 1986)، ص95، أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، (مصر: 1895)، ص21.

(84) وليد محمد جرادات، الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، (الدوحة: 1986)، ص41؛ عمر سلهم صديق، الحركة الصليبية في ساحل شرق إفريقيا (669هـ/1270م-950هـ/1543م)، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل: 2001)، ص17.

(85) بازل دافدسن، إفريقيا تحت أضواء جديدة، (بيروت: 1961) ، ص245؛ خولة شاكر الدجيلي، العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الإفريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجري، (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد: 1980)، ص41.

(86) اوسان: وهي دولة تقع جنوب قتبان في بلاد اليمن ،نشأت في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ونمت وازدهرت واستطاعت من أن تضم أراضي المدن المجاورة لها وتنافس بعد ذلك دولة سبأ، واحتكرت التجارة البحرية مع السواحل الشرقية لإفريقيا. انظر: محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، (بيروت: 1973)، ص30-31.

(87) علي، المفصل: 450/3؛ دافدسن، المرجع نفسه، ص245؛

John Gray, History Of Zanzibar From Middle Ages To 1856 (London : 1962), P. 12; R. Coupland, East Africa and its Invaderss, oxford. the calredon press: 1938, P 17.

(88) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: حبش: 279/3؛ نوري، تاريخ، ص60.

(89) اكسوم: وهي مملكة نصرانية نشأت في الجزء الجنوبي من اريتريا والتي كانت قد تأسست في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وتطورت على يد المهاجرين من اليمن لتصل إلى ذروة تقدمها في القرن الأول الميلادي، فقد وصلها المهاجرون العرب على فترات متلاحقة. ينظر: راشد البراوي، الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث، (القاهرة: 1961)، ص46.

(90) بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص177؛ أحمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها، (القاهرة: 1957)، ص70.

(91) الطبري، تاريخ الرسل، ص329

(92) ابن سعد، الطبقات: 136/1

(93) ابن إسحاق، المغازي، ص205

(94) الطبقات: 136/1

(95) تاريخ اليعقوبي: 25/2

(96) غيث، الإسلام والحبشة، ص52

(97) إحسان إبراهيم إسماعيل، العلاقات العربية الحبشية في عصر الرسالة، أطروحة دكتوراه (الموصل: 2000)، ص155.

(98) ابن سعد، الطبقات: 138/1

(99) ابن هاشم، السيرة: 335/1، اليعقوبي، تاريخ: 52/2.

(100) ابن إسحاق، المغازي، ص199؛ إسماعيل، العلاقات العربية الحبشية، ص183

(101) البيهقي، دلائل النبوة: 62/2.

(102) اليعقوبي، تاريخ: 25/2.

(103) عروة، المغازي، ص113.

(104) عباس محمود العقاد، عمرو بن العاص، مطبعة المدني، (القاهرة: د/ت)، ص65.

(105) عبد الرزاق ذنون الجاسم، التاثيرات الثقافية والسياسية للعرب المسلمين على الحبشة من ق (1-7هجري) بحث مطبوع على الآلة الكاتبة ص2.

(106) إسماعيل، العلاقات، ص196.

(107) الجواليقي، المعرب، ص87.

(108) البلاذري، انساب، 532/1.

(109) ابن هشام، السيرة: 607/2.

(110) ابن حجر، فتح الباري: 191/8؛ ابن ماجة، السنن: 256/1.

(111) أبو حبيب، المجر، ص408؛ البلاذري، أنساب: 438/1.

(112) البلاذري، انساب: 439/1.

(113) الطبري، تاريخ: 343/2.

(114) ابن الجوزي، الوفا، ص571.

(115) أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه أبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، (بيروت: 1379هـ): 52/11.

(116) محمد بن عبد الباقي الزرقاني، شرح المواهب اللدنية للقسطلاني، (القاهرة: د/ت) (نسخة المتحف الحضاري ببغداد): 283/2.

(117) إسماعيل، العلاقات، ص275.

(118) سورة الحجرات/ أية 13 .

(119) سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: 1998)، باب المناقب، رقم الحديث (3936): 6 /219.

(120) للمزيد حول الأحباش يُنظر: أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، تقديم: حكمت بشير، ط1 ن (الرياض: 1998).

(121) الطبري، تاريخ: 111/4؛ ابن الأثير، الكامل: 398/9.

(122) محمد عبد الله النقيرة، انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ (الرياض: 1982)، ص64 – 65

(123) سعيد عبد الفتاح عاشور، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، منشور في المجلة التاريخية المصرية، ع14، 1966-1967، ص3-4.

(124) Trimingham, Islam in Ethiopia, p.1 , p.47-48

(125) النقيرة، انتشار الإسلام، ص66.

(126) طرخان، الإسلام والممالك، ص30.

(127) النقيرة، انتشار الإسلام، ص66.

(128) طرخان، الإسلام، ص30.

(129) حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص235.

(130) العمري، مسالك الابصار، ص41.

(131) غيث، الإسلام والحبشة، ص83.

(132) النقيرة، انتشار الإسلام، ص197؛ صديق، الحركة الصليبية، ص35.

(133) Trimingham, Islam in Ethiopia, p.58.

(134) Trimingham, o,p,cit , p 62.

(135) العمري، مسالك الأبصار، ص36-37.

(136) العمري، مسالك الإبصار، ص30.

(137) العمري، المصدر نفسه، ص34-36.

(138) العمري، نفسه، ص37.

(139) عابدين، بين الحبشة والعرب، ص156.

(140) العمري، مسالك الإبصار، ص37.

(141) Trimingham, Islam In Ethiopia, p. 58.

(142) أحمد جمالة محمد ، فتوحات الإمام أحمد بن إبراهيم (1527-1543م) في القرن الإفريقي، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، ع41، (بغداد: 1990)، ص53.

(143) المقريزي، الإلمام، ص9.

(144) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص161 .

(145) النقيرة، انتشار الإسلام، ص202.

(146) العمري، مسالك الإبصار، ص37–38.

(147) عبد الشافي غنيم عبد القادر، البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية، بحث منشور في مجلة قضايا عربية، ع4، س7، (نيسان: 1980)، ص229 .

(148) العمري، مسالك الإبصار، ص42–43.

(149) المقريزي، الإلمام، ص7 .

(150) مملكة ارابيني: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي، وتقع شمال شرق بحيرة تانا، وهي مربعة الشكل، وأهلها حنفية المذهب. يُنظر: العمري، مسالك الأبصار، الباب الثامن، ص42؛ صديق، الحركة الصليبية، ص53.

(151) عابدين، بين الحبشة والعرب، ص156.

(152) العمري، مسالك، ص42.

(153) مملكة دوارو : وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي، تقع جنوب مدينة شوا، ورغم صغر مساحتها إلا أنها تمتلك قوة عسكرية كبيرة، وأهلها مسلمون أحناف. يُنظر: المقريزي، الالمام، ص7.

(154) النقيرة، انتشار الإسلام، ص210.

(155) العمري، مسالك الإبصار، ص43–44.

(156) مملكة شرحا: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي، وربما تُكتب شرخا، وتقع غرب مملكة أوفات وأهلها مسلمون أحناف. يُنظر: صديق، الحركة الصليبية، ص54.

(157) عابدين، بين الحبشة والعرب، ص156.

(158) العمري، مسالك الإبصار، ص42–43.

(159) المقريزي، الإلمام، ص8 .

(160) العمري، مسالك، ص43–44. ومملكة بالي: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي تقع جنوب مملكة دارة ولها عسكر كبير، وهي أكثر الممالك خصوبة، وأطيبها سكناً وأبردها هواءاً، وأهلها مسلمون أحناف. يُنظر: المقريزي، الإلمام، ص8 .

(161) الزيلعي: وهو الذي تم اختياره من قبل مسلمي الحبشة ليكون رسولاً لهم إلى السلطان محمد بن قلاوون سلطان مصر ليبلغه ما يجري من اضطهاد للمسلمين من قبل نصارى الحبشة، وقد صادف أن ترافقت تلك الزيارة بوجود مبعوث ملك الحبشة إلى السلطان محمد ليأذن لهم في أن يتم ترشيح مطران لكنيستهم من قبل بطريرك الإسكندرية، ولهذا أمر السلطان محمد راعي كنيسة الإسكندرية أن يطلب من ملك الحبشة النظر بتلك الدعوى والذي أنكر بدوره ذلك الفعل ورفضه رغم علمه به. يُنظر: العمري، مسالك الأبصار، الباب الثامن، ص36. ويبدو أن لقاء العمري والشيخ الزيلعي قد تم خلال تلك الزيارة.

(162) مملكة أوفات: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي، ويقال لها (جبرة) والنسبة إليها جبرتي وهو اسم مشتق من كلمة (اجبرت) الحبشية وتعني (عباد الله)، وتقع المملكة غرب زيلع. يُنظر: صديق، الحركة الصليبية، ص49.

(163) بلاد التكرور: اسم أطلقه المؤرخون العرب على مملكة مالي وهو في الواقع كما يذكره العمري ليس السودان الغربي والأوسط التي دخلها الإسلام، وأصبحت كلمة تكروري مرادفة لكلمة سوداني. للمزيد ينظر: القزويني، آثار البلاد، ص26؛ العمري، مسالك الإبصار، الباب الثامن، ص60.

(164) العمري، المصدر نفسه، ص46. لكننا نعلم أن نهر سيحون يقع في بلاد ماوراء النهر وليس في الحبشة. وقيل أن النهر المسمى الفردوس ينقسم إلى أربعة رؤوس هي سيحون وفيشون ودجلة والفرات، وسيحون يحيط بأرض كوش الحبشة. ينظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، (بيروت: 1995)، ص136. وفي الحقيقة أن ذلك النهر ما هو إلا نهر النيل الأزرق أو أباي (Abbay) حسب ما يسميه الأثيوبيون، كما يسميه السكان هناك رجيون أو جيحون أو جن. ينظر: محمد محفوظ عمر جوبان، انتشار الإسلام في الحبشة - دراسة في التأثيرات السياسية والاقتصادية -، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل: 2001)، ص287.

(165) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط1، (بيروت: 1987): 5 /319-320 .

(166)العمري، مسالك الإبصار، ص45.

(167) شهران هنا بالمسير الاعتيادي أي ستين يوماً واليوم : هو وحدة استخدمها الكُتاب العرب المسلمون لحساب المسافة ، ويساوي اليوم ثمانية فراسخ . يُنظر : عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر أبو الفدا، تقويم البلدان، (باريس: 1840) ، ص79. وبما أن الفرسخ يساوي 6كم. يُنظر: هنتس، المكاييل والأوزان، ص94-95. إذن اليوم يساوي (48كم). أي أن طول الممالك الإسلامية يساوي (2880 كم) .

(168) العمري، مسالك الإبصار، ص36.

(169) العمري، مسالك الإبصار، ص46.

(170) المصدر نفسه، ص46.

(171) العمري، المصدر نفسه، ص 42-44.

(172) العمري، نفسه، ص42.

(173) العمري، نفسه، ص44 .

(174) العمري، نفسه، ص37.

(175) العمري، نفسه، ص42.

(176) مملكة داره: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي وتقع على الحدود الغربية لمملكة اوفات وشمال شرق مملكة هدية، وأضعف الممالك مالاً وأقلها خيلاً ورجالاً، وأهلها مسلمون أحناف. يُنظر: صديق، الحركة الصليبية، ص54.

(177) العمري، نفسه، 43.

(178) النشاب: السهم والنبل والنشاب أسماء لمسمى واحد. ينظر: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة،

المخصص، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (القاهرة: 1321هـ)، ج6، م2، ص47 . إلا أن ابن منظور أشار إلى أن النبال تعني السهام بالعربية. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: 571/3. وهو ما يدل على وجود سهام غير عربية والتي تسمى النشاب بالفارسية. ينظر: محمود أحمد محمد سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، مكتبة المنار، ط1، (الزرقاء: 1987)، ص292 .

(179) المزاريع: وسماها المؤلف أيضاً في موقع آخر المزاريق ومفردها مزراق وهي رماح قصيرة يستخدمها مشاة الجيش، وهي أقصر طولاً من تلك التي يستخدمها الفرسان، وقد استخدمها الجيش العربي الإسلامي في مختلف أرجاء الدولة العربية الإسلامية، ومنها الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين. ينظر: محسن محمد حسين، الجيش المملوكي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، ط1، (بيروت: 1986)، ص272.

(180) العمري، مسالك الأبصار، ص48.

(181) العمري، نفسه، ص37.

(182) العمري، مسالك الأبصار، ص46.

(183) الجتر: وهي مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب وعادةً ما تُحمل على رأس الملك في موكب الصيد. يُنظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 4/7-8.

(184) الشبابة: وهي آلة موسيقية. يُنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، هامش رقم (1): 318/5.

(185) العمري، مسالك الأبصار، ص38.

(186) الكوافي: ومفردها كوفية وهي عبارة عن منديل مربع يُلبس فوق الرأس وله من الطول ذراع ومثله من العرض، وهو ذو ألوان مختلفة ولونه أحمر غامق أو ضارب إلى الدكنة أو من اللون الأخضر الزاهي أو الأصفر أحياناً. يُنظر: رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، (بغداد: 1971)، ص315.

(187) العمري، مسالك الأبصار، ص37-38.

(188) الأبراد الهندية: مفردها بردة وهي كساء يلتحف به الرجال كغطاء للبدن، وقيل إذا جعل للصوف شقة وله هدب فهو بردة، وقيل هي شملة مخططة. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: 87/3 .

(189) العمري، مسالك الأبصار، ص47.

(190) السماط: سماط القوم أي صفهم، ويقال: أن القوم حوله سماطين أي صفين، وكل صف من الرجال سماط، كما يقال السماط الجماعة من الناس. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: 325/7 . والمراد هنا هو مأدبة الطعام التي يقيمها الملك له ولخاصته.

(191) العمري، مسالك الأبصار، ص41.

(192) محمد بن عبد الله بن محمد بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، اعتنى به وراجعه: درويش الجويدي، المطبعة العصرية، (بيروت: 2007): 280/2.

(193) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ط1، (القاهرة: 1991)، ص167-168

(194) صاحب امحرا: وهو ملك الحبشة الذي كان يُطلق عليه لقب النجاشي ويتبعه سكان الممالك النصرانية في الحبشة فضلاً عن تبعية ممالك المسلمين له في حالة كون العلاقات بينهما سلمية، ويتخذ النجاشي من إقليم امحرا مقراً له. يُنظر: ت. تامرات، القرن الأفريقي – السليمانيون المنتسبون للملك سليمان الحكيم – في أثيوبيا ودول القرن الأفريقي، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، (اليونسكو: 1988) : 433/4

(195) العمري، مسالك الأبصار، ص44-45 .

(196) المصدر نفسه، ص51.

(197) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، (القاهرة:1894) ، ص31.

(198) الخانقاه: بالقاف والكاف جمعها خوانق، لفظة فارسية تعني البيت، وهو بناء أُقيم على نظام الصحن الذي يحيط به إيوان واحد أو أكثر، وهي بلا مئذنة ولا منبر وتضم مسجداً لا تقام به صلاة الجمعة، ويُلحق به أحياناً ضريح أو مدرسة، وتُدرس في الخانقاه العلوم الدينية على المذاهب الأربعة، ويعود تاريخ بناء أول خانقاه إلى القرن الثاني للهجرة في مدينة الرملة بفلسطين. يُنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص188؛ أدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب اللبناني، (بيروت:د/ت): 23/2.

(199) العمري، مسالك الأبصار، ص36.

(200) التجار الكارمية: أطلق المؤلف عليهم الكرامية، وهناك رأي يقول أن تسمية كارم مأخوذة من كلمة (Kuaraima)وهي لفظة أمهرية تعني الهيل أو الحبهان وهو من التوابل التي اشتهر أولئك التجار بالعمل بها. ورأي أخر يشير إلى أن كلمة كارم هندية أصلها كاريام وتعني الأعمال أو الأشغال. يُنظر: عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية، مج22، (القاهرة: 1975)، ص25.

(201) العمري، مسالك الأبصار، ص52.

(202) المصدر نفسه، ص46 .

(203) المصدر نفسه، ص36 .

(204) الأخصاص: مفردها خص وهو بيت من شجر أو قصب. وقيل الخُص البيت الذي يُسقف عليه بخشبة على هيئة الأزج. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: 26/7 .

(205) العمري، مسالك الأبصار، ص50-51.

(206) وشلوا: وهي إحدى مدن الحبشة وتقع بالقرب من مملكة هدية الإسلامية، وكان يتم أخذ الرقيق الأفارقة إليها ليتم إخصائهم وبيعهم. يُنظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 5/-327.

(207) العمري، مسالك الأبصار، ص43.

(208) المصدر نفسه، ص41.

(209) المصدر نفسه، ص42–44.

(210) الويبة المصرية: وهي مكيال مصري بالدرجة الأولى وكان يعادل في السابق (10) امنان أو (168ر12) كغم قمح. يُنظر: هنتس، المكاييل، ص80.

(211) العمري، مسالك الأبصار، ص39 .

(212) داموت وسحام: وهما إقليمان حبشيان يقعان شمال مملكة داره الإسلامية ويعتنق سكانهما النصرانية. يُنظر: تامرات، القرن الإفريقي: 433/4.

(213) الأوقية: وتستخدم في تقدير قيمة الذهب، وكانت تساوي على الأغلب 12/1 من الرطل ووزنها مختلف من منطقة لأخرى فهي تعادل في الحجاز (125 غم) أي (40درهماً) وفي مصر تساوي (12 درهماً). يُنظر: هنتس، المكاييل والأوزان، ص19–20 .

(214) العمري، مسالك الأبصار، ص40–41.

(215) العمري، مسالك الأبصار، ص44–45.

(216) محي الدين بن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، (القاهرة: 1961)، ص173.

(217) النقيرة، انتشار الإسلام، ص296.

(218) صديق، الحركة الصليبية، ص77.

(219) النقيرة، انتشار الإسلام، ص296.

(220) غيث، الإسلام والحبشة، ص103.

(221) القوصي، تاريخ، ص83 .

(222) Trimingham , Islam IN Ethiopia , P57 .

(223) Trimingham , Islam IN Ethiopia , P57 .

(224) النقيرة، انتشار الإسلام، ص297؛ صديق، الحركة الصليبية، ص83–84.

(225) صديق، الحركة الصليبية، ص84.

(226) تامرات، القرن الإفريقي – السليمانيون، مج4، ص448.

(227) صديق، الحركة الصليبية، ص92.

(228) غيث، الإسلام والحبشة، ص108.

(229) صديق، الحركة الصليبية، ص93.

(230) عاشور، بعض أضواء جديدة، ص13–14.

(231) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، (القاهرة: 1894)، ص31.

(232) القلقشندي، صبح الأعشا 8 /123-124.

(233) عاشور، بعض أضواء، ص18؛ صديق، الحركة الصليبية، ص96 .

(234) صديق، الحركة الصليبية، ص97.

(235) Trimingham , Islam IN Ethiopia , P. 69-70

(236) صديق، الحركة الصليبية، ص98.

(237) المقريزي، السلوك، ج1، ق3 ، ص916.

(238) J.S.Tirmingham , Islam in Ethiopia (Oxford University:1976), p.70.

(239) العمري، مسالك الأبصار، ص32.

(240) تامرات، القرن الإفريقي، ص 433.

(241) المقريزي، السلوك، صححه: محمد زيادة، (القاهرة: 1941)، القسم الأول: 270/2

(242) حق الدين الأول: هو حق الدين محمد بن علي بن عمر واصمع أو ولشمع، ملك أوفات أو وفات بعد أخيه (برو بن عمر ولشمع). ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: 265/6 المقريزي، الإلمام، ص9 .

(243) تامرات، القرن الإفريقي، ص433 .

(244) Trimingham , Islam In Ethiopia , P. 71.

(245) Ahistory Of Ethiopia , Vol .1, P. 291.

(246) Trimingham , Islam In Ethiopia , P . 71.

(247) طرخان، الممالك الإسلامية، ص54.

(248) جوبان، انتشار الإسلام، ص224.

(249) مسالك الأبصار، ص32.

(250) العمري، مسالك الأبصار، ص16 .

(251) جوبان، انتشار الإسلام، ص226 .

(252) صديق، الحركة الصليبية، ص102.

(253) ت.تامرات، القرن الإفريقي، ص442.

(254) المقريزي، السلوك، القسم الثالث: 2 /861 .

(255) المقريزي، المواعظ والاعتبار: 499/2.

(256) ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص

(257) صديق، الحركة الصليبية، ص192.

(258) محمود، انتشار الإسلام 2 /421 .

(259) صديق، ص192 –193.

(260) صلاد، التاريخ السياسي لسلطنة، ص139–140.

(261) عرب، فتوح الحبشة، ص104.

(262) عرب، فتوح الحبشة، ص105.

(263) عرب، فتوح الحبشة، ص106؛ صديق، الحركة، ص197.

(264) عرب، فتوح الحبشة، ص6؛ صديق، الحركة، ص197.

(265) عرب، فتوح الحبشة، ص6.

(266) عرب، فتوح الحبشة، ص6.

(267) فتوح الحبشة، ص7 ؛ صديق، الحركة، ص199.

(268) فتوح الحبشة، ص8 .

(269) فتوح الحبشة، ص9-10.

(270) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص9-10.

(271) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص10.

(272) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص10.

(273) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص17 .

(274) صديق، الحركة، ص201.

(275) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص31.

(276) صلاد، التاريخ السياسي لسلطنة عدل، ص203.

(277) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص47–48 .

(278) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص50.

(279) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص64–72.

(280) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص75.

(281) صلاد، التاريخ السياسي لسلطنة عدل، ص212؛ صديق، الحركة، ص207.

(282) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص181 –182 .

(283) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص109.

(284) أرنولد، الدعوة، ص137.

(285) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص132 .

(286) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص139-140 .

(287) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص 139-140 .

(288) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص148 -149 .

(289) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص174 .

(290) جمال محمد، فتوحات الإمام، ص57 .

(291) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص282.

(292) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص304.

(293) ممتاز العارف، الأحباش، ص88 .

(294) عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص343؛ صديق، الحركة، ص211.

(295) غيث، الحبشة، ص154 - 155 .

(296) الفقيرة، انتشار الإسلام، ص313.

(297) صديق، الحركة، ص213.

(298) صديق، الحركة، ص214.

(299) صديق، الحركة، ص214.

(300) صديق، الحركة، ص214-215.

(301) دافدسن، إفريقيا، ص85.

(302) سالم، الفتح العثماني، ص104 .

(303) صديق، الحركة، ص215.

(304) غيث، الإسلام والحبشة، ص156-157 .

(305) العارف، الأحباش، ص90 .

(306) العارف، الأحباش، ص91.

(307) قاسم، الأصول التاريخية، ص132 .

الفصل الرابع

انتشار الإسلام
في
ساحل شرق إفريقيا

أولاً : انتشار الإسلام

ثانياً : قيام الإمارات الإسلامية

1- إمارة مقديشو الإسلامية

2- إمارة كلوة الإسلامية

ثالثاً: أثر العمارة الإسلامية في الساحل الشرقي الإفريقي

رابعاً : الهجوم البرتغالي

خامساً : الدور العماني

أولاً : انتشار الإسلام :

أسهم القرب الجغرافي لبلاد العرب من ساحل شرق أفريقيا، فضلاً عن معرفة العرب البحرية ومعرفتهم بعلم الفلك واتجاهات الكواكب وكذلك معرفتهم بسر الرياح الموسمية في إقامة علاقات تجارية قديمة تعود في جذورها إلى سنة 1709 ق.م في عهد سرجون الأكدي حينما تم العثور على نقوش سومرية وبابلية في ساحل شرق إفريقيا، كما كان للدول التي قامت في اليمن ومنذ القرن الرابع عشر ق.م، كما أشار المؤرخ الروماني بلينوس (70م) إلى أن ملوك اليمن عرفوا مناطق كثيرة على الساحل الشرقي الإفريقي وعملوا فيها كتجار لاسيما في الأفاويه والأطايب محتكرين تلك التجارة من خلال منع العامة من العمل فيها[1]. فضلاً عن ذلك فإن بعض زعماء الساحل كانوا تابعين لأمراء حمير في اليمن وأن أولئك الأمراء كانوا في تواصل مستمر مع الساحل الإفريقي مما جعلهم يتقنون لغة أهله ويتزاوجون معهم الأمر الذي نجم عنه ظهور جيل جديد يحمل صفات مشتركة بين العرب والزنوج سمي بالشعب السواحلي ويتكلم لغة تسمى باللغة السواحلية هي مزيج بين لغة الزنوج واللغة العربية يغلب عليها المفردات العربية لاسيما المستخدمة في مجال التجارة[2].

إلا أن ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية جاء ليعزز تلك العوامل ويجعل عملية نشر الإسلام على رأسها، فازدادت الهجرات العربية الإسلامية إلى ساحل شرق إفريقيا بعد الإسلام لا سيما في العصرين الأموي والعباسي وما رافقهما من خلافات سياسية دفعت بمجموعات متعددة للهجرة، كان في مقدمتها هجرة مجموعة صغيرة خرجت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65-86هـ) لتستقر عند وصولها في ارخبيل (لامو) الأمر دفع بالخليفة عبد الملك إلى إرسال أخاه (حمزة) لإقناع المهاجرين بالعودة[3].

ويبدو أن هجرة الأخوين سليمان وسعيد ابني عباد الجلندي إلى الساحل سنة (81هـ/700م) كانت فاتحة الهجرات المنظمة، واللذان ثارا بوجه الخليفة عبد الملك بن مروان معلنين تأييدهم لثورة عبد الله بن الزبير في مكة، الأمر الذي حفز الخليفة عبد الملك لإرسال عامله على العراق (الحجاج بن يوسف الثقفي) لمحاربتهم والانتصار عليهم[4]، وبالتالي هروبهم نحو ساحل شرق إفريقيا ليستقروا في مدينة (باتا) الواقعة في ارخبيل لامو[5].

وفي سنة 122هـ /740م وصلت إلى الساحل قادمة من اليمن مجموعة من الزيدية بعد فشل ثورتهم ضد الدولة الأموية ومقتل زعيمهم (زيد بن علي) ليستقروا في ساحل بنادر بالقرب من مدينة مقديشو[6]، وقد تبعتهم مجموعات أخرى من الزيدية لاسيما في الفترة

المحصورة بين 140-143هـ متوغلة في الداخل الإفريقي وصولاً إلى خط الاستواء ليدوم حكمهم في المنطقة حوالي المائتي سنة[7].

وباتجاه الساحل الشرقي لإفريقيا حدث اتصال آخر بين العرب المسلمين والأفارقة من خلال فتح جزيرة دهلك[8] سنة 83هـ/702م، بعد أن هاجم القراصنة المنطلقين منها مدينة جدة[9]، لأكثر من مرة، فقرر المسلمون مهاجمتها وتحريرها[10] وقد كان فتح دهلك بمثابة إقامة جسر امتد عبره التأثير الإسلامي إلى ساحل شرق إفريقيا[11].

إن التجارة كانت الدافع الأساس لوصول العرب إلى تلك المناطق التي اشتهرت بكونها المورد الرئيس للأخشاب والرقيق والعاج والذهب وغيرها من المواد إلى مختلف بقاع الأرض، فوصلت مجموعات كبيرة من التجار إلى هناك لاسيما المناطق الواقعة في ارتيريا الحالية[12].

وكان وصول التجار إلى الساحل يدعمه على نحو مستمر هجرات من مناطق مختلفة من أرض الإسلام ولأسباب متعددة، فأسباب الهجرات إما أن يكون الغرض منها اقتصادي للحصول على مصدر رزق جديد[13]، أو هربا من ظروف الجفاف وتدمير الزراعة[14]، أو نتيجة لأوضاع سياسية صعبة، ويبدو أن الأسباب السياسية كانت هي العامل الأهم والأكثر تأثيرا في هجرة العرب المسلمين إلى ساحل شرق أفريقيا[15].

لقد أسهمت الهجرات في تأسيس عدة مدن إسلامية على الساحل الشرقي لإفريقيا كمنبسا وباتا ولامو وكلوة وزنجبار ومالندة[16]، تلك المدن التي توالت عليها الهجرات الإسلامية، فبعد فشل ثورة زيد بن زين العابدين بن الحسين كرم الله وجهه ومقتله في الكوفة، مما دفع الكثير من أتباعه إلى الهروب نحو الساحل الشرقي لإفريقيا والاستقرار عند ساحل بنادر (الصومال الشرقي)، فعلى الرغم من خوفهم وتحذرهم من سكان البلد الأصليين إلى أنهم بمرور الزمن بسطوا سلطانهم على المنطقة[17].

وكان الزيدية قد استقر بهم الحال في (شنجايا) (Shangaya) في موقع مدينة Port Dan) Ford) الحالية لكنها لم تحظى بالشهرة على الرغم من أن حكم الزيدية للمنطقة دام حوالي مائتي عام، إلا أن البعض منهم هاجر نحو مدينة (مدغشقر) واستقربها لا سيما في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، وقد أطلق المؤرخ المسعودي على مدينتهم اسم (قنبلو) عند زيارته لها، والتي وصفها بأن سكانها من المسلمين وأن لغتهم زنجية[18]. كما أن المؤرخ المقريزي يشير إلى هجرة العلويين إلى ست جزر في المحيط الهندي[19].

ولم تكن جزر ومدن الساحل الشرقي الإفريقي لتفرق شمل المسلمين الواصلين إليه بل على

العكس عملت على جمعهم وتأسيسهم لعدة دول هناك، كما أن هجرة آل الجلندي والزيدية إلى الساحل شجعت الكثيرين للإقدام على الهجرة لاسيما خلال التطورات السياسية التي رافقت سقوط الدولة الأموية واستلام الحكم من قبل العباسيين[20].

ثانياً : قيام الإمارات الإسلامية :

1- إمارة مقديشو الإسلامية:

نتيجة للصراع بين القرامطة والدولة العباسية كانت هجرة الأخوة السبعة في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد إلى ساحل شرق أفريقيا على متن سبعة سفن تضم أولئك الأخوة وأنصارهم، ليهبطوا على ساحل بنادر ثم يمتد نفوذهم فيما بعد حتى (منبسا) إلا أن الأمر الذي واجههم على الساحل هو وجود الزيدية هناك والذين اضطروا فيما بعد للانسحاب نحو الداخل وترك الساحل للمهاجرين الجدد[21] وللمهاجرين من قبيلة الحارث الفضل في إنشاء مدينة مقديشو فيما بعد، وكذلك مدينة براوة[22].

لقد أسس الأخوة السبعة من بني الحارث سنة 295هـ/907م مدينة مقديشو على الساحل الشرقي لإفريقيا والتي احتلت مكانة كبيرة فيما بعد بسبب الحركة التجارية العربية مع تلك المدينة والتي تحولت إلى مدينة تجارية كبيرة لاسيما في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، كما أسهمت هجرة عربية أخرى لبني مجيد القادمين من منطقة المنذرية في اليمن في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي في زيادة أعداد المسلمين فيها[23]، ويصفها ياقوت الحموي بقوله ((أن سكان مقديشو عرب أقحاح))[24].

لقد سميت مدينة مقديشو بمدينة الإسلام في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[25] بعد أن سيطرت على معظم مدن الساحل الشرقي الإفريقي ونشرت الإسلام بين سكانه وأقامت حكماً يقوم على الشورى وتطبيق الشريعة الإسلامية[26]، ويصف الرحالة ابن بطوطة مدينة مقديشو بأنها مدينة كبيرة فيها الكثير من الجمال والأغنام التي يُنحر منها في كل عام حوالي المائتين، كما أشار إلى معرفة سكانها بصناعة الثياب الجميلة جداً، وكان من عادة سكان المدينة أنه كلما اقترب مركب كبير من شواطئ بلادهم صعدوا على ظهره، ويقدم كل منهم إناء طعام إلى أحد الرُكاب كضيافة ويدعوه للنزول في داره وهو ما يضمن له الاتجار معه، وهو ما حصل مع ابن بطوطة حينما دعاه أحد الشبان للنزول في داره إلا أن أصحابه قالوا له هذا ليس بتاجر وإنما هو فقيه[27].

ومن عادة أهل مقديشو استضافة الفقهاء في دار القاضي، فقد استقبل قاضي مقديشو الرحالة ابن بطوطة واصطحبه إلى قصر السلطان الذي كان يُلقب بالشيخ وهو (أبو بكر بن الشيخ عمر) الذي استقبله بحفاوة وأنزله دار الطلبة وقدم له الطعام والشراب، ثم حضر معه في اليوم التالي مجلسه الذي ضم فضلاً عنه القاضي والوزراء وعلية القوم وتصدى لمسألة حل مشكلات العامة[28].

وينتمي شيخ مقديشو إلى أسرة تسمى (أسرة فخر الدين) والتي حكمت البلاد في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين وشهدت البلاد خلالها تطوراً علمياً وثقافياً واقتصادياً حيث كانت المدينة مركزاً تجارياً كبيراً[29] لاسيما بعد تحالف بني الحارث وسكان مقديشو الأصليين لينشأوا بعد ذلك مدناً أخرى كمدينة (براوة) والتي سماها الإدريسي (بروات)، ومدينة (مركة) الواقعة عند نهر (ويبي) وغيرها من المُدن[30]، ونظام الحكم في مقديشو يعتمد على تولية الحكم للشيخ وأبنائه وأسرته وأصبحت مقديشو سلطنة ذات نظم سياسية ورسوم إدارية[31].

2- إمارة كلوة الإسلامية :

تأسست سلطنة كلوة على الساحل الشرقي لإفريقيا سنة (365هـ) على يد (علي بن الحسن بن علي) وهو ابن صاحب شيراز وأبنائه الستة الذين انتشروا في مدن الساحل الشرقي لإفريقيا فأحدهم نزل في موضع مدينة منبسا، والآخر نزل في مدينة زنجبار، وثالث في مدينة (شاكة) ورابع في مدينة (بمبا)، وخامس في مدينة (مافيه)[32]، ويصف الرحالة ابن بطوطة مدينة كلوة بقوله ((أنها مدينة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد، ولهم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه الليميين من جناوة))[33].

وبعد استقرار (علي بن الحسن) في مدينة كلوة قرر مد نفوذه في بقية المدن، فأرسل ابنه إلى جزيرة (أنجوان) من جزر القمر، كما أرسل ابنه الآخر إلى جزيرة (منفيه) والذي لُقب بالسلطان واستطاع أن يسيطر على المنطقة الواقعة بين (منبسا) شمالاً و (موزنبيق) جنوباً، فضلاً عن الجزر المواجهة للساحل[34].

لقد بسطت دولة كلوة سيطرتها على مناجم الحديد والذهب في (روديسيا الحالية) منذ عهد ثاني حكامها، كما سيطرت على طرق التجارة بين الساحل وبقية المدن، وفي تلك الأثناء مدت كلوة نفوذها إلى جزر أخرى (كبمبة) و (زنجبار) و (مافيه) وجزر القمر التي كان حكامها يدينون بالولاء لحاكم كلوة[35].

وكانت مؤثرات الإسلام الحضارية قد وصلت إلى كلوة، فأسطولها كان يحمل الذهب من مدينة (سفالة) ليتم توزيعه إلى مدن العالم الأخرى، فضلاً عن ذلك فقد أوفدت كلوة أبناءها إلى معاهد وجامعات الأمة الإسلامية كالقيروان والقاهرة ومكة والشام، كما تم بناء مساجد كبيرة في كلوة وبقية مدن الساحل كمسجد مدينة كلوة الذي أُسس سنة (787هـ/1385م) من قبل (محمد بن سليمان بن الحسن)[36].

ويبدو أن عمل المسلمين بالتجارة في كلوة أسهم في نشر الإسلام بين الزنوج ودفعهم إلى مصاهرة أولئك القادمين الجُدد لبلادهم ليصبحوا أهل دين وصلاح كما وصفهم الرحالة ابن بطوطة الذي زار المدينة سنة (731هـ/1330م)[37] على عهد سلطانها (أبو المظفر حسن) المُلقب بأبو المواهب والذي حكم لمدة ثمانية عشر عاماً كان خلالها مثالاً للكرم والجود وحريصاً على تطبيق أوامر الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، فهو يجمع ما يحصل عليه من حروبه مع كفار الزنج من غنائم ويخرج خمسها ويصرفه في مصارفه الشرعية، كما كان يضع نصيب ذوي القربى في صندوق خاص، فضلاً عن تقديم الأموال لمن يصل بلاده من أشراف الحجاز والعراق وغيرهما، وقد شاهد ابن بطوطة خلال زيارته عدداً منهم مثل (محمد بن جماز) و(منصور بن لبيد بن أبي نمي) و (محمد بن شميلة بن أبي نمي)، كما شاهد في مدينة مقديشو (اتيل بن كبش بن جماز) وهو ينوي الذهاب إلى سلطان كلوة[38].

وفي باب كرم السلطان أبو المواهب وحسن صنيعه مع الفقراء يشير ابن بطوطة إلى أنه وعند خروجهما من صلاة الجمعة استوقف رجُل فقير الشيخ طالباً مساعدته، فقال له الشيخ (لبيك ما حاجتك)، قال (أعطني هذه الثياب التي عليك) فقال له: (نعم أعطيكها) فقال الفقير (الساعة) قال الشيخ (نعم الساعة) وعاد إلى المسجد ليدخل دار الخطيب وينزع ثيابه ويلبس ثياب أخرى، وما أن استلم الفقير الملابس حتى أعادها لولي عهد الشيخ وابنه الذي عوض الفقير بعشرة رؤوس من العبيد، ثم منحه الشيخ عشرة أخرى وحملين من العاج[39].

وبعد وفاة أبو المواهب تولى السلطة أخوه (داؤد) والذي وصفه الرحالة ابن بطوطة بأنه ليس كأخيه، فإذا ما جاءه فقير يطلب المساعدة يقول له (مات الذي كان يُعطي، ولم يترك بعده ما يُعطى)، وكانت الوفود تقيم عنده شهوراً فلا يمنحهم إلا القليل الأمر الذي قلل من أعداد الوافدين إليه[40].

وبعد فترة استولى (الحُسين بن سليمان المطعون) على السلطة في كلوة وعزل (داؤد) ليبقى في الحكم حوالي ست سنوات انتهت باستشهاده في إحدى المعارك ضد الوثنيين،

وباستشهاده تولى الحكم (طالوت بن الحُسين) لمدة سنتين وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً، قرر خلالها الذهاب إلى الحج فوضع بدلاً عنه ابنه (الحُسين) المُلقب (أشزفكي) بدلاً عنه ريثما يعود من رحلته إلا أن المنية وافته في الطريق ليحكم البلاد ابنه لمدة ثلاثاً وعشرين سنة، انتهت بتسلم آخر سلاطين كلوة الحكم (فضيل) سنة (901هـ/1496م) وبقى حتى وصول البرتغاليين المدينة سنة (902هـ/1498م)[41].

وعلى الرغم من أن الصراعات على السلطة والانقسامات كانت دائمة في الفترة الأخيرة من حكم دولة كلوة إلا أن التقدم الحضاري والمعرفي كان بارزاً للعيان وهو ما أدهش البرتغاليون عند وصولهم إلى المدينة، ورغم فقدان كلوة سيطرتها على جزيرة زنجبار، إلا أن أملاكها بقيت كبيرة ومميزة[42]، وأصبح للعرب مكانة كبيرة لدى الأفارقة ومهابة في قلوبهم واحترام لما يمتلكونه من حضارة ومعرفة تجارية كبيرة وأخلاق عالية،[43].

وما أن حل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حتى اكتملت صورة مدن الساحل الشرقي واصطبغت بالصبغة العربية، وتوزعت تلك المدن على طول الساحل فهي من الشمال إلى الجنوب تضم (مقديشو، براوة، قسماتو، بات، لامو، زنجبار، موفيه، مكوة، موزنبيق، سفالة)[44].

لقد تبع هجرة الأخوة السبعة من بني الحارث هجرة أخرى بزعامة (حسن بن علي) قرابة (364هجري /975م) قادمة من مدينة (شيراز) في بلاد فارس وقد أشارت بعض المصادر والمراجع إلى أن (حسن بن علي) هذا هو حاكم شيراز أو ابنه (علي) ومهما تكن الأسباب فإنه قد وصل وأتباعه إلى مدينة (كلوة)[45].

كما أن الاختلاف كان في السنة التي وصلوا فيها فهناك من يقول أنها سنة (346 هـ/ 975م) وهو عام يسبق الرأي السابق بحوالي (18) سنة، ويبدو أن (الحسن) هذا قد وصل برفقة أبنائه الستة ورعيته البالغ عددهم حوالي (1200 رجل وامرأة) لينجح بعد ذلك في تأسيس دولته التي أطلق عليها اسم (دولة الزنج) أو (كلوة) والتي امتدت حدودها لتشمل (بمبا) في الشمال و(سفالة) في الجنوب[46].

وفي الوقت الذي لا ننكر مدى التأثير الفارسي الشيرازي في دولة (كلوة) والتي تعد من أوائل الدول الإسلامية على الساحل، إلا أن الأمر المهم هو القول بأن تلك التأثيرات التي شملت المأكل والمشرب والملبس ومظاهر الحضارة المختلفة ضاعت في غمار التأثيرات العربية على الساحل[47].

وهناك من يؤكد أن الذي هاجر من شيراز إلى ساحل شرق أفريقيا هو (حسن بن علي الشيرازي) نفسه مع أهله فرارا من (طغرل بك السلجوقي) عام (447 هجري/1055م)[48]، بينما يشير صاحب كتاب (السلوى) إلى أن حسن بن علي حاكم شيراز سافر مع أبنائه ورعيته إلى الساحل في منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع للميلاد[49]. إلا إن الاختلاف بين التاريخين يجعلنا نعترف بمصداقية ماذكره صاحب السلوى الذي يتقرب من تاريخ تأسيس دولتهم على الساحل وهو عام 364هجري /957م .

وحينما وصل (حسن بن علي) ومن معه إلى الساحل رسى بسفنه في مدينتي (مقديشو) و(براوة) فوجد فيها مسلمين يختلفون عنه في المذهب، فقرر الرحيل والتوجه نحو جزيرة (زنجبار) لما سمعه عنها وعن ذهبها، فنزل في مكان قريب منها وهو مدينة (كلوة) التي وجد بها حاكما مسلما يدعى (مورويز)، فتعرف إليه ومن ثم تزوج ابنته ويقال أنه اشترى منه الجزيرة بثياب كانت معه شريطة أن ينسحبوا إلى الداخل، وهو ما حصل فعلا[50] إلا أن تلك الرواية فيها شك كبير، إذ ليس من المعقول أن يبيع رجل عاقل بلاده بثياب، لكن ما يحق لنا قوله هو أن الاندماج مع السكان الأصليين والزواج من بناتهم دفع بالكثير منهم إلى الدخول في الإسلام.

ومع بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وصلت الساحل هجرة عربية كبيرة قادمة من عُمان بقيادة (سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني) بعد انهيار دولته في عُمان فاستقبله العرب في مدينة (باتا) استقبالاً كبيراً، وبعد استقراره في تلك البلاد تزوج من أميرة سواحلية هي ابنة حاكم كلوة (أسحق) والذي تنازل لزوج ابنته عن الحكم ليصبح أول حكام أسرة بني نبهان على الساحل الشرقي لإفريقيا[51].

لقد ضمت أسرة بني نبهان الساحل الشرقي لأفريقيا تحت لوائها ونشطت التجارة على الساحل مما ساعد على توافد الكثير من التجار الهنود والعرب إليها، وبقى آل نبهان في حكمهم للساحل لما بعد وصول البرتغاليين إلى المنطقة[52].

ولم يقتصر أمر الهجرات العربية الإسلامية على الصومال بل شمل مناطق أخرى على الساحل، ففي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وصلت هجرة عربية إلى مدينة هرر على رأسها الشيخ (أبادير) الذي جعل من هرر قاعدة لنشر الإسلام في الحبشة والصومال[53]، كما وصلت إلى ساحل الصومال الشمالي جماعة تعود في نسبها إلى (عقيل بن أبي طالب) واستقرت في (زيلع) حتى ارتفعت مكانتها وظهرت كمجموعة دول أُطلق عليها دول الطراز الإسلامي في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي[54].

وفي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وصل إلى الصومال جماعة من (حضرموت) تتكون من (44 شيخاً) يرغبون بالدعوة إلى الإسلام هناك واستقروا في مدينة (بربرة) بينما تمكن أحدهم وهو الشيخ (أبو زرباي) من الوصول إلى مدينة (هرر) سنة (835هـ/1432م) وأقام بها وبنى المساجد ودعا للإسلام هناك[55].

ثالثاً : أثر العمارة الإسلامية في الساحل الشرقي الإفريقي :

كان لاستقرار التجار والمهاجرين في الساحل الشرقي دور كبير في نقل الإسلام ومؤثراته في كافة مجالات الحياة ولا سيما في المجال العمراني والذي ظهر أثره في المسجد كونه مكان العبادة الذي يحتاج إليه المسلم أينما حل وفي أي أرض يكون ، فكانوا يؤدون صلاتهم في بادئ الأمر في دورهم أو في أماكن عملهم في السوق، إلا أن الأمر اختلف حينما ازداد عدد الداخلين في الإسلام فبرزت الحاجة إلى بناء المسجد[56]، وقد حمل المسلمون معهم كل تصوراتهم عن أساليب اختيار مكان المسجد وطريقة بنائه وما إلى ذلك، إذ إن بناء المدينة الإسلامية له شروط ينفرد بها عن المدن الأخرى[57]، إلا أن ذلك لم يتحقق إلا بعد اكتمال وصولهم وبأعداد كبيرة، لأن المدن التي وصلها المسلمون كانت بسيطة، كما أن القرى في مدن الساحل كانت صغيرة، إذ كان المصلون يجتمعون تحت ظل شجرة كبيرة ويقيمون صلاتهم تحتها، وفي مساء الجمعة يلتقون هناك لحفظ القرآن الكريم ودراسة السنة النبوية[58]، فضلاً عن كون المساجد الموجودة في بعض المدن صغيرة جداً ، فقد شاهد الشيرازيون المهاجرون إلى مدينة كلوة (Kilwa) سنة 365هـ/ 975م عدداً من المسلمين الذين سبقوهم بالوصول إلى المدينة، وقد بنوا لهم مسجداً صغيراً في أطرافها[59].

لقد توضحت صورة المدينة الإسلامية منذ هجرة الرسول محمد (إلى المدينة المنورة وإعلان الدولة ، إذ انفردت تلك المدينة بسمات ميزتها عن المدن الوثنية أو النصرانية أو اليهودية ، وكان من بين تلك الأمور المميزة وجود المسجد في المدينة والذي دفع الرسول الكريم ﷺ وحال وصوله إليها في أن يفكر في اختيار مكان مناسب لبنائه يستطيع جميع سكان المدينة من الوصول إليه ، ولذلك السبب كان اختياره في وسط المدينة تقريباً[60]، ثم أمر بنقل سوق يثرب القديم إلى جوار المسجد من الجهة الغربية ليكونا اللبنة المركزية للمدينة الإسلامية[61]. ونتيجة لنجاح ذلك الأسلوب في اختيار مكان المسجد فقد استمر عليه الصحابة والتابعين ولاسيما عند بناء المدن الجديدة كالفسطاط والقيروان والكوفة[62].

وبعد اتساع المدينة الإسلامية وبناء أكثر من مسجد فيها لترامي أطرافها صار من

الضروري أن يكون المسجد الذي يُبنى في وسط المدينة مسجداً جامعاً تُقام به صلاة الجمعة في حين تُبنى في أطراف المدن مساجد أخرى صغيرة[63]، كما أن اتساع المدينة فرض على مخططيها التخلي عن توسيط المسجد وجعل مكانه قريبة من السوق سواء كان السوق وسط المدينة أم في أطرافها ، وهو ما حصل في سامراء حينما بُني المسجد في الجانب الشمالي من المدينة[64].

وذلك الأمر يُقاس على إفريقيا أيضاً فباتساع المدن الإسلامية على الساحل وازدياد عدد المسلمين أزداد عدد المساجد ، كما اتسعت مساحة الأرض المبنية عليها تلك المساجد ولاسيما الجامعة منها ، كجامع مدينة كلوة[65] (Kilwa) الذي كان يتسع لمئات المصلين ، وهو واسع جداً بالقياس إلى المسجد القريب منه والذي لا يتسع لأكثر من ثلاثين مصلياً فقط[66]، كما أن وجود ثمانية عشر عموداً داخل مسجد مدينة مليندى[67] دليل آخر على اتساعه[68]، وفي مدينة انجوانا (Unguona) الواقعة جنوب لامو (Lamu) [69]، هناك مسجدان كبيران يشغلان مساحة خمسين فداناً[70]. ويبدو أن المساحة الكبيرة التي كانت تُبنى عليها المساجد على الساحل حفزت الكثير من المؤرخين المعاصرين للمبالغة في تلك المساحة. لأن حاصل ضرب مساحة الفدان الواحد في ما يعادله بالنظام المتري في العصور الوسطى كبير جداً [71]. ولم تقتصر سعة المسجد على مساحته بل تعدته، ففي نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بُني جامع في مدينة كيسماني مافيا[72]، ذو الطابقين[73]. كما أن منطقة الحبشة كانت تمتاز بوجود مساجد جامعة تُقام فيها الصلوات المفروضة وصلاة الجمعة ولاسيما في بلاد الزيلع[74].

أما فيما يتعلق بمواد البناء فقد كانت تتكون من مواد بسيطة كاللبن المثبت بواسطة الطين، أو الخشب بحكم وجوده بكثرة في إفريقيا والذي استخدم في بناء الدور والمساجد ، ففي مدينة منبسا[75] كان البناء بالخشب[76] .إلا أن تلك المواد لم تبق على حالها بل تطورت بمرور الزمن ووصول عدد من المهاجرين ذوي الخبرة في مجال البناء ، إذ حمل كل مهاجر فكرة عن البناء تتماشى ورؤيته عن منطقة سكناه السابقة ، فمنهم من جاء مهاجراً من عُمان[77]، ومنهم من جاء مهاجراً من اليمن[78]، ومنهم من جاء من منطقة الإحساء[79].

وقد تداخل ذلك الخليط من المهاجرين مع ما يحمله سكان المنطقة الأفارقة من أفكار ليطوروا مواد وطرائق البناء في النهاية، فحل الحجر محل الخشب واللبن، ودخلت مواد أخرى في البناء[80]، كاستخدام حجر المرجان في تكوين بلاطات كبيرة مربعة الشكل يبلغ طول

ضلعها من 25 إلى 30سم ويتم تثبيتها بمونة الجير الناجم عن حرق حجر المرجان[81]. ومع بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي استخدمت الأحجار المنحوتة ذات الأحجام المتماثلة تقريباً والتي يتم تثبيتها بمادة الملاط[82]، مما يسهل عملية البناء[83].

ومن جانب آخر فقد انتقلت إلى الساحل الشرقي الكتابة على الجدران، من خلال تثبيت نص تذكاري يتضمن تاريخ إنشاء المكان وكتابة اسم الشخص الذي أنفق على بنائه، أو الملك (السلطان) الذي تم في عهده البناء، ففي أحد مساجد مدينة زنجبار[84]، تم تثبيت لوحة على واجهة المسجد تُشير إلى سنة بنائه (500هـ/1107م)[85]، كما تم تثبيت لوحة أخرى داخل المسجد على أحد أعمدة القبلة وكُتب عليها: ((هذا ما أمر به الشيخ العظيم وصاحب المقام العالي أبو عمران موسى بن الحسن بن محمد الذي ندعو الله أن يمنحه عمراً طويلاً ويجعله منتصراً على أعدائه يوم الأحد من شهر ذي الحجة سنة 500هـ والتي تطابق سنة 1107م)) [86].

كما وجدت نقوش عديدة على محاريب المساجد، ففي مسجد مدينة كيز مكازي (Kizimkazi) بزنجبار والمُشيد سنة 501هـ/1107م كُتب على الجهة اليمنى للمحراب ((أقم الصلاة لدلوك الفجر)) وفي الوسط ((وقل ربي أدخلني مقاماً محموداً)) أما على يسار المحراب فمكتوب اسم منشئ الجامع وتاريخ تشييده[87]، ووجدت نقوش على أبواب وجدران مساجد أخرى كالجامع الكبير في مدينة مقديشو (Makdishow)، والذي كُتب عليه بخط الثلث ثُبت فيها تاريخ إنشائه في أول محرم سنة 636هـ/1238م، وعلى مسجد آخر في المدينة كتابة تدل على أن إنشائه تم على يد الشيرازيين[88] في أواخر شعبان سنة 667هـ/1268م وهو مسجد الأركان الأربع ، ونُقش على جدار المسجد الثالث في المدينة أسم مؤسسه، وهو فخر الدين، في أعلى المحراب[89].

لقد تداخلت بعض أساليب البناء المحلية الأفريقية مع العمارة الإسلامية، إذ وجد عند الباب الشمالي للمسجد الجامع في مدينة غيدى[90] (Gedi)، سنان رمح أسود مثبتة في أحدى أعمدة الباب[91]. وقد دفع ذلك الأمر للقول بأن سكان الساحل قد طوروا حضارة خاصة بهم، يمكن أن نعرفها بأنها حضارة سواحلية قديمة، ويتضح ذلك من خلال استخدامهم لمواد ونقوش ذات طابع إفريقي كاستخدام عظام أسماك الرنكة[92]، في زخرفة المساجد في مدينة كلوة (Kilwa)، وكذلك الحفر على الصخور المرجانية والنقش بشكل جميل لاستخدامها في تزيين محاريب المساجد[93].

في حين يرى آخرون أن جميع تلك النقوش والزخارف كانت ذات طابع إسلامي هندي يخلو

من رسوم الحيوانات والأشخاص لاعتبارات دينية[94]. إلا أن أغلب النقوش كانت مطعمة بالخط الكوفي، كالتي وجدت على محراب وقبة مسجد كيزمكازي (Kizimkazi) في زنجبار [95] ولذلك السبب نستطيع القول بأن العمارة ولا سيما على الساحل، هي كاللغة سواحلية خليطة بين عرب شبه الجزيرة العربية وشيراز والقادمين من مدن جنوب شرق أسيا، إلا أن النقوش والكتابة والعمارة العربية كانت هي السائدة بسبب كثرة المهاجرين والتجار العرب إلى المنطقة وبينهم عدد من البنائين الحرفيين القادمين من العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية[96].

وفيما يتعلق بأبواب ونوافذ المساجد، فهي كأبواب ونوافذ الدور، مصنوعة من الخشب المنقوش بنقوش جميلة مطعمة بالمعدن[97]، لتصبح في بعض المناطق بمرور الزمن مصنوعة من الحديد بحكم وجود الحديد في مناطق الساحل وبالذات في مدينة منبسا[98].

ومن بين العناصر المعمارية التي تم تطويرها في المسجد، المحراب[99] إذ تحول من شكله البسيط المسطح في بداية الأمر ليصبح مجوفاً، كما أن التقوسُ الموجود فيه قد أضيف إليه فيما بعد، خوفاً من تشبهه بمحاريب الكنائس، إذ لم يُبنَ المحراب المجوف، إلا عندما جدد عمر بن عبد العزيز مسجد الرسول محمد (بالمدينة المنورة في عهد ابن عمه الخليفة الوليد بن عبد الملك، رغم وجوده من قبل في قبة الصخرة[100]. كما أن هناك من لا يحبذ استخدام المحاريب أصلاً بسبب عدم دقة تحديدها وكونها قد تنحرف في أثناء البناء فلا تشير إلى الموقع الحقيقي للقبلة، ويُعلق الزركشي على ذلك بقوله:((من الواضح أن كثيراً من هذه المحاريب إنما وضعها من ليس له معرفة بهذا الفن ولا حرر فيه التحرير التام، فالوجه القطع بجواز الاجتهاد فيه يمنة ويسرة))[101].

إلا أن ذلك الأمر لم يمنع من تطوير المحراب، إذ تحولت مواد بنائه إلى الحجر بعد أن كانت من الخشب[102]، وليصبح ذو أشكال هندسية رائعة تحوي نقوش وعبارات فنية وبخطوط مختلفة، كما ظهرت العُقد في بناء المحراب وهو ما بدا جلياً في محاريب مساجد مدن الساحل الشرقي، ويبدو أن استخدام أسلوب بناء العُقد جاء إلى الساحل مع المسلمين القادمين من مدن شيراز ومدن إسلامية أخرى[103]، في حين نلاحظ أن المحراب الموجود في مساجد مدينة كلوة (Kilwa) قد تأثر بالفن المعماري النبهاني، إذ بُنيَ المحراب بانحناءة مضلعة مغطاة بالخزف الأزرق المزجج[104]، وقد وجد في تلك المدينة مسجد كبير فيه محرابين مبنيين من الحجر[105].

وقد تم إضافة الخزف الصيني إلى بعض محاريب المساجد كمحراب مسجد مدينة مافيا

(Mafia) الذي شوهد على جداره أطباق من الخزف الصيني[106]، ويبدو أن هذا النوع من الخزف قد وصل إلى المنطقة من خلال العلاقات القائمة بين الصين وبعض مدن الساحل كمقديشو[107] (Makdishow). كما شهد المحراب في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي تطوراً آخر ليصبح مطلياً بالفخار الملون باللون الأزرق، كمحراب المسجد الجامع في مدينة غيدي[108] (Gedi). وحُفرت الصخور المرجانية ونُقشت لتستخدم في تزيين محاريب المساجد[109].

وشملت عمارة المسجد تحول سقف المسجد من السقف المسطح إلى السقف المقبب والذي ظهر جلياً في مساجد مدينة كلوة (Kilwa) الذي احتوى على عدد من القباب المستندة مع السقف على حوالي أربعين عموداً مرتبة بأربعة صفوف، وبذلك ينقسم المسجد إلى مربعات يعلو كل منها قبة[110] إلا أننا نلاحظ أن سطح المسجد الجامع في مدينة كلوة (Kilwa)، والمسمى بالجامع العظيم لسعته كان مسطحاً على العكس من بقية المساجد التي تمتاز أسطحها بأنها دائرية، وكان ذلك الجامع قد أعيد بناؤه أكثر من مرة ليستقر في عهد السلطان سليمان بن الملك العادل (835-856هـ/1431-1452م) ، وينقسم البناء إلى قسمين الأول شمالي ذو سقف مسطح، والثاني جنوبي ويتميز سطحه بوجود منارات وقبب زرقاء، وإلى الشرق منه يقع ممر فيه منارة أسطوانية كبيرة[111]. كما احتوى الجامع الكبير في مدينة مقديشو (Makdishow) على منارة اسطوانية[112].

ويؤكد استخدام المنارة الاسطوانية في مساجد السودان الشرقي على تأثر المنطقة بالعمارة الإسلامية في العراق والجزيرة العربية، إذ إن مآذن تلك المناطق تكاد تنفرد بكونها اسطوانية الشكل على خلاف مآذن بلاد الشام ذات البدن المربع، وكذلك مآذن المغرب الإسلامي المربعة أو المخروطية[113].

وأسهم التطور العمراني بمرور الزمن وقيام العديد من الدول والممالك الإسلامية ولا سيما في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي في تحول شكل القباب في المساجد لتصبح كروية أو مدببة، كما أصبحت الأسقف في بعض المساجد والمنازل نصف اسطوانية، وقد ظهرت تلك التغييرات على نحو واضح في مدينة كلو (Kilwa) أكثر من غيرها لكونها قد سيطرت في تلك الحقبة على أغلب مدن الساحل[114].

ولم يقتصر تأثر العمارة الإسلامية في الساحل الشرقي لإفريقيا بالمشرق بل تعداه ليشمل مصر والمغرب الإسلامي، إذ إن القباب النصف كروية ذات المقطع المدبب كانت موجودة أصلاً

في جامع أحمد بن طولون في القاهرة، وكذلك في جامع قرطبة[115]. ونستطيع من خلال ما سبق نفي القول بأن ((العمارة السواحلية بهيكلها وبأسلوبها في البناء الديني والمدني وتقنيات البناء لديها وقوالبها من الأحجار المنحوتة وبنقوشها الزخرفية قد حافظت خلال قرون على التقاليد الأصلية التي كانت تميزها عن تلك العمارة الخاصة بالجزيرة العربية وبلاد فارس والبلاد الإسلامية الأخرى))[116].

ومن الأجزاء الأخرى التي تمت إضافتها إلى داخل المسجد، المقصورة، التي لم تكن معروفة في صدر الإسلام والتي لم يؤسس لها الرسول محمد ﷺ وخلفائه من بعده بسبب وجودها في كنائس النصارى ومعابد اليهود إذ كانت تستخدم لصلاة الخواص[117]. وقد أشار القرطبي إلى أنه ((لا يجوز اتخاذها ولا يصلى فيها لتفريقها الصفوف، وحيلولتها التمكن من المشاهدة))[118]. إلا أن مقتل الخليفتين عمر وعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا داخل المسجد، شجع معاوية بن أبي سفيان على اتخاذ مقصورة له داخل المسجد ليصلي فيها بمعزل عن الناس[119]. وكانت المقصورة في بادئ الأمر تُصنع من الخشب[120]، على شكل حواجز تحيط بجزء صغير من المسجد عند جدار القبلة ويدخل إليها أما من باب خاص ملاصق لجدار القبلة، أو من باب في صحن المسجد نفسه[121]، ثم تطورت بعد ذلك لتصبح غرفاً مبنية من الحجر قائمة بذاتها[122].

وفي شرق إفريقيا شاهد الرحالة ابن بطوطة المقصورة في جامع مدينة مقديشو (Makdishow) الكبير، وفي جامع كلوة (Kilwa) الكبير[123]، وكانت مقببة وواسعة [124]، كما وجدت في بعض المساجد غرف مخصصة للاستقبال، فضلاً عن وجود مبان خاصة لسكنى الغرباء الوافدين إلى المدينة كتلك الموجودة في جامع تكوا (Tkowa) في أرخبيل لامو (Lamu)، فضلاً عن غرف الإمام وخادم الجامع[125].

وفضلاً عن ذلك فقد تم تطوير القناديل (الثريات) المستخدمة لإنارة الأماكن المظلمة في المسجد، والتي لم تكن جديدة عليه فأول استخدام لها كان بمسجد الرسول (في سنة 9هـ / 630م من قبل الصحابي تميم الداري[126]. وبمرور الزمن استخدمت القناديل الزجاجية الملونة الخضراء والزرقاء والتي تشابه تلك الموجودة في مساجد مصر في العصور الوسطى[127]، مما يدل على الحضارة المتطورة[128].

ومن الأجزاء الأخرى التي وجدت في المسجد الميضأة - أي مكان الوضوء - والتي أُقحمت إلى المسجد بعد أن كانت تُعد مشينة للمسجد ولقدسيته، وقد شكل بناء الميضأة في الماضي مشكلة كبيرة بالنسبة للمسجد، إذ لم يكن اختيار مكان بنائها سهلاً وذلك لحاجتها للماء

الجاري والذي لم يكن توفيره عملاً سهلاً، فالمعماري الذي يبني المسجد يُفكر في كيفية تصريف الماء الزائد من الميضأة، خشية أن يدخل المسجد ويؤذي المصلين، ولذلك تم بناؤها في طرف المسجد[129].

وبدت الميضأة في مساجد السودان الشرقي بسيطة في بادئ الأمر، ففي باب كل مسجد ـ ولاسيما في مدن الساحل ـ كان هناك بئر أو بئران يستخدمان لسحب الماء، للوضوء والشرب وتنظيف المسجد، ولم تكن تلك الآبار عميقة، حيث يستطيع المصلي رفع الماء بواسطة قدح مربوط بعصا، ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وتوضأ، ثم يتوجه نحو باب المسجد ليجد حصيرة خشنة يمسح بها رجليه قبل الدخول[130]. ويبدو أن الأفارقة كانوا من الملتزمين في مسألة إبعاد الميضأة عن مكان الصلاة فنلاحظ وجودها على مسافة ليست بالقريبة غرب الجامع الكبير في مدينة كلوة (Kilwa)، وتقترب من بئر ماء تحيط به غرفة ذات قبو يرتفع إلى حوالي تسعة أقدام[131].

وفي بعض المساجد تُخصص غرفة تستخدم كدهليز يوصل إلى الجامع، وقد يستخدم هذا المدخل من قبل أفراد الطبقة العليا لكونه يقع في جهة المسجد المقابلة للبئر، إذ يتركون أحذيتهم في ذلك الدهليز قبل الوصول إلى المكان المخصص للصلاة في المسجد[132]، وكان يُطلق على مكان الوضوء في السودان الشرقي اسم المبركة[133]. ويوجد في ساحل تنجانيقا (Tanganyika) آثار مسجدين يعودان إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويحوي أحدهما وهو الكبير ميضأة كبيرة[134].

ومن جانب آخر فقد أُدخلت إلى بعض مساجد الساحل الشرقي فكرة دفن الرجال الصالحين أو سلاطين المنطقة وزعمائها داخل الصحن الخارجي للمسجد، وربما في بعض الأحيان في غرفة داخل المسجد، وفي مسجد مدينة مقديشو (Makdishow) شاهد الرحالة ابن بطوطة قبر والد شيخ المدينة [135]، وقد حملت الكتابات التاريخية التي وجدت في مقديشو (Makdishow) أسماء المدفونين في بعض الجوامع وتواريخ بنائها[136]، كما ضم المسجد الجامع في مدينة غيدى (Gedi)عدداً من القبور[137].

وقد امتاز الساحل الشرقي ولاسيما المدن الساحلية بكثرة المساجد المقامة على أرضه ولاسيما في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ففي مدينة كلوة (Kilwa) وحدها يوجد نحو ثلاثمائة مسجد، وهو عدد كبير بالقياس إلى عدد مساجد مدينة غيدى (Gedi) البالغة ستة مساجد، ومسجد جامع واحد[138]. وفي حوالي سنة 900هـ/1500م وصلت إلى مدينة براوة (Barawa) الساحلية جماعة من قبيلة طي قادمة من

شبه الجزيرة العربية لتعمل حال وصولها مع من سبقها من المسلمين على عمارة عدد كبير من المساجد ونشر تعاليم الإسلام في المناطق المجاورة[139]. وقد سميت بعض المساجد بأسماء الخلفاء الراشدين كمسجد أبو بكر ومسجد عمر ومسجد عثمان، ومسجد علي رضي الله عنهم جميعاً في مدينة براوة (Barawa)[140]، والأمر نفسه ينطبق على مدينة هرر (Harrar) ذات المساجد الكثيرة[141].

وعلى الرغم من إشارة المصادر والمراجع إلى الكثير من المساجد في السودان الشرقي والتي تقع على الساحل، إلا أن ممالك الحبشة المسلمة ضمت الكثير من المساجد الصغيرة والجامعة [142]، وقد أسهم نشاط التجار العرب وكذلك القادمين للعمل في المناجم الموجودة في إقليم البجة الشمالية في التأثير في رؤساء القبائل، مما مكنهم من بناء المساجد كتلك الموجودة في مدينة هجر (Hajar) وصيحة (Sayha) في الحبشة[143].

ولم يقتصر بناء المساجد على ممالك الحبشة المسلمة، بل وجد بعض منها في داخل الهضبة المسيحية بسبب توغل المسلمين داخلها، ولا سيما في السنوات التي نصح فيها وزير المستنصر بالله (بدر الجمالي)[144] مطران الحبشة الجديد، بالاعتناء بالمسلمين والسماح لهم ببناء المساجد، فحينما وصل المطران إلى الحبشة عمل على تنفيذ ما وعد به الوزير فشجع على البناء، مما جعل المسلمون يبنون سبعة مساجد[145].

ونستطيع أن نستنتج من خلال ما سبق أن الساحل الشرقي قد تأثر بوسائل وطرائق البناء الموجودة في بلاد الإسلام الأخرى بواسطة التجار والمهاجرين، والنتيجة الأخرى التي يمكن التوصل إليها هي أن أغلب طرز البناء كانت عربية المنشأ رغم وجود بعض الطرز غير العربية كتلك القادمة من الصين أو الهند أو ذات الطابع الإفريقي المحلي، وما يدفعنا إلى ذلك هو كثرة النقوش بالخط الكوفي، واستخدام أساليب البناء المتبعة في المدن العربية كالقاهرة وبغداد والقيروان، وغيرها.

كما يُلاحظ من خلال ما سبق أن أغلب المساجد الكبيرة على الساحل قد بُنيت في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين وهي المدة التي أصبحت فيها مدن الساحل في أوج قوتها وتطورها.

رابعاً : الهجوم البرتغالي :

بعد نجاح فاسكودي جاما في رحلته الاستكشافية ووصوله إلى المياه الشرقية عاد إلى البرتغال ليعطي الضوء الأخضر للبدء بتنفيذ الأهداف الصليبية في إفريقيا، فكانت المهمة

الأولى احتلال الممالك الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا وإقامة قاعدة عسكرية وتجارية هناك [146]، ويكون الغرض منها القضاء على تلك الممالك وفصلها عن العالم الإسلامي ثم القضاء على تجارة العرب في المحيط الهندي من خلال إغلاق مدخل البحر الأحمر بوجه المراكب التي تقصده والتمهيد لإقامة امبراطورية برتغالية في المحيط الهندي تسيطر على التجارة وتنشر المسيحية في دولة لتطوق المسلمين وتهاجمهم من الشمال والجنوب[147].

وإذا كانت الحملات الصليبية قد فشلت في ضرب العالم الإسلامي من قبل، فقد نجح البرتغاليون في ضرب المسلمين من الخلف حينما التفوا حول إفريقيا وبدأوا باحتلالها منذ عام (903 هـ/1498م) وتعاونوا مع الأحباش المسيحيين في عملهم ذاك، كما أن البرتغاليين لم يكونوا لوحدهم بل ساعدهم على ذلك النصارى من بقية الدول الأوربية، وهم شبان انضموا إلى جماعة (رهبان المسيح) التي تأسست سنة (719هـ / 1319م) [148].

وفي عام (901 هـ/ 1495م) بدأت حملات البرتغاليين إلى الشرق الأفريقي حينما أمر ملك البرتغال آنذاك (مانويل الأول) بتجهيز حملة بحرية بقيادة (بيدرو الفاريزكابرال) مكونة من ثلاث عشرة سفينة كلفت بإقامة وكالة تجارية في سفالة[149].

وفي ضوء تلك الحملة فقد وصلت إلى المنطقة أعداد من المبشرين لنشر النصرانية بين السكان، وقد وصلت حملتهم في سنة (906 هـ / 1500م) إلى سفالة مدعين أنهم تجاراً إلا أن السكان كشفوا الأمر ورفضوا استقبالهم مما أضطرهم إلى ترك الجزيرة والذهاب نحو (كلوة)، التي صادفوا قبل الوصول إليها سفينتين للعرب المسلمين عائدتين من (ملندة) نحو (سفالة) فهاجموها وأسروها وقد ألقى أغلب الركاب أنفسهم في البحر خوفاً من الأسر[150].

وكان (داجاما) كلما واجهته سفينة إسلامية وهو يسير بموازاة ساحل شرق إفريقيا يقوم بإلقاء القبض عليها وإفراغها من محتوياتها ثم يضع ركابها في مكان واحد ويحرق السفينة بمن فيها، وفي سنة (903 هـ/1497م)[151] وصل (داجاما) إلى مدينة (كلوة) فعرض على صاحبها (إبراهيم) الاستسلام مقابل منحه الذهب إلا أنه رفض ذلك[152].

لقد أفصح البرتغاليون عن أغراضهم في مهاجمة المسلمين، ويشير الكاتب الغربي جيان إلى أن الغرض من حضور (فاسكودي جاما) إلى المنطقة يتمثل في (مهاجمة الصليب الهلال في أقصى بقاع الأرض)، أو أن تحارب روما مكة في مكان يبعد بأكثر من ألف وخمسمائة فرسخ عن الميادين المألوفة لاقتتالهما، والغرض من تلك الحملات هو إحاطة الإسلام وجعله بين نارين وتجفيف منابع ثروته والقضاء على شوكة العرب[153]، لذلك أقدمت السفن البرتغالية

على قطع الطريق أمام أي مساعدة تُقدم للأفارقة فبدأوا بقصف الساحل الإفريقي من الشمال إلى الجنوب بدءاً من مدينة (مقديشو) فهدمت عدداً كبيراً من المنازل وأغرقت سفنها، ثم رست في (ملندة) سنة 903هـ / 1498 م[154].

وحينما رفض حاكم (كلوة) استقبال البرتغاليين توجهوا نحو (ملندة) التي استقبلتهم على نحو مختلف عن بقية مدن الساحل مرحبة بقدومهم، ويبدو أن السبب في ذلك هو عدائها مع (منبسة) مما شجعها على التحالف مع الغزاة[155]، الذين سلموا شيخها رسالة من ملك البرتغال يطلب فيها مساعدته، فاستجاب شيخ ملندة لذلك النداء وقدم الماء واللحوم والفواكه للأسطول البرتغالي، وزودهم بدليل يرشدهم إلى مدينة (كاليكوت) بعد أن ترك قائد الأسطول (كابرال) اثنين من مساعديه في (ملندة) لغرض التوجه نحو الحبشة وجمع المعلومات عنها وعن عادات وتقاليد أهلها[156].

وبعد ذلك وصلت القوات البرتغالية إلى (كاليكوت) التي كانت تمتلك علاقات تجارية جيدة مع العرب، فتجارها يمتلكون مستودعات لبضائعهم في مُدن القاهرة والإسكندرية وفاس، فضلاً عن ذلك فقد كان للتجار العرب مكانة كبيرة لدى (السامري) حاكم (كاليوكوت)، فهو لا يريد أن يخسر تلك العلاقة وما تجنيه من أرباح، وفي الوقت نفسه قرر التعامل بذكاء مع البرتغاليين حينما استقبلهم في بلاده إلا أنهم رفضوا النزول إلا بعد أن يرسل لهم عدداً من أهل البلاد كرهائن قبل نزولهم فوافق، وسمح لهم بالتجارة على أراضيه لكنهم أصروا على إقامة مركز تجاري برتغالي في كاليوكوت وإنزال خمسة من الآباء الفرنسسكان للتبشير هناك كما اشترطوا على السامري أن يطرد العرب من بلاده، إلا أنه رفض وحصل قتال بين الجانبين أسفر عن مقتل قرابة الخمسين برتغالياً مما اضطرهم للانسحاب إلى الساحل فقصفت المدينة بالمدافع، وأرسل (السامري) حوالي الثمانين سفينة لملاحقتهم فاضطروا للانسحاب والابتعاد عن كاليكوت[157].

وأمام ذلك قرر البرتغاليون الانتقام من السامري حاكم كاليكوت من خلال التحالف مع أعدائه حكام (كوشن) و (كنانور) في ساحل الهند وأصبح لهم أول مركزين تجاريين في بلاد الهند[158]، فضلاً عن ذلك فقد أقدم البرتغاليون على التصدي لكل سفينة عربية أو مسلمة في المحيط الهندي، فوضعوا عدداً من سفنهم في مدخل البحر الأحمر ليمنعوا السفن المسلمة من العبور، كما أصدروا بطاقات عبور للسفن الحليفة لهم ليتمكنوا من معرفة السفن العربية الإسلامية ويأخذوا ما فيها ويقتلوا ركابها ويغرقوها[159].

وفي عام 909 هـ/ 1503م أرسل ملك البرتغال (عمانويل) (فاسكوديجاما) إلى بلاد الهند مرة أخرى على رأس عشر سفن، ثم اتبعها بخمس سفن أخرى بقيادة (الكومندان فيسنت سودرن) وأمرها بالطواف في بحر الهند ومحاربة السفن العربية حيث أسرت خلالها عشرين سفينة عربية محملة بالبضائع ولم تخلي سبيلها إلا بعد أن أخذ من أصحابها أتاوة كبيرة، وبعد تعيين (فرانسيسكو الميدا) قائداً للأسطول البرتغالي ونائباً لملكها في الهند سنة 910 هـ/ 1505 م كان شغله الشاغل هو القضاء على الأسطول العربي وسلطة المماليك هناك، كما فكر في التصدي للعثمانيين الذين قد يهبوا لنجدة أخوانهم في الدين، والذين احتلوا بلاد فارس وأطلوا على الخليج[160].

إلا أن الأمر الأول الذي أراد تنفيذه يتمثل في تدمير القواعد الإسلامية في شرق إفريقية والتي قد يلجأ إليها الأسطول المصري، فقرر البرتغاليون الهجوم على مدينة (كلوه) وتدميرها، وبعد قتال عنيف في شوارعها استولوا عليها وقتلوا الكثير من سكانها وسلبوا ونهبوا كل ما عثروا عليه من ذهب وفضة وعاج وحرير ونقلوه إلى سفنهم ثم أحرقوا المدينة، ثم سار إلى مدينة (الميدا) في موزنبيق وفعل بها نفس الذي فعله في (كلوه)[161].

وبعد ذلك قرر البرتغاليون العودة مجدداً لاحتلال (كاليكوت)، وحال وصول الأسطول البرتغالي إلى ساحلها خرج عدد من الصيادين لاستقبال السفن وبيع بضائعهم إلى أنهم تفاجئوا بقيام البرتغاليين بالهجوم عليهم وقتل (38) صياداً وألقوا بأجسادهم على الساحل ليرعبوا السكان[162]، ثم قام (داجاما) بقصف المدينة واستعد سكانها لمحاربة البرتغاليين من خلال تكليف قائد الأسطول في المدينة بملاحقة سفن البرتغاليين والذي نجح فعلاً بهزيمتهم، إلا أن ضعف إمكانات أسطول كاليكوت الغير مجهز بالمدافع والأسلحة النارية ووصول إمدادات برتغالية إلى المنطقة جعل النصر حليف الأسطول البرتغالي وكبد أسطول كاليكوت خسائر بشرية كبيرة أحس خلالها سكان المدينة أنه لا قبل له بمواجهة البرتغاليين فأرسل رسالة إلى المماليك في مصر لنجدته[163]. إلا أن المساعدة في تلك الفترة كانت صعبة بسبب سيطرة البرتغاليين على المياه وغلقها للمنافذ المؤدية إلى ساحل شرق أفريقيا.

وفي تلك الأثناء تحرك الأسطول البرتغالي ترك سواحل (كاليكوت) متجهاً إلى البرتغال حيث تم استبداله بأسطول آخر بقيادة (أنتونيو دي سالدنها Antonio de Saldanha) وتحرك إلى المحيط الهندي لتنفيذ مخططات أخرى في المنطقة لاسيما احتلال (زنجبار) التي ما إن وصل ميناءها حتى بدأ بأسر سفن المسلمين القادمة إليها وأخذ الأتاوة منهم، مما أثار غضب المسلمين سكان المدينة فتجمعوا لمحاربة البرتغاليين ، إلا أن ذلك سهل على البرتغاليين مسألة

قصف المجتمعين والقضاء عليهم[164]، مما اضطر شيخ زنجبار إلى الاستسلام والتعهد بدفع (مئة) مثقال من الذهب أتاوة سنوية مع عدد من رؤوس الأغنام تعبيراً عن تبعيته للبرتغال[165].

وبعد ذلك توجهت قوات (رافاسكو) إلى مدينة (منبسه) التي شاهد في طريقه إليها سفينتين - كان على متنها حاكم المدينة وشيوخها - فأستوقفهما وأسر من فيهما وأجبر حاكم منبسة على التعهد بدفع اتاوة سنوية تقدر بـ (500) مثقال من الذهب[166].

وفي سنة 912هـ / 1507م استولى البرتغاليون على مدينة (براوة) وقتلوا رجالها وسبوا نسائها وأحرقوها[167]، ثم توجهت تلك القوة لإخضاع جزيرتي سقطرة وهرمز مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي ليغلق الطريق أمام أساطيل المسلمين ويمنعها من الدخول إلى المنطقة، وحولوا مسجد سقطرة إلى كنيسة وبدء بأسر الحجاج عند مدخل البحر الحمر[168].

وفي الوقت الذي كانت الامدادت البرتغالية تصل إلى المنطقة كانت صيحات الاستغاثة تأتي من كل مكان في العالم الإسلامي، فقد أرسل (مظفر شاه بن مظفر) سلطان كجرات بالهند برسالة إلى السلطان الأشرف قانصوه الغوري يستعين به على الفرنج ويطلب منه العدد والعدة لقتالهم وإيقاف أذاهم على المسلمين، واستنجد شريف مكة وصاحب عدل وسيف الدين حاكم هرمز بسلطان مصر قانصوه الغوري الذي كان مشغولاً بالتخوف من العثمانيين، لكنه ورغم خوفه ذاك أرسل أسطولاً بقيادة (مير حسين) لمواجهة الأسطول البرتغالي[169]، الذي أصبح يسيطر على أغلب المدن الساحلية والجزر المقابلة لها والتي كانت إسلامية بالكامل لاسيما بعد أن سيطر على (موزنبيق) سنة 913هـ / 1507م وبنى على أرضها مستشفى وقلعة وكنيسة ودوراً لموظفيه وجنوده، وأصبحت موزنبيق أهم قاعدة للاستعمار البرتغالي[170].

إلا أن مدينة مقديشو كانت المدينة الوحيدة التي بقت على استقلالها وعدم تبعيتها للبرتغاليين[171]، كما أن الأسطول المصري القادم بقيادة (مير حسين) التق بسفن البرتغاليين أمام جزيرة (ديو) المواجهة للساحل الغربي لشبه القارة الهندية والتي كان حاكمها قد تحالف مع البرتغاليين ضد المسلمين لتنتهي المعركة بخسارة الأسطول المسلم سنة 915 هـ/ 1509م [172].

لقد سعى البرتغاليون بعد ذلك لتحقيق أمرين الأول استمرار مهاجمة مدن الإسلام وأملاكه، والثاني السيطرة على تجارة الساحل على نحو كامل، إلا أن عظمة الإسلام وحكمة أبنائه حالت دون تحقيق الهدفين على نحو كامل ودائم، فقد واجه البرتغاليون في المدن التي قاموا باحتلالها مقاومة عنيفة جداً من خلال الثورات التي قام بها أبناء تلك المدن لاسيما (منبسة وكلوة) فعلى الرغم من أن مدينة (منبسه) أحرقت وسلبت لخمس مرات، إلا أنها وبعد

كل مرة كانت تقف على قدميها وتعيد تشكيل المقاومة ضد الغزاة[173]، فضلاً عن ذلك فقد قرر المسلمون في مدن الساحل عدم استيراد شيء من خارج بلادهم لاسيما ما هو قادم من خلال البحر بعد سيطرة البرتغاليين عليه، فنسجوا ملابسهم من القطن الموجود في بلادهم وهكذا [174].

ترك البرتغاليون مسألة حكم المدن الواقعة في شمال الساحل الشرقي لإفريقيا لمن تحالف معهم في المنطقة، بينما أقاموا لهم قاعدة عسكرية وتجارية كبيرة في الجنوب لا سيما في موزنبيق والتي كانت تزدهر فيها تجارتي الرقيق والذهب، واضطر تجمعهم هناك الكثير من سكان مدينة (منبسة) المسلمين إلى تركها والهجرة نحو الشمال، إلا أن الأمر الذي فاجئ البرتغاليين أنه وكأنما قد ذهب المسلمون وأخذوا معهم مناجم الذهب، ويبدو أن السبب في ذلك هو أن الأفارقة كانوا يتعاملون مع المسلمين وحينما ذهبوا عنهم عادوا هم إلى الداخل الإفريقي[175].

وكان البرتغاليون يفكرون على نحو مستمر في تحقيق غايتهم الاساسية وهي إحاطة العالم الإسلامي من كل جانب والقضاء على المسلمين وإرغام المسلمين في إفريقيا على التنصر ونسيان الإسلام، فأرسلوا إلى إفريقية أعداد كبيرة من المبشرين الذين أسسوا هناك طوائف مسيحية تعمل على نشر النصرانية، وكان منهم (فرانسوا كزافييه) الذي كون طائفة لنشر المذهب الكاثوليكي وأنشأ مراكز عدة على الساحل، وطائفة ثانية ألفها (سان دومينيك) مركزها موزنبيق، وطائفة ثالثة هي (الأوجستان) ومركزها منبسة، وأخرى (الآباء اليسوعيون) الذين انتشروا في أغلب بقاع الساحل[176].

ومن الجانب العسكري حدد (البوكيرك) نائب ملك البرتغال في ساحل شرق إفريقيا والهند أهدافه في احتلال خمس نقاط رئيسة هي موزنبيق في ساحل شرق أفريقيا، وهرمز وعدن مفتاحي الخليج العربي والبحر الأحمر، وملقا في ماليزيا حالياً، وجوا في الهند[177].

استطاع البرتغاليون احتلال موزنبيق وأقاموا فيها قاعدتهم، كما سيطروا على هرمز، وحشدوا قواتهم للهجوم على عدن التي ما أن نزل على ساحلها الجند البرتغاليين حتى انهزموا أمام مقاومة العدنيين[178]، أما مدينة (جوا) فقد هاجمها البرتغاليون سنة 919هـ / 1510م وقصفوها بالمدفعية لاسيما جامعها مما أدى إلى مقتل عدد من المصلين في الجامع خلال صلاة الجمعة[179]، فجعل البرتغاليون من جوا مقراً لنائب الملك البرتغالي، ثم عزم البرتغاليون على إخضاع (ملقا) بعد أن تجمع فيها التجار المسلمين بعد إبعادهم عن كاليكوت وساحل الملبار وقد نجحوا في احتلالها سنة 917هـ / 1511م[180].

لقد تنبه البرتغاليون بعد فشلهم في احتلال عدن إلى ضرورة التحشيد وجلب سفن متخصصة في القتال في مياه البحر الأحمر، كما فكروا في ضرورة التحالف مع الأحباش لتحقيق أهدافهم في غلق المضايق، فتقدم الأسطول البرتغالي بقيادة لوب سواريز سنة (926هـ / 1517م) إلى ميناء زيلع واستولى عليه وحرقه، وفي الوقت نفسه كانت حملة ملك الحبشة (لبنادنقل) على مملكة عدل الإسلامية قد حققت أهدافها من خلال احتلال المدينة وحرق القلاع بمن فيها، وهرب سكانها إلى الجبال لينجو بأنفسهم، إلا أن الكثير منهم هلك من الجوع والعطش، وفي الوقت نفسه توجه (سالدونها) Saldonha بالأسطول البرتغالي نحو مدينة بربرة فنهبها ثم أحرقها سنة (924هـ/1518م)، ثم أرسل ملك البرتغال حملة جديدة بقيادة (رودريجو دي ليما Rodrigo de Lima) لتساعد ملك الحبشة على القضاء على المسلمين في الحبشة، فتوجهت الحملة نحو مدينة (مصرع) واحتلتها وحولت مسجدها إلى كنيسة ووصلت إلى بلاط ملك الحبشة سنة (926 هـ/1520م) وبقت هناك حتى استقرت الأوضاع لصالح مملكة الحبشة ضد المسلمين، فانسحبت القوات البرتغالية من الحبشة سنة (932هـ/1526م)[181].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل فتحت البرتغال الطريق أمام بقية الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا للتدخل في شرق إفريقيا، فضلاً عن ذلك فإن المسلمين في الحبشة لم يستكينوا للأمر الواقع ويرضوا بالتحالف الصليبي الحبشي الذي دمر بلادهم، فخرج من بين صفوف المسلمين رجال جمعوا شمل الأمة ووقفوا ضد الغزاة في حركة جهاد كبيرة.

خامساً: الدور العماني في ساحل شرق إفريقيا:

أسهم العُمانيون بدور فاعل في شرق إفريقيا ولاسيما ساحله منذ القرن الأول الهجري، ففي النصف الثاني من ذلك القرن هاجر الأخوان الأميران سليمان وسعيد ابنا عباد بن عبد الجلندي إلى ساحل شرق إفريقيا سنة (81هـ/700م) نتيجة الصراع الذي حصل بين عُمان الطامحة بالاستقلال والدولة الأموية الرافضة لذلك الطموح والراغبة في إخضاع جميع الأقاليم لها، فوجهت الدولة الأموية عاملها الحجاج بن يوسف الثقفي للدفع بالجيش نحو عُمان، وقد حقق ذلك الجيش الانتصار بسبب تفوقه العددي والتسليحي مما اضطر الأميران إلى الهروب نحو الساحل الإفريقي لاسيما إلى أرخبيل (لامو) في كينيا الحالية[182]. ويبدو أن توجه الأميرين نحو الساحل الأفريقي دون غيره من الأماكن جاء نتيجة العلاقات القديمة للعُمانيين مع ذلك الساحل.

لقد مثل وصول آل الجلندي إلى الساحل بداية لوصول بقية أبناء عُمان إلى المنطقة فضلاً

عن توافد الكثير من التجار الذين عملوا على نحو كبير على نشر الإسلام بين السكان الأفارقة من خلال ما تم الإشارة إليه في التجارة كوسيلة من وسائل انتشار الإسلام، فتصرفات التاجر وأخلاقه كانت سبباً في حب الأفارقة له وتقريبهم منه[183]، وبالتالي انتشار الإسلام على جميع مدن الساحل وهو ما أكده المؤرخ المسعودي بقوله عن مدينة (سفالة) (إن سفالة تقع في أقاصي بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العُمانيين)[184]، كما أشار المسعودي خلال رحلته إلى الساحل أن ربابة السفن كانوا من العُمانيين[185].

لقد توالت الهجرات العُمانية إلى ساحل شرق إفريقيا حتى بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حينما وصلت قبيلة النباهنة يقودها سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني إلى جزيرة باتا إحدى جزر أرخبيل لامو، وهي الفترة التي بدأت قبيلة النباهنة بحكم عُمان سنة (500هـ/1106م) وحتى قيام دولة اليعاربة سنة (1024هـ/1615م)[186].

وحال وصول الأمير سليمان بن سليمان إلى باتا تزوج من ابنة حاكم الجزيرة فنقل سليمان بلاطه من عُمان إلى الساحل الشرقي لإفريقيا[187]، كما شمل الوجود العُماني على الساحل أغلب مدنه كممباسا التي وصل إليها عائلات من قبيلة المناذرة العُمانية وقبيلة المزاريع[188].

لعب العُمانيون دوراً كبيراً في مساندة الأفارقة في التصدي للغزو البرتغالي، فقد عمل العُمانيون على نحو مزدوج ضد البرتغاليين، فوقفوا بوجههم على الأرض العُمانية مدة قاربت المائة والخمسين عاماً لاسيما في ظل الدولة اليعربية، كما تمكنوا من تصفية وجودهم في الساحل الشرقي لإفريقيا ، فكانت الفترة المحصورة بين (1498-1730م) فترة صراع بين البرتغاليين وأئمة عُمان، فحالما استنجد الأفارقة بأخوانهم العُمانيين للتصدي للإستعمار البرتغالي لبى اليعاربة ذلك النداء وحرروا القلعة التي كان قد سماها البرتغاليون (بقلعة يسوع) في ممباسا التي كلفهم تحريرها جهداً كبيراً لكنه وضع حداً للتفوق البرتغالي في المنطقة، فقد تم تحرير القلعة بعد حصار دام حوالي السنتين حتى تحريرها سنة (1698م)[189].

وكان الحاكم العُماني الإمام (سلطان يوسف بن سيف اليعربي) قد استجاب للاستغاثة التي أطلقها سكان ممباسا فأرسل حملة بحرية تألفت من سبع سُفن وعشرة زوارق وحوالي ثلاثة آلاف جندي لإنقاذ المدينة[190] وكانت تلك العملية بمثابة بداية التطهير للساحل الشرقي لاسيما بعد أن تمت عملية تطهير الساحل العُماني من البرتغاليين وتحويل السيد (سعيد بن سلطان البوسعيدي 1219-1273هـ/1804-1856م) لعاصمة حكمه إلى مدينة زنجبار سنة

(1248هـ/1832م) وعمل على توحيد معظم مدن الساحل ووضعها تحت حكمه حتى قيل (أنه إذا ضرب السيد سعيد طبله في زنجبار رقصت عليه كل غابات إفريقيا)[191].

فضلاً عن ذلك فقد أدى استقرار العُمانيين في زنجار إلى وصول التجربة العُمانية المنتمية لحضارة أوسع هي الحضارة العربية الإسلامية إلى الساحل، فقد تم الاعتناء بالزراعة وجُلبت أشجار القرنفل إلى زنجبار، كما شجع السيد سعيد بن سلطان التجار العُمانيين والهنود للعمل في التجارة مع الساحل[192]، كما أصبحت تلك الدولة تضاهي الدولة المتقدمة في تلك الفترة وامتلكت علاقات دبلوماسية مع ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، فضلاً عن ذلك فقد عمل السيد سعيد على تمتين أواصر المحبة والتعايش بين أبناء المذاهب الإسلامية في زنجبار، وازدهرت الناحية العمرانية في جزيرتي زنجبار وبمبا لتصل عدد المساجد فيهما إلى حوالي (357 مسجداً)[193].

وكان للوجود العُماني في ساحل شرق إفريقيا دور كبير في وصول اللغة العربية وانتشارها بين السكان بل وامتزاجها مع اللغة الأفريقية وتكوين لغة جديدة هي اللغة السواحلية، فبدأت الكلمات العُمانية تظهر على نحو واضح في اللغة السواحلية ويستخدمها الأفارقة في أغلب معاملاتهم ، فمثلاً حينما يريدوا الترحيب بشخص ما يقولوا (كريبو Karibu) والتي تقابل كلمة (قرب) والتي تعني قرب وتفضل اقترب في عُمان ، كما تُستخدم كلمة (Bishara) السواحلية والتي تقابل كلمة (بيع وشراء العربية)، وكلمة (Signature) والتي تعني توقيع بالعربية[194].

ولابد من الإشارة إلى أن عهد السيد (سعيد بن سلطان) قد شهد أكبر عملية ترسيخ للغة السواحلية في شرق إفريقيا، ويقول الدكتور إبراهيم الصغيرون ((من الحقائق التاريخية المهمة والجديرة بالتسجيل أن انتشار اللغة السواحلية وتوغلها في أواسط إفريقيا قد ارتبط بمرحلة النفوذ العُماني في شرق إفريقيا ولاسيما في عهد السيد سعيد بن سلطان الذي أرسى قواعد الدولة البوسعيدية))[195]، فقد كان لجزيرة زنجبار الدور الأكبر في انتشار اللغة السواحلية وأصبحت المصدر الوحيد لتزويد بقية مدن الساحل بالمعلمين لتلك اللغة، ويمتلئ الأدب السواحلي بمفردات كثيرة في شعره ونشره تشير إلى الفقه الإسلامي وترغب القارئ المسلم بها لاسيما تشريعات متعلقة بالزواج والطلاق[196].

ومن جانب آخر فقد كان عهد السيد سعيد بن سلطان بداية لتوغل الإسلام نحو أواسط إفريقيا في إطار توسيع نشاط العُمانيين الاقتصادي للحصول على العاج والرقيق[197]، فضلاً

عن ذلك فقد برز دور الدعاة المسلمين القادمين من عُمان في الساحل الشرقي فانتماءهم العقدي لدينهم الإسلامي هو الذي تحكم في حركتهم وتجولاتهم، وندلل على ذلك بالقصة التي يوردها الكاتب جراي عن الشيخ أحمد بن إبراهيم العامري التاجر العُماني الذي وصل من زنجبار إلى بلاط الملك (سنا) بمملكة يوغندا عام 1260هـ/1843م، حيث أبدى هذا الشيخ شجاعة فائقة في بلاط الملك كانت سببا في إسلام أهل يوغندا ،فقد جرت العادة وفق الطقوس التي يعتنقها أهل يوغندا آنذاك وعلى رأسهم »الكباكا« (الملك)، تقديم عدد من الرعايا الأبرياء كقرابين للآلهة؛ وذلك بذبحهم وسفك دمائهم، فما كان الشيخ أحمد ـــ وقد وفد على »الكباكا« في يوم مشهود لتقديم هؤلاء القرابين ـــ إلا أن وقف متحديا »الكباكا«، وذلك وسط دهشة المشاهدين مخاطبا ومعاتبا له قائلا: »مولاي إنَّ هؤلاء الرعايا الذين تسفك دماءهم كل يوم بغير حق إنما هم مخلوقات الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ الذي خلقك وأنعم عليك بهذه المملكة« . وقد كرَّر الشيخ ذكر قدرة الله خالق الكون، وأنه الواحد الأحد... ورويدا رويدا انفتح عقلُ »الكباكا« وقلبه لكلام الشيخ إذ أقنعه بالدين الجديد الذي جاء يحمل مبادئه[198].

وقد أسفرت صحبة الشيخ للكباكا عن تعلم الأخير لأربعة أشياء من القرآن الكريم، وكذلك مبادئ الدين الإسلامي قبل وفاة الكباكا عام 1237هـ/ 1856م، وبهذه الخطوة انفتح الباب على مصراعيه للإسلام فانتشر في أوغندا والمناطق المجاورة لها، كما عمل الدعاة العُمانيون على مقاومة نشاط الجمعيات الكنسية، وعارضوا حركة الإرساليات. ومن الأسماء التي ترددت في وثائق الكنيسة أسماء عُمانيين قاوموا هذا النشاط كمثل الشيخ سليمان بن زاهر الجابري، وهو من سكان يوغندا المقربين للسلطان برغش بن سعيد سلطان زنجبار، كما جرى ذكر عدد آخر من التجار العُمانيين الذين تصدوا لحركة الكنيسة في تنصير الساكنين الأفارقة[199].

الهوامش

(1) نقولا زيادة، الرواد، مجلة المقتطف، ص84.

(2) جورج حوراني فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص24 .

(3) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا، ص398.

(4) الطبري، تاريخ الرسل، ج8، ص376؛ زكي، الإسلام والحضارة العربية، ص38 .

(5) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقيا، ص77 .

(6) المسعودي، مروج الذهب: 2 /181 .

(7) الزبيدي، هجرة العرب، ص106.

(8) دهلك: وهي جزيرة في بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة، وبينها وبين بلاد الحبشة نصف يوم (24كم) ومنها يحمل العبيد والإماء القادم من الحبشة إلى سائر البلدان. انظر: الحموي، معجم البلدان: 2/492؛ ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص117. وكان بني أمية ينفون إليها قبل فتحها من يخالفهم. انظر: الطبري، تاريخ الرسل: 4/397.

(9) جدة: بلد على ساحل البحر الأحمر، بينها وبين مكة مسيرة ثلاث ليال وهي في الإقليم الثاني. انظر: الحموي، معجم البلدان: 2/114.

(10) النقيرة، انتشار الإسلام، ص66-67.

(11) عبد الرحمن زكي، المسلمون في العالم اليوم (القاهرة: 1958) :2/39.

(12) حمدي السيد، الصومال: 2 /349؛ الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوربي في ق15م، بحث في كتاب العلاقات العربية الإفريقية دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، دار غريب للطباعة، (القاهرة: 1977)، ص9 .

(13) زكي، الإسلام والحضارة العربية، ص27 .

(14) النقيرة، انتشار الإسلام، ص84 .

(15) شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، ص37.

(16) النقيرة، انتشار الإسلام، ص85 .

(17) زكي، الإسلام والحضارة، ص38؛ آرنولد، الدعوة، ص287 .

(18) المسعودي، مروج الذهب: 1/98 .

(19) ينظر، الخطط: 1/25.

(20) النقيرة، انتشار الإسلام، ص87 .

(21) أمين، العرب والدعوة الإسلامية، ص207 .

(22) أمين، المرجع نفسه، ص207

(23) الدجيلي، العلاقات، ص88 .

(24) الحموي، معجم البلدان: 173/5 .

(25) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، (بيروت: 1970) ، ص82 .

(26) أرنولد، الدعوة، ص378.

(27) تحفة النظار: 229/1 .

(28) ابن بطوطة، تحفة النظار: 231/1-233 .

(29) النقيرة، الإسلام، ص187.

(30) الادريسي، صفة، ص47-48.

(31) جيان، وثائق، ص141 .

(32) وتسمى كلوة اليوم (كلوا كسواني) وتقع في جمهورية تانزانيا. ينظر: تحفة النظار، هامش رقم (2) : 233/1.

(33) النقيرة، انتشار الإسلام، ص189 .

(34) النقيرة، انتشار، ص190 .

(35) النقيرة، انتشار، ص190 .

(36) النقيرة، انتشار، ص191 .

(37) ابن بطوطة، تحفة النظار: 232/1.

(38) تحفة النظار: 233/1 .

(39) ابن بطوطة، المصدر نفسه: 233/1 .

(40) ابن بطوطة، تحفة النظار: 233/1 .

(41) النقيرة، انتشار الإسلام، ص195.

(42) النقيرة، المرجع نفسه، ص195.

(43) النقيرة، ص191 .

(44) الزبيدي، هجرة العرب، ص109.

(45) أرنولد، الدعوة، ص287 .

(46) النقيرة، انتشار الإسلام، ص90-91.

(47) قاسم، الروابط، ص19.

(48) محمود، الإسلام والثقافة العربية، ص400، النقيرة، انتشار الإسلام، ص90.

(49) نقلا عن: النقيرة، ص91.

(50) جيان، وثائق، ص87 -88 .

(51) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقيا، ص119.

(52) الزبيدي، هجرة العرب، ص109–110.

(53) حمدي السيد، الصومال، ص352 .

(54) السيد، المرجع نفسه، ص352 .

(55) آرنولد، الدعوة، ص387.

(56) Freeman, G The Medieval History of The Coast of Tanganyika (Berlin:1962) , p 205.

(57) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: 1988)، ص233.

(58) بدري محمد فهد، الصلات الثقافية بين العرب وإفريقيا من خلال الحركات الشعبية، (بغداد: 1988)، ص16.

(59) عبد الله الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، موضوعة ضمن كتاب جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار لسعيد بن علي المغيري، ص37 .

(60) علي بن عبد الله الحسني السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، (بيروت: 1971) : 2/718 .

(61) السمهودي، المصدر نفسه: 2/747–748 .

(62) وجيه الدين أبو عبد الله عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الربيع، تيسيير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول، (بيروت: 1977) : 4/216.

(63) محمد جمال الدين القاسمي، إصلاح المساجد من البدع والعوائد، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط5، (بيروت: 1983)، ص54–55.

(64) عثمان، المدينة الإسلامية، ص237.

(65) كلوة: وهي إحدى جزر الساحل الشرقي الإفريقي التي وصلتها هجرات إسلامية كان من بينها هجرة عرب مدينة شيراز، ويقول عنها الحموي أنها مدينة واقعة بأرض الزنج. ينظر: الحموي، معجم البلدان :4/ 178.

(66) سعيد بن علي المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، (القاهرة: 1979)، ص67.

(67) مليندى: وتسمى أيضاً ماليندي وهي مدينة تقع على الساحل الشرقي الإفريقي، وتُعد ميناء ومركز تجاري مهم وموقعها على البحر أضفى على سكانها صفة الصيد فضلاً عن امتهانهم التجارة . ينظر: دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4-10هـ/10-16م، (الموصل: 1985)، ص300.

(68) المغيري، جهينة الأخبار، ص86.

(69) لامو: وهي إحدى جزر الأرخبيل الذي عُرف باسم الجزيرة نفسها (ارخبيل لامو) وتقع هذه الجزر على الساحل الشرقي الإفريقي، وتتكون من جزر لامو وباتا(Pata) وماندي، يفصلها عن الساحل شريط مائي ضيق. ينظر: نوري، تاريخ، ص298.

(70) زكي، الإسلام والحضارة العربية، ص47. والفدان: هو مقياس المساحة المصري المفضل. ينظر: هنتس، المكاييل والأوزان، ص97.

(71) الفدان الواحد يساوي 400 قصبة مربعة حسب قول القلقشندي. ينظر: صبح الأعشى: 446/3. وبما أن القصبة تساوي 399 سم فإن الفدان يساوي 6368م2. ينظر: هنتس، المكاييل، ص98.

(72) كيسماني مافيا: وهي إحدى مدن جزيرة مافيا على الساحل الشرقي الإفريقي، وتقع كيسماني مافيا إلى الشمال من جزيرة كلوة. ينظر: ف.ف.ماتفييف، تطور الحضارة السواحلية، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، (اليونسكو: 1988) : 459/4.

(73) زكي، الإسلام والحضارة، ص54.

(74) أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق وتعليق: مصطفى أبو حنيف، مطبعة الدار البيضاء الجديدة، ط1، (الرباط: 1988) ، ص 36؛ القلقشندي، صبح الاعشى: 5/ 310.

(75) منبسا: وتسمى أيضاً ميسى وهي إحدى اهم وأقدم المدن التي أسسها العرب المسلمون على الساحل الشرقي الأفريقي، وقد بلغت أوج عظمتها وازدهارها في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. ينظر: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، ط2، (الجزائر: 1982) ، ص83 .

(76) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث، (بيروت: 1968) ، ص172.

(77) الزبيدي، هجرة العرب، ص106 .

(78) الطبري، تاريخ الرُسل : 376/8.

(79) قاسم، الأصول التاريخية، ص59 .

(80) الحداد، حقائق تاريخية، ص174.

(81) ماتفييف، تطور الحضارة : 468/4.

(82) الملاط: الطين الذي يجعل بين سافي البناء ويُملط به الحائط، وفي صفة الجنة: وملاطها مسك أذفر هو من ذلك ويُملط به الحائط أي يُخلط. ينظر: ابن منظور، لسان العرب : 406/7 .

(83) ما تفييف، المرجع نفسه : 469/4.

(84) زنجبار: وهي إحدى جزر الساحل الشرقي الإفريقي وأكبرها، وتُعد مكان تواجد الأفارقة بكثرة منُذ القدم، وقد حكمها العرب منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. ينظر: نوري، تاريخ، ص289.

(85) زكي، الإسلام والحضارة، ص52.

(86) زكي، المرجع نفسه، ص51.

(87) الدجيلي، العلاقات العربية، ص241 .

(88) الشيرازيون: وهم مجموعة من عرب مدينة شيراز وعلى رأسهم حسن بن علي وأبناؤه السبعة، والذين هاجروا إلى الساحل الشرقي الإفريقي سنة 365هـ/975م ونزلوا في اماكن متفرقة من الساحل كمدن منبسا، وكلوة، وبمبا، إلا أن مركز دولتهم الإسلامية كان في كلوة. ينظر: زكي، الإسلام والحضارة، ص39.

(89) زكي، المرجع نفسه، ص44.

(90) غيدى: وتسمى أيضاً بحرف الجيم (جيدى) وتقع بين جزيرتي مالندي (Malindi) أو مالندا وجزيرة مومباسا (Mombasa)، ولم تذكر المصادر العربية تلك الجزيرة رغم وجودها على نحو متزامن مع مقديشو، وقد اشتهرت جيدى باستيراد الخزف الإسلامي الأسود والأصفر والفخار ذي النقوش المزججة الصفراء والخضراء. ينظر: ماتفييف، تطور الحضارة : 460/4.

(91) الحداد، حقائق تاريخية، ص174.

(92) الرنكة: وهي نوع من أنواع سمك السلمون الذي يعيش في مياه البحار، إذ يحصل الأفارقة عليها من البحر الأحمر والمحيط الهندي. ينظر: Http://www.Angelfire.com

(93) Kirkman , J. Manara of Khalif: mosques and the tombs. Published in : Oriental Arts , vol 3, p. 100.

(94) The Cambridge History of Africa , vol . 3, p . 118.

(95) الدجيلي، العلاقات، ص240.

(96) Freeman , G . Some Preliminary Observations on Medieval Mosques near Dar AL - Salam . Published in : Tanganyika Notes and Records . No 63,1954, p . 65.(24)Coupland , R . East Africa and its Invaders from the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1856 (Oxford :1938), p .25

(97) شوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: 1990)، ص168

(98) المحراب: اللفظ حميري، أي من اللهجات العربية الجنوبية وقد دخل إلى اليمن من الحبشة مع النصرانية، وأصله الحبشي بمعنى الكنيسة أو المعبد أو الحنية التي يوضع بها تمثال القديس، إلا أن ذلك المعنى لاينطبق والمحراب الإسلامي فهو في المسجد مكان وقوف الأمام للصلاة والذي كان في البداية يُحدد بوضع لواء (راية) ليستدل بها الأمام على مكان وقوفه. ينظر: حسين مؤنس، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: 1981) ، ص77 .

(99) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة: 67/1.

(100) محمد بن عبد الله الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفا مصطفى المراغي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (القاهرة: 1385هـ) ، ص363- 364

(101) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص117 .

(102) مؤنس، المساجد، ص137 .

(103) زكي، الإسلام والحضارة، ص61.

(104) المغيري، جهينة الأخبار، ص67.

(105) ماتفييف، تطور الحضارة : 460/4.

(106) عثمان، تجارة المحيط الهندي، ص66. ووجدت الأطباق الصينية في مقابر المنطقة.

(107) زكي، الإسلام والحضارة، ص59 ؛ الحداد، حقائق تاريخية، ص174.

(108) The Cambridge History of Africa , vol 3, p . 118.

(109) محمد عبد الفتاح إبراهيم، إفريقيا - الأرض والناس - مع العناية بسمات ومؤثرات بعض الطوابع الثقافية الإفريقية، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة: د/ت) ، ص13 .

(110) الدجيلي، العلاقات، ص238-239.

(111) زكي، الإسلام والحضارة، ص44.

(112) مؤنس، المساجد، ص134.

(113) ماتفييف، تطور الحضارة : 469/4.

(114) مؤنس، المساجد، ص143 .

(115) ماتفييف، تطور الحضارة : 472/4.

(116) مؤنس، المساجد، ص148.

(117) الزركشي، إعلام الساجد، ص375.

(118) الطبري، تاريخ الرسل: 195/3؛ بينما يشير البلاذري إلى أن مروان بن الحكم هو أول من اتخذ المقصورة. ينظر: فتوح البلدان، ص21.

(119) شمس الدين السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت: 1993) : 223/1؛ سنية قراعه، مساجد ودول، (القاهرة: 1958) ، ص214.

(120) المقري، نفح الطيب: 345/2.

(121) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة: 15/3.

(122) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص170؛ وينظر أيضاً: مسيو جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية، ترجمة: يوسف جمال، ط1، (القاهرة: 1927)، ص180 .

(123) الدجيلي، العلاقات، ص239.

(124) Kirkman, J. The Mosque of The Pillar Oriental Arts, Published in: The Arts of Islam and The East , vol . 3(Germany : 1952), p. 176-180.

(125) عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود، ط2، دار الكتب العلمية (بيروت: 2002) : 428/1 - 429.

(126) المقريزي، المواعظ : 274/2؛ ادم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب اللبناني، ط4، (بيروت : 1967) : 2/

(127) ما تفييف، تطور الحضارة: 472/4.

(128) مؤنس، المساجد، ص147.

(129) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص172.

(130) زكي، الإسلام والحضارة، ص58-59.

Kirkman , J . Manrani of kilifi , p . 97. (131)

Forester, N . A Note on Some Ruins Near Bagamoyo , Published in : Tanganyika notes (132) and records , no 3 , (London : 1937), p . 105.

(133) زكي، الإسلام والحضارة ، ص54.

(134) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص170.

(135) الدجيلي، العلاقات، ص245.

Kirkman, J . The Arab City of Geda , (Oxford university press , London: 1954), p 11. (136)

(137) الحداد، حقائق تاريخية، ص174.

(138) حمدي السيد سالم، الصومال قديماً وحديثاً، (مقديشو: 1965)، ص359.

(139) أمين، العرب والدعوة الإسلامية، ص218.

(140) سالم، الصومال، ص360.

(141) العمري، مسالك الأبصار، ص36؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 310/5.

(142) المقريزي، المواعظ: 196/1.

(143) بدر الجمالي: هو بدر بن عبد الله الجمالي أبو النجم أمير الجيوش المصرية ووالد الملك الأفضل شاهنشاه، أصله من أرمينية اشتراه جمال الدولة بن عمار غلاماً فتربى عنده ونُسب إليه وتقدم في الخدمة حتى ولي إمارة دمشق للمستنصر صاحب مصر سنة 455هـ/1063م، ثم استدعاه لمصر واستعان به لإخماد فتنة نشبت هناك، وحينما نجح قلده وزارة السيف والقلم حتى توفي في القاهرة. ينظر: أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة: 141/5.

(144) غيث، الإسلام والحبشة، ص112.

(145) صديق، الحركة الصليبية، ص171.

(146) العقاد، زنجبار، ص20؛ عبد الجليل تاريخ وحضارات، ص444 .

(147) زاهر رياض، استعمار أفريقيا، ص18-19.

(148) صديق، الحركة، ص171.

(149) زين الدين عبد العزيز المليباري، تحفة المجاهدين في بعض أحوال المجاهدين (لشبونة: 1898)، ص46

(150) جيان، ص214.

(151) جيان، ص212.

(152) جيان، وثائق، ص250.

(153) جيان، وثائق، ص210 .

(154) ترمنجهام، الإسلام، ص53–54 .

(155) حياة، وثائق، ص213.

(156) صديق، الحركة، ص173.

(157) طاهر الحداد، المدخل إلى تاريخ الإسلام، ص34.

(158) صديق، ص174.

(159) زاهر رياض، استعمار إفريقيا، ص26 –27.

(160) زاهر رياض، استعمار إفريقيا، ص26 – 27.

(161) دافسن، افريقية القديمة، ص80 .

(162) بايكار، آسيا، ص42.

(163) صديق، الحركة، ص177.

(164) حياة، وثائق، ص216.

(165) صديق، الحركة، ص177.

(166) الفقيرة، انتشار الإسلام، ص309–310 .

(167) حياة، وثائق، ص221.

(168) الفقيرة، انتشار، ص310 – 311.

(169) حسن، انتشار، ص178.

(170) العقاد، زنجبار، ص21.

(171) حياة، وثائق، ص257 – 258.

(172) ترمنجهام، الإسلام، ص54 – 55.

(173) دافدسن، إفريقية القديمة، ص125؛ صديق، الحركة، ص185.

(174) دافدسن، إفريقية القديمة، ص125.

(175) شوقي عطا الله الجمل، تاريخ كشف إفريقيا، ص177.

(176) ويدز، تاريخ أفريقيا، ص141–142 ؛ صديق، الحركة، ص187.

(177) حياة، ص295.

(178) صديق، الحركة، ص188.

(179) طاهر الحداد، المدخل، ص341؛ صديق، ص188 .

(180) الفقيرة، انتشار الإسلام، ص312–313 .

(181) النقيرة، انتشار، ص23.

(182) رجب محمد عبد الحليم، العُمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام، مكتبة العلوم، (عُمان، 1929م) ، ص188 .

(183) المسعودي، مروج الذهب: 6/2.

(184) المسعودي، المصدر نفسه: 108/2.

(185) زياد بن طالب المعولي، العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا، مقال منشور في دورية الحياة، العدد (11)، 2007 ، ص163.

(186) محمود، انتشار الإسلام، ص399.

(187) عبد الحليم، العُمانيون، ص273.

(188) عائشة علي السيار، دور اليعاربة في عُمان وشرق آسيا، مطابع دار الصحف الوحدة ، ط3، (أبو ظبي: د/ت) ، ص119.

(189) فليبس وندل، تاريخ عُمان، ترجمة: محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي، (عُمان : 1981) ، ص66.

(190) فهمي جدعان وتوفيق مرعي، عُمان والحضارة الإسلامية، وزارة التربية والتعليم، (عُمان: 1984م) ، ص291.

(191) محمود عبد الرحمن الشيخ، انتشار الإسلام في شرق إفريقيا، بحث منشور في كتاب وقائع مؤتمر الإسلام في إفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية، (26-27 نوفمبر /2006)، ص345.

(192) المعولي، العمانيون ونشر الإسلام، ص163.

(193) محمد الطيواني: العُمانيون ودورهم في تطوير اللغة السواحلية، جريدة عُمان، عدد 1408، رجب 1405هـ/ 23 مارس 1985م.

(194) إبراهيم الزين الصغيرون: الإسهام العُماني في المجالات الثقافية والفكرية والكشف عن مجاهل القارة الإفريقية في العهد البوسعيدي، المنتدى الأدبي، حصاد ندوة 1991 ـ1992م، وزارة التراث القومي، سلطنة عُمان، 1993، ص215.

(195) عبد الله الحراصي (ترجمة)، السواحلية لسان شعب إفريقي وهويته، مجلة نزوى، العدد السابع، يوليو 1996م، ص120.

(196) يوسف فضل حسن، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، بحث منشور في كتاب العرب وإفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، (بيروت: 1984) ، ص33 .

(197) المعولي، العمانيون ص175 .

(198) المعولي، المرجع نفسه.

الفصل الخامس

انتشار الإسلام
في
السودان الأوسط

أولاً : عصر دولة الكانم

ثانياً : عصر دولة البرنو

ثالثاً : أشهر حكام دولة كانم – برنو

رابعاً : المظاهر الحضارية لدولة كانم – برنو

أولاً : عصر دولة الكانم :

يمثل السودان الأوسط أحد أقسام بلاد السودان الكبرى، والممتد من بحيرة تشاد في الشرق إلى ثنية نهر النيجر في الغرب [1]، وأقدم ما نشأ في ذلك القسم من دول هو دولة كانم[2] التي يعود الفضل في تأسيسها إلى الملوك الأوائل من الزغاوة[3]، ولاسيما الملك داجو (Dago) الذي أرخ لحكمه بحدود سنة 800م[4]، والذي كان يدعي أنه من نسل القائد العربي سيف بن ذي يزن[5]، ويربط بعض المؤرخين أصول الزغاوة بولد (كوش) وعدهَم من جنس السودان[6] الذين سكنوا شرقي السودان النيلي إلى الشمال من بحر الغزال فيما يسمى بدارفور[7]، واتجهوا من هناك غرباً، إلا أن فكرة ربط أصول الزغاوة بولد كوش لا يمكن أن تكون دليلاً على حقيقة أصولهم، وقد سبق للمؤرخ أبن خلدون أن دحض مثل هذه المحاولات وعَدها من الخرافات[8].

ويعتقد أحد الباحثين المحدثين أن الزغاوة ترجع في أصولها الأولى إلى فريق من بربر المغرب ويدعم رأيه هذا بأن لفظ (زغاوة) إنما هو تحريف للفظ (زواغة) التي وردت عند ابن خلدون والتي تكتب أحياناً زواوة أو زوارة[9]، ويسود الاعتقاد بأن قبيلة زغاوة كانت تجول الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى قبل أن تهاجر في القرن الثاني الهجري إلى بحيرة تشاد، وتستقر هناك بعد أن كانت تمتهن الرعي[10].

وكانت الوثنية هي الديانة السائدة في المنطقة لاسيما تقديس السكان لملوكهم، فالفئة الرئيسة من السكان والمسماة (الزغاوة) كانت تعظم ملوكها وتعبدهم متوهمين أنهم لا يأكلون الطعام وأن أولئك الملوك هم الذين يُحيون ويُمرضون ويصحون[11].

ويذكر المؤرخ البكري أن أهل كانم سودان مشركون يدعون أن قوماً من الأمويين قد وصلوا بلادهم حينما وصل العباسيون للسلطة، وأن أولئك المهاجرين يشابهون العرب في زيهم وفي بقية أحوالهم[12]، وربما تكون هذه إشارة لوصول الإسلام إلى داخل السودان الأوسط على نحو عام وبلاد كانم على نحو خاص. إذ إن وصول المسلمين إلى حدود المنطقة قد سبق هذا التاريخ، فحملات فاتحي المغرب الإسلامي كانت قد وصلت إلى مناطق فزان وكوار لاسيما حملة القائد عقبة بن نافع الفهري سنة (46هـ) إلى تلك المناطق عبر الطريق القديم الواصل بين ساحل طرابلس وكانم[13].

إن العامل الأهم في وصول الإسلام إلى الكانم يتمثل في وقوع المنطقة على خطوط التجارة بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان[14]. وربما تؤشر بدايات عمل التجار العرب المسلمين في

السودان الأوسط في القرنين الثاني والثالث الهجريين/الثامن والتاسع الميلاديين لاسيما في صحراء فزان وهو ما نقله لنا المؤرخ اليعقوبي حينما ذكر التبادل التجاري بين مدينة (زويلة) في أطراف الصحراء من جهة المغرب والكانم من جهة ثانية مشيراً إلى قيام السودان ببيع الرقيق الذين حصلوا عليهم في الحروب الدائرة بينهم إلى المسلمين الذين جاءوا إلى زويلة من كافة أرجاء العالم الإسلامي، فمنهم من هو من القيروان وفاس والقاهرة وقرطبة وخراسان والبصرة والكوفة[15].

لقد لعبت التجارة دوراً كبيراً في التواصل بين المسلمين والأفارقة مما دفع بالكثير من أولئك التجار لتكوين جاليات إسلامية في كانم أسهمت بشكل أو بأخر في إسلام ملوكها، وساعد على تعريف السكان باللغة العربية ليدونوا بها تاريخهم وحضارتهم[16].

وعلى الرغم من أن الفترة الزمنية التي دخل الإسلام فيها إلى كانم مُختلف عليها بين المؤرخين، إلا أن الثابت هو أن للتجارة الدور الأكبر في ذلك، ويشير المؤرخ الشماخي في كتابه السير خلال ترجمته لوالي جبل نفوسة (أبي عبد الله محمد بن عبد الحميد) في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) أنه كان يتكلم بلغة بلاد الكانم المسماة (لغة الكانوري)[17]. ويبدو أن الزيارات المتبادلة للتجار واستقرار بعضهم في أحد طرفي الصحراء الكبرى أسهم على نحو كبير في تعرف كل منهما على لغة الآخر.

وكانت الحكومات الأباضية في منطقة (زويلة) حتى القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد تمتلك علاقات متينة مع بلاد الكانم قائمة على أسس اقتصادية دفعتهم لتحمل مشاق الصحراء والوصول إلى بلاد السودان فضلاً عن رغبتهم في نشر الإسلام في تلك البلاد[18].

إن المتتبع للروايات المتعددة حول وقت وطريقة إسلام ملوك الكانم يلاحظ أنها جميعاً تتفق على شيء واحد وهو انتشار الإسلام بصورة سلمية في تلك البلاد من غير الحاجة لعمل عسكري، إذ كانت التجارة والهجرات المحور الأساس في ذلك الانتصار، فضلاً عن جهد الدعاة من أبناء البلاد نفسها.

فنرى أن صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار يشير إلى أن الإسلام دخل بلاد الكانم بعد (500هـ/1106م) من غير الحديث عن كيفية دخوله[19]، بينما أشارت روايات (الهوسا) في السودان الأوسط إلى أن الإسلام وصل البلاد عن طريق رجُل يُدعى (أبو زيد الفزاري) نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[20]، ويعزو المؤرخ العمري دخول الإسلام إلى أحد حكام الكانم المدعو (الهادي العثماني) الذي يدعي النسب للخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه[21].

فضلاً عن ذلك فإن الدستور الذي أصدره السلطان (هيوم بن جلمي) (478-491هـ/1085-1097م) يؤكد على أن الإسلام قد انتشر في بلاد الكانم على يد الفقيه (محمد بن ماني) والذي أصبحت ذريته أئمة تلك البلاد[22] . ويبدو أن القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد شهد إسلام حكام الكانم ليتبعهم على نحو كبير إسلام العامة لاسيما في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد .

وهنا لابد من الإشارة إلى وصول أعداد كبيرة من المهاجرين إلى بلاد الكانم لاسيما الأباضية الهاربين من مطاردة الخلافة العباسية لهم في طرابلس والقيروان بقيادة (محمد بن الأشعث الخزاعي) (144-148هـ/761-765م) ، مما اضطرهم للاتجاه نحو الصحراء وبلاد السودان[23]، فاستقروا في زويلة مركز مدينة (فزان) في الصحراء وهو ما فعله (عبد الله بن حيان الأباضي) حتى وصلته حملة (محمد بن الاشعث) سنة (145هـ/762م) وأجبرته على الاندفاع نحو بلاد السودان[24].

ويبدو أن ذلك الخلاف بين العباسيين والأباضية قد أفاد في عملية نشر الإسلام بين السودان، فقد شهدت المنطقة الواقعة شمال وجنوب الصحراء تبادلاً تجارياً كبيراً لاسيما عند قيام الدولة الرستمية في جبل نفوسة سنة (162هـ/779م) والتي أدت إلى تنشيط التبادلات التجارية مع بلاد السودان من خلال الترحيب بالتجار السودان في مدنها الواسعة والمتناثرة على حدود الصحراء الكبرى وداخلها كوارقلان (أوجلة) وغدامس وكزالة وزويلة والتي مثلت مراكز انطلاق القوافل نحو بلاد السودان[25].

ونتيجة للازدهار التجاري في المنطقة وكون الفائدة قد عمت الطرفين ، فقد اهتم الأباضية من جهة والسودان من جهة ثانية بتطوير وتنظيم العمليات التجارية ، وكان التجار السودان يلقون الترحيب في مدن بلاد المغرب فضلاً عن منحهم الكثير من التسهيلات والتي تصل في بعض الأحيان حد الإعفاء من بعض الضرائب والرسوم[26]. ومن البديهي أن تُقابل تلك المعاملة الحسنة بالمثل من قبل السودان .

لقد وصل الدعاة من بلاد المغرب الإسلامي نحو إفريقيا جنوب الصحراء ، فقد وصل أحد علماء المغرب مبعوثاً من قبل قاضي جبل نفوسة (عمروس بن فتح) إلى بلاد الكانم للدعوة بين الزغاوة ، والذي طاب له المقام هناك واستقر بين الزغاوة[27].

إن المتتبع لتاريخ مملكة الكانم يلاحظ أنها كانت تتسع جغرافياً خلال العصور الإسلامية الوسطى وأن الإسلام كان ينتشر فيها على نحو سريع ومنتظم ، فاليعقوبي يشير إليها وإلى

شعبها بقوله : ((وأما السودان الذين غربوا وسلكوا نحو الغرب وقطعوا البلاد فصارت لهم عدة ممالك ، أولها مملكة الزغاوة وهم النازلون بالموضع الذي يُقال له كانم ، ومنازلهم أخصاص القصب ، وليسوا بأصحاب مُدن ويُسمى ملكهم (كاكرة) ، ومن الزغاوة صنف يقال لهم الحوضيين ولهم ملك من الزغاوة))[28] ويبدو من خلال النص أن الزغاوة كانوا المكون الرئيس لبلاد الكانم خلال القرن الثالث الهجري/التاسع للميلاد إلا أنهم سكان قُرى بسيطة .

بينما يشير المؤرخ البكري إلى حملة عقبة بن نافع الفهري سنة (465/666م) على وادي فزان وسؤاله سكانها عما يليهم من البلدان فأجابوا أنها بلاد (جاوان) وهي بلدة تحوي قصر كبير يقع على قمة جبل في قصبة تسمى (كوار) تابعة لبلاد الكانم ، فسار إليها عقبة بن نافع وحاصرها شهراً كاملاً[29] .

وحينما نصل إلى عهد الإدريسي يتبين لنا اتساع مملكة الكانم وتعدد مدنها ، فهو يشير إلى أنها تضم مُدن كوغة وكوكو وتملمة وزغاوة ومانان وانجيمي ونوابية وتاجوة وكوار[30]، ونتيجة للطبيعة الصحراوية لتخوم بلاد الكانم والممتدة جنوب مدينة فزان والمحاذية لبحيرة تشاد إلى أرض زغاوة السودان فقد أشار الإدريسي إلى قساوة تلك البلاد وتخلف سكان بعض مدنها كمدينة (تملمة) التي وصف سكانها بأنهم شُقاة عُراة ، ومنطقة شامة التي يمتاز سكانها بالتعري وانتشار الجرب بينهم في تلك الفترة[31]. ومن البديهي أن يصف الإدريسي سكان تلك المناطق ذلك الوصف كونهم بدو وثنيين لاسيما في الفترة التي عاصرها الإدريسي ، كما أن المناطق التي تكلم عنها عبارة عن قُرى صغيرة بعيدة عن المُدن التي وصلها الإسلام قبل تلك الفترة[32].

وربما يكون للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد دور كبير في معالجة تلك المسألة القائمة على اتهام أبناء تلك المناطق بالتخلف وعدم الارتباط بالحضارة ، فقد وصلت إليهم بفعل الضغط السكاني الحاصل في المغرب الإسلامي هجرات كبيرة يقودها بني هلال القادمين إلى المغرب والصحراء الكبرى من مصر منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي [33]. ويبدو أن تلك الهجرة قد أثرت كبقية الهجرات التي تحصل في أماكن أخرى على التوزيع السكاني للمنطقة ودفعت السكان الأصليين فيها نحو الداخل بما فيها مناطق فزان والمناطق المحيطة بها مما ولد صراعات مستمرة على الأرض بينهم وبين الزغاوة[34] لاسيما على المناطق المائية كبحيرة تشاد وبحيرة سول الواقعة شرق كوار[35].

لقد أصبحت صورة شعوب الكانم أكثر وضوحاً في عهد الجغرافي ابن سعيد المغربي ،

فقد وضع مملكة الكانم بعد بحيرة تشاد بعد أن كان البكري قد وضعها بعد صحراء زويلة ، كما أن المغربي قد ذكر لنا أن حدود الكانم الشرقية قد امتدت إلى ضفاف نيل مصر[36]، كما أنه يشير إلى إسلام أهل كوار وتطبعهم بطباع المسلمين المجاورين لهم من حيث تخلقهم بأخلاق البيض بلبس الصوف والقطن والبرود[37]. ويبدو من خلال متابعة كلام المؤرخ والجغرافي ابن سعيد المغربي ومقارنته بكلام اليعقوبي والبكري وحتى الإدريسي مدى تقدم الإسلام في المنطقة ووصول التأثيرات الحضارية إليها .

فضلاً عن ذلك فقد أكد المغربي على تنازع الإسلام والنصرانية والوثنية على المنطقة ، ففي منطقة (لونيا) على حدود الكانم يوجد المسلمون ، أما سكان المناطق القريبة من بلاد النوبة فهم نصارى ، والسكان القريبون من سكن قبيلة الزغاوة فهم وثنيون[38].

لقد أشارت المصادر العربية إلى مدى تعلق أهل الكانم وحكامهم بالإسلام ومحبتهم له للحد الذي جعلهم ينتسبون إلى العرب، منتسبون للقائد العربي سيف بن ذي يزن لاسيما حاكم الكانم (محمد) الذي ادعى أن جده هو ذلك القائد العربي وأن عاصمة جدوده السيفيين تسمى (مانان)، وأن جده الرابع قد أسلم على يد فقهاء المسلمين في الكانم[39]. ويتضح من خلال ما سبق أن انتشار الإسلام في الكانم لم يكن مقتصراً على التجار والمهاجرين، بل رافق ذلك جهود كبيرة لدعاة الإسلام وفقهائه والذين توافدوا على المنطقة بروح إسلامية عالية، وهو ما أكدته دساتير بلاد الكانم المسماة (المحارم)، ففي المحرم الخاص بأسرة (مسبعرمة) نلاحظ أن الشيخ (محمد بن مسبعرمة بن عثمان الحميري) قد وصل إلى الكانم قادماً من اليمن على عهد السلطان الكانمي (علي ت 909هـ/ 1503م) والذي استقبله وأكرم وفادته وجعله وزيراً له، فضلاً عن ذلك فقد وصل في عهد ذلك السلطان عالم آخر هو (أحمد بن بشير) والذي أفاد السلطان بما يمتلكه من علوم[40].

ولابد من الإشارة هنا إلى دور قبائل (التيبو) التدا في انتشار الإسلام في الكانم لاسيما بعد أن نزحت من فزان نحو بحيرة تشاد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي واستطاعت أن تحقق النصر على قبائل الزغاوة الوثنية[41]. ويتضح من خلال متابعة الهجرات إلى السودان الأوسط أنها باتت تتخذ ومنذ القرن 5هـ/11م طابع الاستقرار في المنطقة وتأسيس كيان سياسي[42].

ثانياً : عصر دولة البرنو :

شهد القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي قيام دولة البرنو أو كما تُسمى دولة كانم الثانية في منطقة تقع غرب بحيرة تشاد ويحيط بها من الجنوب بلاد الهمج (الغابات

الاستوائية) ومن الشمال (بلاد إفريقية) المغرب الإسلامي، ومن الغرب بلاد التكرور، وتُسمى عاصمة البرنو (كاكا)[43]. ويبدو أن انهيار دولة كانم يعود إلى انتشار الفقر لاسيما في أوقات الحروب واندلاع المعارك مع الوثنيين ، فضلاً عن تزايد الصراع على السلطة بين أولاد (دونمة ديبالمي)، كما أن هناك خطر أكبر أسهم في سقوط الكانم يتمثل في قبائل البولالا التي اضطرت السلطان (عمر بن أدريس) إلى نقل عاصمة بلاده إلى البرنو[44].

وقد شهدت الفترة اللاحقة لظهور البرنو والانتقال إليها بروز سلاطين عظام للدولة كالسلطان (علي جاجي أو علي غازي بن دونمة) (881-909هـ/1473-1503م) والذي اتخذ لنفسه لقب خليفة وقرب إليه العلماء والفقهاء[45]، وكان يُطلق عليه أيضاً (علي بن زينب) نسبة إلى أمه، وكان عهده عهد ازدهار وانتصارات في البرنو، فقد تمكن من القضاء على الاضطرابات الداخلية، كما حد من نفوذ قادة الجُند ورؤساء القبائل والذين كانت لهم اليد الطولى في المنافسات على السلطة[46].

وبعد أن عمل على تحقيق الاستقرار الداخلي توجه نحو تحقيق أمن بلاده الخارجي ، فشن أولى حروبه ضد بلاد الهوسا التي كانت قد تعرضت لقبائل (ونقارة) التابعة لبرنو ، فتمكن من تحقيق النصر على (عبد الله بن رمفا) حاكم (كانو) وطرده من المدينة وعين أحد رجاله بدلاً عنه ، وكانت حروب السلطان (علي بن زينب) مع بلاد الهوسا قد استمرت لفترة طويلة حتى وصلت إلى مرحلة حاسمة تمثلت في معركة (نجورو Nguru) ضد إحدى دول الهوسا والتي تسمى (دولة كبي Kebbi) بقيادة حاكمها (كانتا)، وكان النصر في بداية المعركة للماي (علي بن زينب) إلا أن نهاية المعركة كانت لصالح كانتا[47].

وكان حُب الماي (علي بن زينب) للجهاد حافزاً للتصدي لقبائل البولالا الوثنية التي اصطدم بها محاولاً طردها من الكانم ، وتمكن في إحدى معاركه معها القضاء على عدد كبير من جنودها وإجبار حاكمها على الخضوع المؤقت له[48].

وبعد وفاة (علي غازي) خلفه ابنه (إدريس بن علي أو إدريس بن عائشة) (909-933هـ/1503-1526م) والذي بدأ حكمه بالهجوم لاستعادة كانم وهزم قبائل البولالا فيها وأجبرها على دفع الجزية بعد أن طردها من المنطقة[49]، وعلى الرغم من ذلك الانتصار في كانم، فقد بقيت العاصمة في برنو ولم ينتقل المايات إليها، كما بقى للبولالا نشاطاً عسكرياً معادياً لكنه أقل من السابق فكانوا يتحينون الفرص للإيقاع بمايات البرنو[50].

وبانتهاء حكمه جاء بعده رجُل له نفس اسمه (إدريس بن علي) لكنه كان يتميز عنه بكونه

معروف باسم (إدريس علومه أو الوما) ليحكم البلاد للفترة (978-1011هـ/1570-1602م) بعد أن كانت أمه ولسنوات وصية عليه ، إلا أنه وحال تسلمه للحكم بدأ بخطوات جدية لتأمين حدود بلاده، وعُرف بالحكمة والعدل الذي أوصل الأسرة السيفية للمجد والرفعة، كما وصفت سنوات حكمه بأنها فترة ازدهار وانتصارات عسكرية من خلال الحملات التي شنها ضد قبائل البولالا، كما شهد عصره تحولاً جذرياً في تسليح الجيش لاسيما بعد أن اشترى من العثمانيين أسلحة نارية جهز بها جنده، واستخدم في ذلك الجيش عدد كبير من الجند العرب الذين استطاع من خلالهم من أن يهزم الطوارق ويُدخل عدداً من القرى التابعة لمدينة (كانو) تحت حكمه[51]، فضلاً عن ذلك فقد هزم العديد من القبائل الوثنية في الشرق والجنوب ، كما هزم عدداً من قبائل البربر القاطنة في منطقة أهير أو (آير Air[52]) التي كانت تنشر الفوضى بين الحين والآخر[53] .

فضلاً عن ذلك فقد التفت الماي إدريس الوما إلى قبائل الصو وانتصر عليهم وبنى بالقرب من عاصمتهم (بامساك Pamasak) معاقل عسكرية وزودها بالمقاتلين ليهاجم بين الحين والآخر عاصمتهم حتى تمكن من فتح العاصمة بعد حصار طويل[54].

وبعد ذلك اتجه السلطان (إدريس علومه) إلى الداخل فوحد القبائل التي تسكن في دولته، ونظم السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية وفصل بينها، كما ركز على مسألة جعل الدين الإسلامي الدين الرسمي للدولة ونشره بين جميع السكان بعد أن كان في بداية ظهوره في كانم دين الطبقة الحاكمة، وبنى العديد من المساجد الجامعة في البلاد، وهدم جميع المساجد المبنية من القش وأعاد بناءها من اللبن، كما حاول تطبيق مبادئ الإسلام في جهاده ضد الكفار من خلال معاملة الأسرى ومواجهة الأعداء[55]، وفي إحدى معاركه مع قبيلة باغرمي أُصيب بسهم مسموم في صدره توفي على أثره ودُفن في بحيرة (الو Alo)[56].

وبعد وفاة السلطان (إدريس علومه) وصل أبناؤه الثلاثة إلى السلطة الواحد تلو الآخر (محمد وإبراهيم وعمر) إلا أن سنوات حكمهم كانت خالية من نشاط يُذكر قياساً لوالدهم، وبدأ الضعف يدب في أرجاء الدولة لاسيما بعد أن تشجعت الدولة الوثنية المجاورة لهم على أخذ الثأر من البرنو، فضلاً عن حدوث عدة مجاعات في البلاد وصلت إلى خمس مجاعات، الأولى كانت زمن الماي (إبراهيم بن إدريس) واستمرت لمدة عام كامل، والثانية استمرت أربع سنوات وحدثت زمن الماي علي طاير المتوفى سنة (1092هـ/1681م)[57].

ووصل بعدهم للحكم (علي بن عمر) وهو يشابه جده إدريس ، فقد أعاد مكانة بلاده في

المنطقة من خلال محاربة سلطان أغاديس[58] طارداً الطوارق نحو الصحراء ، كما أظهر التزاماً دينياً وحج ثلاث مرات خلال سنوات حكمه الأربعين (1055-1097هـ/1645-1685م)، وبعد وفاته تبعه (إدريس بن علي) ثم (دونمة بن علي) والذي حدثت في عهده المجاعة الثالثة واستمرت سبع سنوات، و (حمدون بن دونمة) والذي كان يُعرف بحبه للقراءة حتى وفاته سنة (1151هـ/1738م) ليتولى الحكم بعده (دونمة بن حمدون) والذي تفشت المجاعة في عهده وهي المرة الرابعة التي تعصف فيها المجاعات تلك البلاد ، ثم تولى الحكم بعده (علي بن دونمة) والذي اشتهر بالعدل وحب الناس ، وبعد وفاته تسلم الحكم أبنه (أحمد بن علي) والذي عُرف بتقواه ومشاركته العلماء في دراساتهم لكنه في الوقت نفسه أهمل حدود دولته وتركها عرضة لهجمات الأعداء وقُطاع الطُرق الذين هاجموا السكان فتركت الزراعة وفتكت المجاعة للمرة الخامسة بالبلاد لعدة سنوات[59] .

ومع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي ظهر السلطان (عثمان بن فودي) زعيم قبائل الفولاني في إقليم الهوسا غرب بلاد البرنو محرراً لجميع الأقاليم التي كانت خاضعة لبرنو وتدفع الجزية لها، وفي عام (1223هـ/1808م) هاجم برنو نفسها والتي لم تتمكن من صد الهجوم الذي انتهى بفرار ملكها واتجاهه نحو كانم لطلب النجدة ، فلبى طلبه رجُل عربي من كانم أصله من مدينة فزان واسمه (محمد الأمين)) والمُلقب بالكانمي نسبة لكانم، وكان عالماً بالعلوم العقلية والنقلية حاثاً الناس على التمسك بالدين الإسلامي[60].

لقد كون الكانمي فرقة عسكرية أغلب جنودها من بلاد كانم وهاجم قوات (عثمان بن فودي) محققاً النصر عليها وأعاد الملك الهارب إلى قصره إلا أن السلطة أصبحت بيده فخاف أبناء الأسرة البرنوية الحاكمة منه وحاولوا التمرد عليه ، لكنه تنبه للأمر وقضى على تمردهم وحكم البلاد بنفسه مباشرةً من مدينة (كوكا)[61] والتي اتخذها عاصمة له بعد أن قام ببنائها عام (1230هـ/1814م)، وقد توسعت الدولة على عهده لتشمل أغلب المناطق التي كانت تسيطر عليها في عهد (أدريس علومه) .

وفي الفترة (1251-1298هـ/1835-1880م) تولى حكم البرنو ابنه عمر والذي أنهى حكم الأسرة السيفية لبلاد البرنو وحلت أسرته محلها بصفة رسمية، كما أصبح لقب الشيخ هو اللقب الرسمي لرئيس الدولة منذ عام (1263هـ/1846م)، وبعد وفاة الشيخ عمر تولى الحكم ابنه (أبو بكر) (1298-1302هـ/1880-1884م) ثم أخوه (إبراهيم) لمدة عام واحد ليأتي بعده الشيخ هاشم (1303-1311هـ/1885-1893) والذي شغل نفسه بالقصر والحريم مما ولد

جواً من الاضطرابات والضعف في البلاد لتتحول السلطة نتيجة ذلك إلى (رابح بن الزبيري) والذي انتهت في عهده دولة البرنو الإسلامية على يد الاستعمار البريطاني والفرنسي عام (1318هـ/1900م) حينما تقاسما البرنو وأنهوا السلطة الإسلامية فيه[62].

ثالثاً: أشهر حكام دولة كانم - برنو:

حينما نُريد أن نتحدث عن حكام دولة كانم لابد أن نشير إلى أن دورهم الأساس ظهر منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حينما أعلنوا على نحو واضح اعتناقهم للإسلام وتمسكهم به واعتباره دين الدولة الرسمي لاسيما بعد تدفق الهجرات الهلالية ووصول أعداد من الدعاة إلى المنطقة وتعاونهم مع أولئك الحكام في عملية نشر الإسلام[63]، وقد ظهر ذلك جلياً حينما اعتنق الإسلام حاكمها الماي (هيوم جلمي) (HUME JILIMI) (478-491هـ/1085-1079م) مُعلناً ذلك أمام الجميع[64].

إن الإشارات إلى إسلام ملوك الكانم جاءت في كتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين، فقد ذكر الجغرافي ابن سعيد المغربي (أن سلطان الكانم مشهور بالجهاد وأفعال الخير وهو محمدي من ذرية سيف بن ذي يزن، وأن جده الرابع قد أسلم على يد فقهاء الإسلام)[65] لتبدأ على يديه فترة حكم الأسرة السيفية لبلاد كانم بعد إزاحة قبائل الزغاوة الوثنيين عن الحكم[66].

لقد أكد حكام بلاد الكانم نسبهم العربي ودافعوا عنه على نحو مستمر وهو ما ظهر جلياً في نص ابن سعيد المغربي السابق، وفي نص للقلقشندي يذكر فيه رسالة أحد مايات كانم وهو (عثمان بن أدريس 795-828هـ/1392-1424م) إلى سلطان مصر برقوق المملوكي والتي شكا فيها من اعتداءات عرب جذام على بلاده، كما أبلغ فيها السلطان المملوكي أنه من ذرية سيف بن ذي يزن[67].

ويُعد الدستور الذي أصدره الماي (هيوم جلمي) والذي سُمي بـ (المحرم) الإنجاز الأعظم منذ تأسيس الدولة، فقد نظم إدارة الدولة وأعلن أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي، كما أكد أن أول بلد دخله الإسلام في السودان الأوسط هو البرنو على يد الفقيه (محمد بن ماني) والذي عاش (120 سنة) وعاصر خمسة من سلاطين البلاد ابتداءً من السلطان بولو الذي عاصره خمس سنوات (حكم حوالي 411هـ/1020م)، والسلطان آركي (حكم حوالي سنة 427هـ/1035م)، وعاصر السلطان كاداي أربع سنوات (حكم حوالي 468هـ/1075م)، وعاصر السلطان هيوم أربعة عشر عاماً (حكم للفترة 478-491هـ/1085-1097م)[68].

ويُعد ديوان سلاطين البرنو التاريخ الرسمي للأسرة السيفية الحاكمة في كانم منذ

تأسيسها سنة (184 هـ/ 800م) وحتى نهاية حكمها سنة (1263هـ/1846م)[69]، كما أن المحرم أو الدستور يمنح المشمول به امتيازات عديدة يرثها أبناءه كالإعفاء من الضرائب والخدمة العسكرية والتكفل بضيافة من يحل عليه ضيفاً، فضلاً عن ذلك فقد ضم المحرم الذي أصدره السلطان هيوم فقرات أخرى تضمنت تحريم دماء وأموال الداخلين الجُدد في الإسلام، كما حرم أموال الفقيه (محمد بن ماني) إلى يوم القيامة[70].

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد نوه المحرم للدور التعليمي والفقهي لمحمد بن ماني من خلال تحفيظه وشرحه للقرآن الكريم لسلاطين البلاد، فقد قرأ مع الماي (بولو) الجزأين الآخيرين من القرآن الكريم، وقرأ مع السلطان (أركي) من بداية (سورة يس) إلى نهاية (سورة الناس)، وقرأ مع السلطان هيوم القرآن الكريم كاملاً وسيرة الرسول محمد ﷺ [71].

إن السمة الأساسية التي ميزت حكم السلطان (هيوم) هي حبه للجهاد ورغبته في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية المحيطة ببلاده، لتصبح تلك الرغبة وذلك الحُب منهاج سار عليه اتباعه[72]، وكانت العمليات الجهادية التي قادها السلطان هيوم موجهة ضد قبائل (البولالا) التي ظهر خطرها في عهده، فجهز لها جيشاً بقيادة أخيه (عبد الله) الذي انتصر عليهم وهزمهم وأجبرهم على دفع الجزية، إلا أنهم سرعان ما نقضوا العهد والهدنة وهاجموا المسلمين فأرسل لهم السلطان هيوم حملة ثانية لتأديبهم والتي حققت نصراً كبيراً وقتلت منهم حوالي 3000 رجُل)[73]، وفي سنة (491هـ/1097م) توفى السلطان هيوم وهو في طريق عودته من مكة المكرمة بعد أن أدى فريضة الحج[74].

ولم يكن (دونمة بن هيوم) (Dunam B. Hume) والذي تبع أبيه في تولي السلطة بأقل منه حماسة دينية ورغبة في مواجهة الوثنيين، فقد قضى سنوات حكمه الطويلة والبالغة (53 سنة) في جهاد الوثنيين، بعد أن شكل جيشاً قوياً ضم قوة من الفرسان مكنته من توسيع حدود دولته لتصل فزان شمالاً، ووداي شرقاً، والنيجر غرباً[75]. ويبدو أن الأقدار قد شاءت في أن يموت (دونمة) كأبيه وهو في رحلته للحج سنة (545هـ/1150م) حينما غرق خلال رحلة حجه الثالثة قرب قناة السويس في البحر الأحمر[76].

لقد طبق حكام الأسرة السيفية الحاكمة في كانم تعاليم الإسلام من خلال تطبيقهم للشريعة الإسلامية بصورة جيدة، فحينما حاد السلطان (بيري بن دونمة) (Biri.B. dunama) عن الشريعة الإسلامية قررت والدته (جوسوفاساما Gumsu Fasama) أن تسجنه لأنه أخطأ في إصدار حكم ضد بعض اللصوص فأعدمهم بدل قيامه بقطع أيديهم[77].

لقد تبع السلطان (بيري بن دونمة) ابنه السلطان (عبد الاه بكر 573-590هـ/1177-1193م) الذي لم يكن في عهده الشيء الكثير من الأحداث حتى توفي وحل بدلاً منه ابنه السلطان (عبد الجليل) الُلقب بـ (سالما أو تسليم SALMA OR Tislim) (590-617هـ/1193-1220م)[78]، وقد اتسم عهده بمواصلة الجهاد ضد القبائل الوثنية واتسعت حدود الدولة وترسخت قواعد الإسلام فيها[79]، كما استطاع السلطان سالما من إخضاع قبائل الزغاوة الوثنية وسيطر على طريق التجارة الواصل بين بلاده والمغرب الإسلامي عبر مدينة (فزان)[80]، فضلاً عن تصديه لقبائل الصو الوثنية وقتاله لها حتى استشهاده في إحدى المعارك ضدها[81].

وبعد استشهاد الماي (سالما) وصل للحكم ابنه الماي (دونمة بن سالما) (618-656هـ/1221-1258م) والذي كان يُسمى نسبة لأمه (دابال DabALE) باسم (دونمة دبالي)[82]، وهو السلطان الذي مد حدود دولته إلى النيل الأوسط بعد انتصاره على القبائل الوثنية باسطاً سلطانه على الطرق التجارية الرابطة بين بلاده وبلاد المغرب، كما وصلت قواته إلى الاتجاه المعاكس لمناطق تقع جنوب بحيرة تشاد[83].

وكان الفضل في تحقيق تلك الانتصارات للجيش الذي شكله السلطان والمؤلف من (41 ألف فارس) وعدد كبير من الجند المشاة، فضلاً عن أسطول بحري قوي[84] مدعوم بدار لصناعة السفن تم إنشاؤه في كانم[85].

ويُعد السلطان (دونمة دبالي) واحداً من الحكام الذين قضوا على جذور الوثنية في المنطقة من خلال قيامه بتحطيم (الموني المقدس Sacred Mune) الذي كان يقدسه الناس قبل إسلامهم مقتنعين بأنه لا يجوز فتحه أو تحطيمه لأنه يجلب الحظ والنصر لحكام البلاد ورعيتهم ، إلا أن السلطان (دونمة) أقدم على تحطيمه لقناعته أن ذلك الشيء من جذور الوثنية وعلى الرغم من إدعاء البعض أن بداخله مصحف وليس شيء آخر[86].

وكان قرار التحطيم يبدو مشابهاً لقرار الرسول ﷺ بتحطيم الأصنام حال فتح مكة، كما أن ذلك القرار أثار غضب قبائل (البولالا) التي حاربت جيش دونمة بعد سماعها بالخبر لما يمثله الموني من قدسية لديهم ولدى حكامهم[87]، ويُعد السلطان (دونمة دبالي) آخر السلاطين الأقوياء في دولة كانم الذي مثل عهده مرحلة حاسمة من مراحل مواجهة الوثنية ونشر الإسلام ليأتي بعده مجموعة من السلاطين الضعفاء المنشغلين بالصراعات الداخلية من جهة ومواجهة القبائل الوثنية من جهة أخرى كقبائل الصو من الغرب، وقبائل البولالا من الشرق[88].

لقد وصل الصراع بين دولة كانم وقبائل البولالا مرحلة خطيرة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي لاسيما حينما برز زعيم قوي لتلك القبائل هو (عبد الجليل بن سيوكوما 767-814هـ/1365-1411م) والذي عاصر تسعة من سلاطين الكانم[89]، والأمر الذي يميز قبائل البولالا عن قبائل الصو هو أن البولالا قد دخلت في الإسلام وهي تقاتل القبائل الوثنية جنباً إلى جنب مع بقية المسلمين إلا أن عداءهم لدولة كانم لم ينتهي ورغبتهم في السيطرة على طرق التجارة كان كبيراً[90].

ونتيجة للضغط المستمر من قبل قبائل البولالا على دولة كانم ورغبتهم في طرد الماغوميين حكام كانم من عاصمتهم (جيمي)، فقد اجتمع السلطان الكانمي (عمر بن أدريس 788-794هـ/1386-1391) بعلماء بلاده والمقربين له من الحاشية واستشارهم في مسألة ترك العاصمة والعبور نحو (البرنو) فأشاروا عليه بذلك[91] لكي يتخلص من خطر البولالا الذي ولد مخاطر أخرى على الدولة كتسلل الأعراب من الشمال والشرق إلى كانم وما تبعه من خطر قبائل (التيد) الثائرة على نحو مستمر[92].

لقد عمل السلطان (عمر بن إدريس) بعد انسحابه هو ورعيته من كانم نحو عاصمة البرنو (كاكا) على التفكير في استرجاع دولتهم من المحتلين وعملوا كل ما في وسعهم من أجل تحقيق ذلك الهدف حتى تم لهم ذلك على عهد السلطان (إدريس بن علي بن أحمد 913-936هـ/1507-1529م) إلا أنهم لم يعودوا إلى عاصمتهم (جيمي) ووضعوا فيها ممثلاً عنهم لتصبح كانم ولاية تابعة للبرنو[93].

إن الأسباب الحقيقية لانتقال الدولة إلى الغرب من بحيرة تشاد تكمن في ضعف نظام الحكم والصراع على السلطة للحد الذي جعل من عملية اختيار السلطان الجديد تتم أمام جثمان والده المتوفى وقبل دفنه، وذلك بإجراء قرعة على أسماء أبنائه بحضور ثلاثة من كبار رجال البلاط الذين سيشرفون على أداء السلطان الجديد للقسم الذي يتعهد فيه على العمل وفق ما كان يحكم به والده[94].

والأمر الثاني الذي دفع بحكام الكانم لتحويل دولتهم نحو البرنو يكمن في استمرار خطر القبائل الوثنية كقبائل (الصو) والتي رغم قبولها بالدخول في طاعة سلاطين الكانم إلا أنها كانت كثيرة الخروج على السلطة والاعتداء على حدود الدولة من الجنوب والغرب[95]، فكان أقوى خروج لهم على السلطة على عهد السلطان (سالما بن بيكور 590-618هـ/1194-1221م) والذي قاتلهم حتى استشهد في إحدى المعارك[96]. والأمر الذي يؤكد تنامي خطر تلك

القبائل هو قيامهم بقتل أربعة من سلاطين دولة كانم خلال عشر سنوات وجميعهم من أبناء السلطان (عبد الله بن كادي 743- 753هـ/1342-1352م)[97]، وقد استمر خطر قبائل الصو الوثنية حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حتى تمكن السلطان (إدريس الوما 978-1011هـ/1342-1352م) من القضاء عليهم وهدم مدنهم المحصنة والواقعة على بحيرة تشاد[98].

والأمر الثالث الذي أسهم في انتقال سلاطين الكانم نحو البرنو هو الهجمات المستمرة لقبائل البولالا الذين ظهر خطرهم على نحو واضح منذ عهد السلطان (هيوم بن جلمي 479-491هـ/1086-1098م) والذي تمكن من هزيمتهم وفرض الجزية عليهم[99]، إلا أن ذلك الأمر تغير بوفاة السلطان (دونمة دبالمي 618-656هـ/1221-1259م) وتسلم الحكم سلاطين ضعفاء كان همهم الوحيد هو الصراع على السلطة[100].

رابعاً: المظاهر الحضارية لدولة كانم - برنو:

مثلت العلاقات الدبلوماسية لدولة كانم أبرز مظهر من مظاهر الحضارة، تلك الحضارة التي ازدهرت فيها من خلال العلاقات التجارية التي أقامتها مع المغرب الإسلامي والتي تطورت لتصبح علاقات دبلوماسية لاسيما في عهد السلطان (دونمة دبالمي) والذي اهتم بتطوير علاقات بلاده مع مصر لاسيما في المجال الثقافي، فقد أسس مدرسة (ابن رشيق) في القاهرة منتصف القرن 7هجري/13م لتكون نزلا للطلبة السودانيين الدارسين في مصر[101].

وامتلكت كانم علاقات متميزة مع الشمال الإفريقي ومصر (تجارية ودبلوماسية وثقافية) ففي سنة (5685/1173م) استصرخ أهالي مدينة (فزان) طالبين نجدة سلطان كانم لإنقاذهم من هجوم (قراقوش الغزي) على مدينتهم واحتلاله لها بعد أن كانت السلطة بيد (بني خطاب الهواريين) أصحاب زويلة منذ سنة 306هـ/ 1258م وقد استطاع السلطان (دونمة دبالمي) من الانتصار وتعيين والي وممثل له على (تراغن) والواقعة على بعد (20ميلا) شرق مرزوق[102] وفي عام 656هـ/ 1258م استطاع رسل ملك كانم من قتل احد أبناء قراقوش الذي أغار على مدينة (ودان) الواقعة شمال (فزان) بعد فراره من تونس ، وبعد قتله تم الطواف برأسه أمام السكان[103].

وفي مجال العلاقات الدبلوماسية فقد تبادل حكام كانم السفارات والهدايا مع حكام تونس الحفصيين، ففي سنة 655/ 1257م وصلت سفارة بلاد كانم هدايا كثيرة من ضمنها حيوان الزرافة للأمير المستنصر الحفصي[104] والأثر الحضاري الآخر للإسلام في دولة كانم – برنو

يتمثل في معرفة حكام كانم اللغة العربية والتي تعلموها بعد إسلامهم[105] كما أن التأثيرات العربية الإسلامية على دولة كانم – برنو بدأت تزداد بعد انتقال مركز الدولة (العاصمة) الى البرنو لاسيما في عهد السلطان (علي جاجي) (حكم حوالي 881-909هـ/1476 – 1503م) والذي اتخذ لنفسه لقب خليفة وقرب العلماء والفقهاء منه وقلدهم مناصب في دولته[106] وربما لقب نفسه بهذا اللقب تيمنا بالخلفاء الراشدين ﭫ ومن تبعهم من خلفاء الإسلام.

وبعد الانتقال الرسمي للعاصمة من (جيمي) في كانم إلى (كاكا) في البرنو ومن ثم تسلم السلطان (إدريس علومة) الحكم في نهاية القرن السادس عشر الميلادي أدخلت بعض الإصلاحات إلى إدارة الدولة كالتأكيد من جديد على تطبيق الشريعة الإسلامية ونقل السلطة القضائية من أيدي رؤساء القبائل إلى القضاة ، وتشييد المدارس من اللبن[107].

وفي مجال التعليم فقد بدأ تطبيق التعليم الإسلامي في برنو بحلول القرن الخامس عشر الميلادي وازداد عدد الطلبة منذ عهد السلطان (علي جاجي) فأقيمت المدارس التي كانت تستخدم للتعليم العالي كمدرسة الشيخ (أحمد فاطمي) في القرن 9هـ/ 15م، وظهرت في أواخر القرن 10هـ/16م مدرسة (كالومباردو) الواقعة على مسافة (50 ميل) شمال شرق العاصمة (جازاجامبو)، وكان من أشهر علمائها عند تأسيسها الشيخ (الوالي بن الجرمي الطارقي)، والشيخ (والديدي الفلاتي) الذي تلقى علومه في مدن تمكبتو واغاديس، وهو من اتباع الطريقة القادرية، وقد كانت مدرسة (كلومباردو) مركزا لنشر الطريقة القادرية في برنو على نحو خاص والسودان الأوسط على نحو عام، وكان العلماء المسلمون يعملون على نشر الإسلام بين وثنيي البرنو، وهو ما فعله العالم (عبد الله البرناوي) (1075هـ/1664-1665م) حينما أحيا مدرسة (كلومباردو)، وكان (عبد الله البرناوي) قد تلقى علومه على يد أحد علماء الطوارق والمسمى (أحمد الصادق بن أبي محمد اويس) والذي نشط في نشر الإسلام في تلك المناطق أيضا[108].

وفي القرن الثاني عشر للهجرة/الثامن عشر للميلاد ظهرت مدارس أخرى في البرنو لاسيما في مدينة (ماسينا) وفي العاصمة (جازارجامو)، والتي تلقى مدرسيها الدعم والإسناد من قبل السلطان على نحو مباشر كما هو الحال في بقية مدارس البرنو للحد الذي جعل منها مركزا لجذب العلماء من بقية أرجاء بلاد السودان كما أصبحت لمدن البرنو صلة مباشرة بالأزهر في القاهرة، ووصل إلى تلك المدارس علماء أندلسيون اشتهروا بالدراسات القرآنية، فضلا عن علماء أتراك[109].

للتجارة والدعاة والهجرات إلى بلاد الكانم - برنو دور كبير في انتقال المؤثرات الإسلامية إليها وتطبع سكانه بطباع العرب المسلمين في مسكنهم وملبسهم فلبسوا الخز السوسي (المصنوع في مدينة سوسة التونسية) والديباج والصوف بعد أن كانت حكرا على الحكام فقط[110] أما الوثنيون من الزغاوة فكانوا يرتدون الجلود المدبوغة يسترون بها عوراتهم فقط[111]. ولم يقتصر التواصل الحضاري بين المغرب الإسلامي وبلاد الكانم - البرنو على استيراد الكانميين للبضائع الأفريقية الشمالية بل كان هناك تبادل عكسي للبضائع، فللشب الكواري مكانة كبيرة لدى تجار مصر والمغرب الذين كانوا يستوردونه[112] كما تعلم سكان السودان الأوسط على نحو عام زراعة القطن في بلادهم من العرب المهاجرين إليهم، وقامت هناك حياكة ونسيج الملابس القطنية لسد حاجة السكان وللتصدير أيضا، وقد جذبت تلك الأقمشة القطنية المزركشة لجودتها ورخص ثمنها أنظار المستعمرين البرتغاليين في بدء حملاتهم الاستعمارية في القرن السادس عشر الميلادي وأقبلوا على شرائها وبيعها في بلادهم[113].

لقد أسهمت العلاقات القديمة بين مصر ودولة كانم في وصول الإسلام إلى كانم والتي توطدت بفعل رحلات الحج بحكم وقوع مصر في طريق الحجاج السودان وربما يكون الحكم الفاطمي لمصر ولاسيما خلال حكم المستنصر الفاطمي إيذانا بتوطيد العلاقات مع كانم على نحو خاص والسودان على نحو عام والذي تواجد أبناؤه في مصر على نحو ملحوظ حتى وصل إلى (50) ألف مقاتل في جيش المستنصر من خلال دعم أم المستنصر لهم كونهم من أبناء جلدتها[114].

وتشير الروايات التاريخية إلى زيارة سلاطين كانم - برنو إلى مصر ابتداء من السلطان (هيوم جلمي) (478-491 هجري/1085-1097م) في طريقه للحج إلا أنه توفي هناك[115]، وتبعه ابنه (دونمة بن هيوم) (491-545 هجري/1097-1150م) والذي كانت له أكثر من رحلة حج ترك في رحلته الأولى في مصر ثلاث مئة من العبيد وفي الثانية ترك ما يقارب ذلك العدد وفي الثالثة تخوف المصريون منه ظناً منهم أنه يحاول فعل شيء ضدهم فكادوا له واغتالوه، فأرسلوا من يفتح صنبور الماء في السفينة فغرق في البحر الأحمر[116] ولم تؤكد أو تكذب المصادر والمراجع العربية أمر مقتل السلطان (دونمة) لأن تلك الرواية الخاصة بمقتله مشكوك فيها ولا يمكن تصديق خوف المصريين من رجل مر من بلادهم في طريقه للحج وترك في رحلتين ستمائة عبد حررهم تقرباً لله تعالى[117].

ولم تقتصر رحلات الحج والعمرة على السلاطين والأمراء فحسب بل ضمت العامة الذين كانوا يسيرون في ركاب رحلات الحج، فأسهمت تلك الرحلات في تمتين العلاقات بين السودان ومصر، فتعرف السودان إلى العرب من خلال المشاهدة والمخالطة، ونهلوا من

ثقافتهم وأفكارهم[118]، ولم تكن مصر بمحطة عبور فقط وإنما هي مستقر للجميع الذين كانوا ينتظرون ركب الحاج المصري الذاهب إلى الحج فنهلوا خلال تلك الفترة من علوم ومعارف علمائها[119].

وحينما تزايدت أعداد أولئك المارين بمصر كحجيج أو طلاب علم فقد خصص رواق في الجامع الأزهر لسكنهم سمي (برواق برنو) أو (رواق التكرور)[120]، كما بنى أهل كانم على عهد سلطانهم (دونمة دبالمي) (618-656هـ/1221-1259م) مدرسة للفقه المالكي في القاهرة عرفت بمدرسة (ابن رشيق) وخصصت لتعليم الطلاب الوافدين من بلاد كانم ، فقد دفعوا للقاضي (علم الدين بن رشيق) مالا لبنائها فسميت باسمه ، فتدفق إليها الطلاب من معظم بلاد السودان للتعلم كما نزل بها عابروا السبيل من السودان[121].

لقد أسهم التجار الكانميين في حدوث التواصل الحضاري بين مصر وبلادهم فعملوا على استيراد البضائع وتصديرها واختلطوا بالمصريين حكاما ومحكومين، وكانت المصادر قد اطلقت عليهم اسم (تجار الكارم)[122]. وقد ظهر من بين أولئك التجار من اشتغل فضلا عن عمله بالتجارة في العلم ورواية الحديث كالتاجر (عبد الملك بن علي بن عبد الملك الكانمي) الذي حدث بمصر سنة (720هـ- 1320م) وسمع من النجيب مشيخة ابن الجوزي[123].

فضلا عن ذلك فإن المؤثرات العربية الإسلامية في دولة الكانم - برنو تبدو جلية في انتشار اللغة العربية بين العامة والخاصة وتعلم فن الخطابة وأسلوب كتابة الرسائل بالنسبة لحكامها وهو ما برز جليا في الرسالة التي أرسلها السلطان (عثمان بن ادريس) (795-829هـ/1392-1425م) إلى سلطان مصر المملوكي (الظاهر برقوق) 738-801هـ/1338-1398م) في عام 794هـ/1391م[124].

ويبدو من خلال العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبلاد كانم مدى عمق ومتانة تلك العلاقات من خلال الرسائل المتبادلة بين حكام البلدين، فمن خلال الرسائل المتبادلة بين السلطان برقوق وسلطان كانم (عثمان) يتضح لنا الأسلوب الجيد للجانبين فحينما أراد السلطان (عثمان) الكلام عن مصر قال عنها أنها (أرض الله المباركة أم الدنيا)[125]، وبالمقابل فإن السلطان (برقوق) كتب رسالة جوابية للسلطان (عثمان) فيها من الألقاب ما يرفع مكانة ذلك السلطان، فقد بدءها بقوله ((أعز الله تعالى جانب الجناب، الكريم، العالي، الملك الجليل، العالم العادل، الغازي، المجاهد، الهمام، الأوحد، المظفر، المنصور، المتوكل، فخر الدين أبي عمرو عثمان بن إدريس، .....))[126].

ويبدو أن وصول اللغة العربية وانتشارها جاء نتيجة لهجرة الكثير من العرب إلى المنطقة والذين تم تسميتهم بالشوا ، مشكلين عنصراً بارزاً في التكوين البشري لذلك الإقليم ، وانتشروا بصفة خاصة في كانم وشرقي منطقة برنو، وحول بحيرة تشاد ، كما انتشروا شرقاً في واداي[127]، ويرجع الوجود العربي في منطقة تشاد إلى حقبة تاريخية مبكرة[128]، يمكن تحديدها عقب الفتوحات الإسلامية للمغرب، والذي يُعد بداية تعرفهم إلى إفريقيا جنوب الصحراء على نحو واضح[129]، وقد تعزز اندماج العرب مع السكان المحليين من خلال التزاوج في القرون التالية ، وهكذا اختلطت القبائل العربية ببعض الدماء الإفريقية،وشكل العرب هناك عناصر ومجموعات متميزة عرفت بأسماء عديدة[130]، وأشهرها تسمية (شوا) التي أطلقها عليهم سكان الإقليم[131] وهي التسمية التي يرجع اشتقاقها من الكلمة العربية (شاة)[132] فجاءت لتعني رعاة الماشية، تمييزاً لهم عن التجار العرب الذين كانوا يمكثون مدة قصيرة في هذه البقاع، والذين أطلق عليهم اسم (وسلي) أي التجار غير المقيمين[133].

وقد اشتهر عرب الشوا في إقليم تشاد بالفروسية ، كما اشتهروا بصناعة الحديد والجلود، وكان لهم أثر كبير في انتشار العادات والتقاليد واللغة العربية التي استمروا في استخدامها، لكنها اختلطت بألفاظ سودانية[134]، ولا تزال جماعاتهم تعرف بهذه التسمية، حيث يتواجد قسم منهم في الشمال الغربي من نيجيريا بالقرب من بحيرة تشاد[135].

الهوامش

(1) J. S. Trimingham , The Influnce Of Islam Upon Africa (London : 1968). P .17.

(2) دولة كانم: وهي دولة نشأت في إقليم السودان الأوسط،وقد اقترنت حدود كانم في بداية تشكيلها بحدود مملكة الزغاوة، ويحيط بكانم من الشمال كوار وفزان، ومن الجنوب بحيرة كوري (تشاد). انظر: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، كتاب الجغرافية، (بيروت: 1970)، ص94؛ عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر أبو الفداء، تقويم البلدان، (باريس: 1850)، ص163. وكانم اسم بلدة بنواحي غانة جنوب المغرب. انظر: أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، (بيروت: 1968): 15/7

(3) الزغاوة: بفتح أوله وفتح الواو اسم جنس وبلد من السودان، انظر: الحموي، معجم البلدان: 142/3 . ويفسر البعض كلمة زغاوة بأنها مشتقة من كلمة سك أو سغ ومعناها معسكر في لغة تماشك وهي لغة نبلاء الطوارق . انظر: إبراهيم علي طرخان، امبراطورية البرنو الإسلامية، (القاهرة: 1975)، ص50 . للمزيد حول امبراطورية كانم ـ برنو انظر: شوكت عارف محمد، دولة كانم الإسلامية دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية، من القرن 5ـ 8هـ / 11 ـ 14 م) ، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: 1996).

(4) J. S. Trimingham, A History of Islam in west Africa, (London, oxford university: 1968), London :1968), P.69. P.240; Maragreat Shinne, Ancient African Kingdoms

(5) وهو سيف بن ذي يزن بن أصبح مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري، (516–574م) من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم، قيل أن اسمه معد يكرب ،وكان له شأن كبير في تاريخ العرب بمحاولته طرد الأحباش من اليمن حوالي سنة (570م) . للمزيد ينظر: الطبري، تاريخ الرُسل: 444/1؛ ابن خلدون، العبر: 62/2–66؛ الزركلي، الأعلام: 219/3؛ الشنتناوي، دائرة المعارف الإسلامية (مادة: سيف بن ذي يزن): 3/13–6.

(6) اليعقوبي، تاريخ: 164/1؛ المسعودي، مروج الذهب: 422/1؛ القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (بغداد: 1332هـ)، ص25.

(7) حسين مؤنس، فزان ودورها في انتشار الإسلام في إفريقيا ،بحث منشور في مجلة كلية الآداب /الجامعة الليبية، ع3 (بنغازي: 1969)، ص99. ودارفور: ولاية من ولايات السودان الشرقي يسكنها الزنوج من العرب المهاجرين والمولدين، وقد تأسست هذه السلطنة في القرن السابع عشر الميلادي. انظر: دائرة المعارف الإسلامية: 9/ 83.

(8) ابن خلدون، العبر: 71/1.

(9) مؤنس، فزان، ص99.

(10) اليعقوبي، تاريخ : 1 / 166; Murphy , History , P . 145

(11) ياقوت الحموي، معجم البلدان: 142/2 .

(12) البكري، المغرب، ص179.

(13) عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، (القاهرة: 1962) ، ص363–364.

(14) الأصطخري، المسالك والممالك، (القاهرة: 1961)، ص4-35.

(15) اليعقوبي، البلدان، ص345.

OLIVER AND FAGE, P. 82 . (16)

(17) الطيبي، كانم - برنو، ص122 .

(18) إدريس صالح الحرير، العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام هناك، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، س5، ع1، (يناير: 1983) ، ص77.

(19) مؤلف مجهول، الاستبصار، (الإسكندرية: 1958) ، ص146 .

(20) دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الإنكليزية، ط2، 540/4.

(21) العمري، مسالك الأبصار، ص55؛ القلقشندي، صبح الاعشا 271/5

(22) الطيبي، كانم - برنو، ص122 .

(23) أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، (الجزائر: 1979)، ص4-46.

(24) ألن عذاري، البيان المُغرب، (بيروت: 1967): 73/1.

(25) محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، (بيروت: 1976)، ص120 .

(26) إسماعيل، المرجع نفسه، ص211 .

(27) أبو الربيع الوسياني، سيرة أبي الربيع بن عبد السلام الوسياني (مخطوط)، دار الكتب برقم (9113ح) رقم 4 نقلاً عن إسماعيل، الخوارج، ص224.

(28) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 219/1 .

(29) البكري، المُغرب، ص13

(30) الإدريسي، صفة المغرب، ص12.

(31) الإدريسي، المصدر نفسه، ص12-13 .

(32) شمس الدين الكيلاني، الآخر في الثقافة العربية - صورة الشعوب السوداء عند العرب في العصر الوسيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دمشق: 2009)، ص372.

(33) صباح إبراهيم الشيخلي، الوجود العربي في كانم في السودان الأوسط حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، منشور في مجلة المؤرخ العربي، ع35، س14، 1988، ص126 .

(34) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص133.

(35) أبن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص114 .

(36) المغربي، المصدر نفسه، هامش المحقق، ص228.

(37) المغربي، نفسه، ص114.

(38) المغربي، نفسه، ص115.

(39) المغربي، الجغرافيا، ص95.

(40) الشيخلي، الوجود العربي، ص126 .

(41)) طرخان، امبراطورية البرنو، ص67.

(42) شوكت عارف محمد، دولة كانم الإسلامية دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية من القرن (5-8هـ/11-14م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: 1996)، ص56.

(43) القلقشندي، صبح الأعشا: 5/268-269.

(44) حسن، انتشار الإسلام، ص130؛ باري، المسلمون، ص136.

(45) الطيبي، كانم - برنو، ص123.

(46) طرخان، امبراطورية البرنو، ص111.

(47) طرخان، البرنو، ص112-113.

(48) نوري، تاريخ، ص174.

(49) شلبي: 6/292

(50) نوري، تاريخ، ص174.

(51)) شلبي: 6/292-293.

(52) جبال أير: وهي منطقة جبلية في دولة النيجر الحالية

(53) باري، المسلمون، ص138.

(54) زكي، تاريخ الدول، ص188 .

(55) زكي، المرجع نفسه، ص185.

(56) طرخان، امبراطورية البرنو، ص122 .

(57) طرخان، المرجع نفسه، ص127-128 .

(58) أغاديس: تقع اليوم في جمهورية النيجر، وسماها الحسن الوزان أغدس، وهي مدينة مسورة بناها الملوك المحدثون (أي على عهده) في تخوم ليبيا وهي مدينة السود التي تكاد تكون أبهى من مدن البيض باستثناء ولاته. ينظر: الوزان، وصف أفريقيا: 2/171-172.

(59) باري، ص138-139.

(60) قداح، إفريقيا الغربية، ص85.

(61) كوكا: تقع شمال شرق نيجيريا.

(62) باري، المسلمون، ص139-140.

(63) محمد، دولة كانم، ص56.

(64) طرخان، امبراطورية البرنو، ص67. وهيوم جلمي أسمه الوثني الذي تغير بعد إسلامه إلى (محمد بن جيل أو عبد الجليل). ينظر: أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، (القاهرة: 1963): 306/1؛ محمد، دولة كانم، ص85.

(65) المغربي، الجغرافيا، ص95 .

(66) إبراهيم صالح بن يونس، تاريخ الإسلام، ص61؛ الشيخلي، الوجود العربي، ص128.

(67) القلقشندي، صبح الأعشا: 17/5.

(68) طرخان، برنو، ص67–68.

(69) الطيبي، كانم – برنو، ص122.

(70) TIRMINGHAM . P.115 .

(71) Palmer, Sudanese memoirs , vol 3, p. 3-5.

(72) جوزيف، الإسلام، ص94.

(73) محمد، دولة كانم، ص65.

(74) AL - Nagar : the pilgrimage tradition west africa (Khartoum : 1972), vol. iv, p. 511.

(75) Ency of Britiannica (Art : Chad) , Vol . 3, P .15

(76) Trimingham, The influence, p. 18.

(77) محمد، دولة كانم، ص66.

(78) طرخان، امبراطورية البرنو، ص85؛ زكي، تاريخ الدول، ص177.

(79) طرخان، المرجع نفسه، ص69.

(80) Airmingham, A History, P. 116.

(81) زكي، تاريخ الدول، ص178.

(82) طرخان، امبراطورية البرنو، ص85.

(83) أبن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص95؛ دافدسون، إفريقيا القديمة، ص52.

(84) Smith : The early states of the central í VOL. 1, P. 169.

(85) ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص94؛ الطيبي، كانم – برنو، ص118.

(86) الطيبي، كانم – برنو، ص123.

(87) الطيبي، المرجع نفسه، ص123.

(88) دافدسون، أفريقيا القديمة، ص52.

(89) السخاوي، الضوء اللامع: 126/5.

(90) محمد، دولة كانم، ص129.

(91) الطيبي، كانم – برنو، ص119.

(92) القلقشندي، صبح الأعشى: 8/117–118 .

(93) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (برنو) : 3/587؛ محمد، دولة كانم، ص131.

(94) طرخان، برنو، ص151.

(95) الوزان، وصف أفريقيا: 1/61.

(96) طرخان، إمبراطورية البرنو، ص95 .

(97) محمد، دولة كانم، ص126–127.

(98) Trimingham, A History , p. 122.

(99) نوري، تاريخ الإسلام، ص168.

(100) عبد الجليل، تاريخ وحضارات، ص435؛ محمد، دولة كانم، ص128.

(101) القلقشندي، صبح الأعشى: 5/271؛ الطيبي، كانم – برنو، ص119.

(102) ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص95.

(103) عبد الله التجاني، رحلة التجاني، (تونس: 1958)، ص111 .

(104) ابن خلدون، العبر، (بيروت: 1959) : 6/652 .

(105) Trimingham, AHistory, P.107

(106) الطيبي، كانم – برنو، ص123.

(107) الطيبي، المرجع نفسه، ص123.

(108) الطيبي، كانم، ص124.

(109) الطيبي، المرجع نفسه، ص124 .

(110) الحموي، معجم البلدان: 3/142 .

(111) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص12.

(112) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص24–26.

(113) الطيبي، كانم – برنو، ص126.

(114) المقريزي، المواعظ والاعتبار: 2/12 .

(115) محمد، دولة كانم، ص80.

(116) Alnaqar, p.28

(117) محمد، دولة كانم، ص81.

(118) دريد عبد القادر نوري، دور الحج في ربط السودان الغربي بمصر بعد قرن 5 هجري/11م، بحث منشور في مجلة رسالة الخليج العربي، ع9، (الرياض: 1983) ، ص254.

(119) أمين، علاقات دولتي، ص292.

(120) العمري، مسالك الأبصار، ص56 هامش رقم (22) . والرواق: هو منزل معد لسكن الطلبة، وينقسم إلى غرف ومرافق، ويلحق بالأروقة (الحارات) وهي أشبه بالرواق غير أنها تختلف عنها بعدم وجود محل للنوم. ينظر: مصطفى بيرم، تاريخ الجامع الأزهر، (القاهرة: 1902) ، ص16-17؛ محمد، دولة كانم، ص82.

(121) المقريزي، المواعظ : 365/2.

(122) تجار الكارم: لازال أصل كلمة كارم (Karimi) مجهول وذلك لعدم وضوح المصادر والمراجع في هذا الموضوع من ذلك ما ذهب إليه القلقشندي أن التسمية ربما تكون محرفة عن كلمة (كانم) بينما يرى المؤرخون من المحدثين أن التسمية مأخوذة من (Kuarima) وهي لفظة أمهرية تعني الهيل أو الحبهان. ينظر: القلقشندي، ضوء الصبح المسفر، ص253؛ عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، بحث في المجلة التاريخية المصرية، مج22، (القاهرة: 1975) ص25.

(123) العسقلاني، الدرر: 2 /415.

(124) طرخان، امبراطورية البرنو، ص100 .

(125) القلقشندي، صبح الأعشى، 117/8 .

(126) القلقشندي، المصدر نفسه، 117/8.

(127) واداي: وتقع في غرب سلطنة دافور وتحدها من الغرب والجنوب الغربي الكانم والباقرما ومن الجنوب الشرقي دار رنفة، وقد اكتسبت بفضل موقعها على الطريق التجاري مركزاً ممتازاً. انظر: نوري، تاريخ الإسلام، ص302 .

(128) طرخان، برنو، ص 29.

(129) القلقشندي، نهاية الارب، ص19.

(130) من الأسماء التي أطلقت على العرب في منطقة تشاد: اروا ـ Aroua، وارمكا ـ Aramka، وسولنج ـ Solang، وتعني الأخيرة عند الفور عربي بدوي. انظر: طرخان، إمبراطورية البرنو، ص 30 .

(131) Trimingham, Islam , P . 17.

(132) عابدين، صور من وحدة الفكر، ص62.

(133) حسن، الجذور التاريخية، ص40 ؛ دائرة المعارف الإسلامية، (مادة: برنو): 581/3 .

(134) طرخان، امبراطورية البرنو، ص32.

(135) سليم حكيم، تعليم اللغة العربية في نيجيريا، (بغداد: 1966) ، ص67.

الفصل السادس

انتشار الإسلام في السودان الغربي

أولاً : وصول الإسلام وازدهاره في السودان الغربي

ثانياً : قيام الدول الإسلامية :

1- دولة غانة

2- دولة مالي

3- دولة السنغاي

ثالثاً : دعوة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية

رابعاً : قيام دولة سكوتو الإسلامية

خامساً : العلاقات الدبلوماسية للسودان الغربي

سادساً: التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية في السودان الغربي

أولاً : وصول الإسلام وازدهاره في السودان الغربي :

يمثل السودان الغربي جزءاً كبيراً من أجزاء بلاد السودان الكبرى، إذ يمتد من ثنية نهر النيجر في الشرق، حتى المحيط الأطلسي في الغرب، ويحده من الشمال الصحراء الكبرى ومن الجنوب الغابات الاستوائية[1]، ويقع ضمن خط عرض 5-25 درجة شمالاً، وبين خطي طول 17 غرباً - 15شرقاً[2]، ولم يكن ذلك القسم مجهولاً لدى الجغرافيين والمؤرخين المسلمين ،فقد ظهر على نحو واضح في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي حينما ذكر الفلكي الفزاري بأنه توجد عبر الصحراء بلاد تسمى غانة " أرض الذهب"[3].

ويضم هذا القسم العديد من الممالك منها مملكة غانة التي ينتسب سكانها كما ذكر المسعودي إلى أولاد (كوش بن حام بن نوح عليه السلام)، وذلك بعد انقسامهم إلى فرقتين فكانت غانة من الفئة التي اتجهت غرباً[4]، وذكر القلقشندي أن غانة هي قاعدة إقليم صوصو، وموقعها خارج الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب[5]، وهناك مملكة أخرى في ذلك القسم وهي مملكة مالي ،وقد تحدث عن ملكها المؤرخ ابن خلدون قائلاً: ((وملك مالي أعظم ملوك السودان لعهده مجاوراً لملكه بالمغرب على ماية مرحلة في القفر من ثغور ممالكه القبلية))[6]، ومملكة كاغو،أيضاً من ممالك السودان الغربي[7].

وتشير الدلائل إلى أن العلاقات العربية الإفريقية في تلك المنطقة كانت تسير بخطى بطيئة قبل الإسلام بسبب صعوبة السفر عبر الصحراء التي كانت تخلو من السكان ماعدا البربر الرُحل العاملين في رعي الماشية والباحثين على نحو مستمر عن الماء والكلأ اللذين ما أن تواجدا حتى استقر أولئك الناس حولهما فتكونت بمرور الزمن واحات سكانية ازداد قاطنوها بمرور الزمن[8].

وكانت تلك الواحات قد شهدت تطوراً كبيراً تمثل في بدء استقرار أولئك البدو الرعاة حولها ، وقد أكدت التنقيبات الأثرية في غرب إفريقيا عن وجود حضارات قديمة في المنطقة لاسيما حول حوض النيجر[9]، إلا أن ما يهم في الأمر هو أن تلك المراكز حول واحات الصحراء شجعت الكثير من الراغبين بالتجارة بعبور الصحراء وصولاً إلى السودان الغربي، فقد مثلت تلك الواحات مصدراً للتزود بالماء والطعام فضلاً عن الحصول على دليل من بين أبناء المنطقة، ونتيجة لثورات البربر المستمرة في المغرب وما امتازوا به من خروج على السلطة هناك، فقد مثلت الصحراء مكاناً لاستقرار كل هارب من الدولة وبالتالي تكوين تجمعات سكانية.

وكان لزحف القبائل العربية نحو الصحراء وبالتالي نحو الجنوب دور كبير في وصول التجار المسلمين إلى المنطقة، وربما يكون للمسلمين الدور الكبير في الوصول إلى نهري النيجر والسنغال المكان الذي لم يسبقهم إليه أحد ، فالرومان مثلاً لم يستطيعوا التوغل جنوباً واكتفوا ببناء خط من الثغور لحماية حدودهم من هجمات القبائل الزنجية[10].

لقد تدفق العرب والبربر نحو الصحراء الكبرى كمهاجرين وتجار لاسيما بعد حدوث بعض الاضطرابات السياسية في بلاد المغرب كثورات الخوارج الصفرية والأباضية ضد الدولة الأموية كثورة (ميسرة المطغري) والتي نجم عنها قيامه بتأسيس دولة له في سجلماسة سنة (140هـ/758م) عُرفت بدولة (بني واسول) أو (بني مدرار) والتي استمرت حتى عام (296هـ/909م)، كما استطاعت ثورة أخرى بقيادة (أبي الخطاب المعافري) في المغرب الأدنى من تأسيس دولة في طرابلس سنة (140هـ/758م) لم تستمر طويلاً وأُسقطت من قبل العباسيين سنة (144هـ/761م) كونها خارجة عن سلطتهم[11]. ويبدو أن الهاربين من هناك اتجهوا نحو الجنوب وصولاً إلى السودان الغربي.

وعلى أثر تلك الهزيمة التي تلقاها الأباضية على يد العباسيين فر والي القيروان (عبد الرحمن بن رستم) إلى جنوب الجزائر الحالية ليعتصم في منطقة (تاهرت) الوعرة والتي يصعب على الجيوش العباسية اجتيازها، فقرر (عبد الرحمن بن رستم) إعلان نفسه إماماً في المدينة سنة (160هـ/777م)[12].

إن ما يهم في الموضوع هو قيام الإمارة الرستمية بإقامة تجارة واسعة مع السودان الغربي أسهمت على نحو كبير في نشر الإسلام بالمنطقة وكانت تلك الدولة تضم أراضي واسعة للحد الذي جعل أملاكها تصل إلى المغرب الأوسط والأدنى الشاملة لأغلب أراضي الجزائر وتونس وغرب وجنوب ليبيا حتى مشارف نهري النيجر والسنغال مما ساعدها على السيطرة على مناطق استراتيجية تشرف على خطوط التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها ومكنتها من الحصول على مواد السودان الغربي التجارية كالعاج والذهب وريش النعام وغيرها[13].

إن طول فترة بقاء التاجر المسلم في إفريقيا وجب عليه الاستقرار في ذلك البلد وتكوين أُسرة من خلال مصاهرة الأفارقة وزرع بذور عائلة مسلمة في تلك البلاد[14]، لاسيما بعد أن عرف الجانبين المسلم والوثني الأفريقي أن لدى كل منهما ما يفيد الآخر، فالتاجر المسلم يرغب في الحصول على الذهب والعاج وريش النعام والأخشاب وغيرها، والتاجر الوثني الإفريقي سيحصل على الحبوب والملابس والملح الذي يحتاجه الأفارقة على نحو كبير لتعويض ما يفقده الجسم من خلال التعرق فيتم استبدال حمل الملح بحملين من الذهب[15].

ومن البديهي أن تقوم نتيجة التبادل التجاري ذاك مدن تجارية على جانبي الصحراء كمدينة سجلماسة على الجانب المغربي من الصحراء، ومدينة أودغست[16] على الجانب الإفريقي منها والتي مثلت حلقة تواصل بين الجانبين، مما ساعد المدينتين على التقدم الحضاري لاسيما في الجانب الاقتصادي، وأفادت مدينة أودغست من عملية تجارة الملح فأخذ حاكمها الوثني الضرائب عن كل حمل ملح يخرج من بلاده متجهاً إلى بلاد السودان[17].

لقد تدفق التجار المسلمون إلى داخل بلاد السودان الغربي وصولاً إلى مناطق تقع على حافات الغابات الاستوائية المطيرة الواقعة بالقرب من خط الاستواء ناقلين معهم الملح الذي يتم مبادلته بالذهب من خلال تجارة تم تسميتها بالتجارة الصامتة[18]، ويشير الجغرافي (ابن حوقل) الذي زار مدينة (أودغست) سنة (340هـ/951م) أن ثمن حمل الملح كان يتراوح بين مائتين وثلاثمائة دينار من الذهب[19]، فيما يشير المؤرخ والجغرافي البكري إلى أن ملك غانة الوثني حافظ على ثروة بلاده من الملح فارضاً ضريبة قدرها دينار ذهب على كل حمل يدخل بلاده وديناران على كل حمل يغادرها[20].

وعلى عهد الرحالة ابن بطوطة والذي زار السودان الغربي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي كان حمل الملح يعادل عشرة مثاقيل من الذهب ويصل أحياناً إلى أربعين[21]، ويبدو أن تجارة الملح والذهب وغيرها من المواد نقلت إلى السودان الغربي خبرات التجار المسلمين من العرب والبربر سواء كانت تلك الخبرات تجارية أم كانت تصب في مجال آخر، فأوصلت إلى المنطقة تجار مسلمين أكفياء يمتلكون معلومات في مجالات متعددة كان السودان بأمس الحاجة لها، وحينما سمع ملك غانة الوثني بتلك الخبرات والقُدرات التي كانت موجودة لدى أولئك التجار قرر تقريبهم من مجلسه فأصبح صاحب بيت ماله وتراجمته ووزراؤه من المسلمين، كما أن تلك العملية أسهمت في تعريف ذلك الملك بالإسلام وبمبادئه مما دعاه للتسامح مع المسلمين المتواجدين في بلاده، فسمح لهم ببناء المساجد حتى أصبح في المدينة اثنا عشر مسجداً فضلاً عن وجود مسجد بالقرب من قصر الملك يصلي فيه ضيوفه من المسلمين ، كما عفا المسلمين من مسألة تقديم التحية الوثنية لهم والمتمثلة بوضع التُراب على الرأس واكتفى بالطلب منهم أن يصفقوا حينما يدخلوا عليه[22].

ويشير ابن حوقل إلى كثرة التجار المسلمين في المدن التجارية المغربية والسودانية وتعاملهم بنظام تجاري متطور، فذكر أنه شاهد صك في مدينة سجلماسة بمبلغ (24,000 ألف دينار ذهب) لتاجر من مدينة أودغست على تاجر آخر من مدينة سجلماسة، قائلاً أنه لم يرى سابقاً صكاً بمثل تلك القيمة الكبيرة[23].

وكانت كل مدينة من تلك المدن التجارية قد تخصصت في الاتجار بمادة مُعينة، فتغازى كانت تشتهر بتجارة الملح، بينما اشتهرت مدينة (تكدا) بسبك النحاس والاتجار به بعد تصنيعه على شكل قضبان تُنقل إلى مصر والمغرب والبرنو ومالي، كما اشتهرت مدن أخرى بتنظيم التعاملات التجارية واستقبال القوافل التجارية كمدينة ولاته[24] التي يتجمع فيها التجار المغاربة والسودان على حد سواء ، كما أنها محطة لتزود القوافل بالماء والطعام والادلاء والراحة[25].

ثانياً : قيام الدول الإسلامية :

1- دولة غانة :

إن أولى الدول التي قامت في السودان الغربي هي دولة غانة التي كانت تضم الأراضي الواقعة بين نهري النيجر والسنغال، وقد ظهرت عدة تفسيرات لمعنى كلمة غانة منها أنها تعني بلغة سكان المنطقة (اللغة الماندية) (أمير الجيوش) أو (قائد الجيوش)[26]، أما في لغة سكان غانة نفسها (السوننك) فتعني (القيادة العسكرية)[27] كما أن كلمة غانة استخدمت لتكون أسماً للبلاد بعد أن كانت لقباً لملكها وتعني زعيم الحرب أو (القائد الأعلى)[28].

فيما يتعلق بنشوء مملكة غانة فإن المؤرخين والجغرافيين لم يتطرقوا لتلك الدولة، إلا أن المراجع الحديثة ومن خلال القصص المتواترة لدى شعوب المنطقة أو اعتماداً على المكتشفات الأثرية ذكرت لنا معلومات وافية عن نشوئها، ويذكر المؤرخ (محمود كعت) أن عشرين ملكاً تعاقبوا على حكم المملكة قبل قيام الدعوة الإسلامية[29]، في حين يشير المؤرخ السعدي إلى أن أربع وأربعين ملكاً تعاقبوا على حكم غانة اثنان وعشرون ملكاً قبل الإسلام واثنان وعشرون بعده[30].

والمهم في الأمر هو أن المملكة قد بدأت بالنمو والازدهار مع دخول الإسلام فيها على يد مجموعات من التجار والمهاجرين العرب والبربر المسلمين الذين اختلطوا بالسكان الأصليين، وقد اختلفت المصادر حول أصول سكان غانة، فوثائق دولة الهوسا تشير إلى أنه كان يُطلق على السكان اسم (التورود) أو (التوروث) وأن أصولهم بابلية أو أشورية تعود إلى وادي دجلة والفرات، وربما تعود جذور هذا الرأي إلى احتمالية وصول مهاجرين آشوريين من مصر لاسيما بعد الفتح الآشوري لها سنة (677 ق.م)[31]، فضلاً عن وصول مجموعات أخرى من خلال العلاقات التجارية للآشوريين مع الصومال والحبشة[32].

فضلاً عن ذلك فإن هناك من يرجع أصولهم إلى (كوش بن حام بن نوح) من خلال القول

((أن أولاد حام افترقوا فرقتين ، الأولى قصدت الغرب وهم زغاوة وكوكو وغانة ، فالذين غربوا وسلكوا نحو المغرب فقطعوا البلاد فصارت لهم عدة ممالك منها مملكة غانة وملكها عظيم الشأن))[33].

وعلى الرغم من كُل ذلك فإن أغلب الآراء اجمعت على أن أصول سكان مملكة غانة تعود إلى الجنس الأبيض الناجم عن هجرة قبائل البربر من المغرب الإسلامي نحو الجنوب مسيطرين على سكان البلاد الأصليين ومندمجين معهم لاسيما قبائل السوننك لينجم بعد ذلك جيل جديد من الملوك السود[34]. ويبدو أن سكان غانة الأوائل هم من البيض وليسوا من السود ولا يُعرف من أي قبيلة هم، إلا أنه من المُرجح أنهم من صنهاجة المؤلفة من اتحاد عدة قبائل (لمتونة – مسوفة – جدالة)[35].

بينما يرى المؤرخ ((Murphyأن أصول سكان غانة تعود إلى الماندنجو[36]، الذين يؤلفون مجموعة قبائل ناطقة باللغة الماندية، وكان من بين تلك القبائل قبيلة السوننك المتميزة بتنظيمها السياسي[37]، وقد وصفوا بالذكاء والمهارة والأمانة ، فضلاً عن دورهم الكبير فيما بعد في نشر الإسلام[38].

وهناك من يؤكد أن سكان غانة خليط من العرب والزنوج ، إلا أن الرأي الأرجح أن نسبة البربر لاسيما من قبيلة صنهاجة كانت تمثل العنصر الأكبر الذي خالط سكان غانة الأصليين من الزنوج، نسبة للقرب الجغرافي بين مواطن الشعبين، فهناك عادات وتقاليد متشابهة بينهما كعادة توريث ابن البنت أو ابن الأخت المتبعة في غانة والتي كانت تُتبع عند البربر، كما أن تقديس الأصنام هي السائدة بين الشعبين قبل إسلامهم[39]، فضلاً عن ذلك فإن للعرب دور كبير في الاختلاط بالغانيين للحد الذي جعل دماءهم عربية حتى وصفوا بأنهم (أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً، سبط الشعور، فيهم عقول وفهم))[40].

وهناك من يقول أن قوماً يسمون (الهنيهيين) وهم من ذرية الجيش الذي أرسله الأمويون إلى غانة وهم بيض الألوان حسان الوجوه وهم يدينون بدين أهل غانة لكنهم لا يتصاهرون معهم[41]. ويبدو أن ذلك الجيش يتمثل في الحملات الاستطلاعية التي كانت تصل إلى الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، كما أن إدانتهم بدين أهل غانة لا تعني اعتناقهم الوثنية وإنما تعني الطاعة لملك غانة كحاكم[42].

وفيما يتعلق بنظام الحكم في غانة لاسيما قبل إعلان ملوكها إسلامهم فهو نظام ملكي مُطلق، إذ يتمتع الملك بنفوذ وسلطة واسعة وحكمه كان مركزياً إلا أن ذلك الحكم لم يكن

تسلطياً استبدادياً ، إذ أشتهر ملوكها بالعدالة وحُب الرعية ، وقد توالى على حكم غانة (22) ملك قبل بعثة النبي محمدﷺ [43]، يُطلق على أولهم لقب (كيمع) وتعني (ملك الذهب)[44]، وأشار المؤرخ السعدي إلى أن ذلك الملك كان يمتاز بالعدل والسهر على قضاء حوائج الناس، إلا أن الاضطرابات والصراع على السلطة أنهى حكم الملوك الأوائل ليبدأ حكم الملك (كنسعى) المعاصر للبعثة النبوية الشريفة[45] وكان من بين أهم أعماله اتخاذه عاصمة جديدة لدولته بعيدة عن الاضطرابات والمشكلات التي حدثت قبل تسلمه السلطة، وقد تبعه في السلطة عدة ملوك لم تشر المصادر إلا إلى بعضهم كالملك (بينتجوي دوكوري bentigui Doukoure)(حكم حوالي سنة 790م) .

كما ذكر المؤرخ إبراهيم علي طرخان أن ملك آخر اسمه (تكلان) حكم حوالي القرن (3هـ/9م)، وبعده وصل السلطة الملك (تلوثان أو بولاتان Tlouton Or Bolatan) والذي حكم حوالي سنة (837م)[46] وخالف ما كان يتبعه أسلافه في تولية العرش من خلال قيامه بتنصيب ابنه بدلاً من ابن أخته[47].

وفي دلالة على قلة المعلومات عن ملوك غانة لاتصلنا سوى إشارة واحدة عن ملك توفى سنة (455هـ/1063م) من خلال كتاب المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكري والذي وصفه بقوله: ((كان محمود السيرة محباً للعدل مرشداً للمسلمين))، كما يقول عن ابن أخته الذي تبعه في الحكم أنه قرب المسلمين منه وسلمهم أموراً كثيرة فأختار منهم صاحب بيت ماله وتراجمته ووزرائه[48].

فضلاً عن ذلك فقد شمل تسامح ملوك غانة مع المسلمين المتواجدين في المملكة، فتم إعفاءهم من أداء التحية التي يحيي بها سكان غانة ملوكهم والتي وصفها البكري بقوله: ((فإذا دنا أهل دينه (الملك) منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم))[49]، كما تعامل رعية الملك مع المسلمين المتواجدين في بلادهم بالأسلوب نفسه الذي تعامل به ملكهم مع أولئك المسلمين فقد تعايشوا سوية في مدينة غانة، ويصف المؤرخ البكري تلك المدينة بقوله: ((مدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدهما يجتمعون فيه ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم، ومدينة الملك على بُعد ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينها متصلة، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين))[50].

ولم يقتصر الأمر على عاصمة غانة فقط ، فقد كانت المُدن والبلدات التابعة للمملكة تحترم

المسلمين وتقدرهم كسكان بلد (غرانتيل) الذين كانوا يحتفون بقدوم المسلمين ويكرمونهم ويفسحون لهم الطريق إذا ما مروا من شوارعهم[51].

وربما يثير أحدنا تساؤل حول التناقض في المسألة فكيف يقرب ملك غانة المسلمين منه ويسمح لهم ببناء المساجد وهو لا يزال على الوثنية؟ وللإجابة عن ذلك السؤال لابد من القول أن الملك ربما يكون قد أسلم وأخفى إسلامه لكي لا يصطدم بالتقاليد الوثنية التي تمنحه السلطة وطاعة الشعب فحال إعلانه الإسلام سوف يفقد كل صلاحياته ومن بينها فقدانه لبعض المكتسبات ومنها حرمان ابن أخته من ولاية العهد[52]، كما أن أولئك الملوك الوثنين كانوا يعملون جاهدين على رفع مكانتهم بين الناس كونهم ممثلي الآلهة على الأرض موهمين الرعية بامتلاكهم للمعجزات وأنهم لا يأكلون ولا يشربون ولن يصيبهم أذى فالملك (بسي) لم يكتشف الناس أنه أعمى إذ كان يوهمهم أنه يبصر كي لا يفقد احترامه[53] ومن بين حكام غانة الذين أسلموا وأخفوا إسلامهم حاكم مدينة الوكن التابعة لملكة غانة[54].

إلا أن ذلك التسامح مع المسلمين وربما الرغبة في اعتناق الإسلام لم تمنع ملك غانة الوثني من احتلال مدينة أودغست التي كانت تمتلك مهمة تصدير الملح إلى غانة مقابل الحصول على ضرائب، فكانت عملية الاحتلال بمثابة التخلص من دفع تلك الضرائب، وهو ما دفع بالمرابطين للتفكير ملياً في استرداد المدينة والوصول فيما بعد إلى عاصمة غانة لاسيما بعد أن وسع ملك غانة الوثني (تينكامنين) سنة 455هـ/1063م حدود دولته لتضم مدناً عدة كأنبارة وغيارو وسامة وسنقوا وكوغة والوكن وونقارة وملل وتيرقي[55].

كانت جهود عبد الله بن ياسين في تثبيت الإسلام بين قبائل صنهاجة قد أتت أُكلها مما ساعد على مد جهود المرابطين نحو جنوب الصحراء والتي تكللت في سنة (469هـ/1076م) بفتح عاصمة غانة (كومبي صالح) لاسيما على عهد (أبو بكر بن عمر اللمتوني) الذي قاد حملة المرابطين لفتح غانة[56]، ويشير المؤرخ الزهري إلى ذلك بقوله: ((أن أهل هذه البلاد (جناوة) كانوا يتمسكون فيما سلف بالكفر إلى سنة تسع وستين وأربعمائة وذلك عند خروج (يحيى بن أبي بكر) أمير مسوفة وأسلموا في مدينة لمتونة وحسن إسلامهم وهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقُراء))[57].

إلا أن المؤرخ الزهري جعل من جناوة عاصمة لغانة في حين أن كومبي صالح هي العاصمة، كما أنه جعل قائد جيش فتح غانة (يحيى بن أبي بكر اللمتوني) في حين أن القائد هو (أبو بكر بن عمر اللمتوني) وهو الأمر الذي أكده ابن أبي زرع في روايته عن فتح المرابطين

لغانة بقوله: ((بعد اختلال أمر الصحراء نتيجة ثورة جدالة عام 453هـ/1061م ترك أمير المرابطين (أبو بكر بن عمر) أمر المغرب لأبن عمه (يوسف بن تاشفين) وارتحل بنصف جيش المرابطين إلى الصحراء فهدنها وسكن أحوالها وجمع جيوشاً كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان فجاهدهم حتى فتح بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر))[58].

وتوجه بعد ذلك إلى المغرب ليسترد ملكه فلم يستطع، فعاد مرة أخرى إلى الصحراء ليقيم بها يجاهد كفار بلاد السودان إلى أن استشهد في إحدى غزواته سنة (480هـ/1087م) بعد أن أصبحت الصحراء وبلاد السودان طوع أمره[59].

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الإسلام في بلاد السودان لاسيما الغربي منه لم يكن ليتم بواسطة الجهد العسكري وإنما بجهود التجار والدعاة الذين حولوا المنطقة إلى منطقة إسلامية ، وفي الوقت نفسه ومع حلول سنة (469هـ/1076م) وضع المرابطون حاكماً مسلماً وأعلنوا فتحهم لغانة بالكامل، واستمر حكمهم لها حتى سنة (480هـ/1087م)[60].

وعلى الرغم من أن للمرابطين دور واضح في إعلان غانة دولة مسلمة على نحو رسمي إلا أن سكانها الأصليين كانت لهم الرغبة الصادقة في دخول الإسلام قبل دخول المرابطين، كما بدأوا بعد ذلك بالجهاد ضد القبائل الوثنية المحيطة ببلادهم، وربما كان لقبيلة السوننك الدور الكبير في عمليات الجهاد تلك، فضلاً عن دورهم في زج العديد من الدُعاة في المنطقة حتى أصبحت كلمة سوننك تعني داعية في المنطقة، كما ادعى حاكم غانة أن نسبه يعود إلى العلويين[61]، وسمى عاصمة دولته بكومبي صالح أي (مدينة صالح) نسبة إلى بني صالح وهم بطن من بطون بني الحسن السبط من بني هاشم[62]، وكان ذلك الملك يخطب لنفسه لكنه تحت طاعة الخليفة العباسي[63].

ويذكر الإدريسي أن قصر ملك غانة بُني سنة (510هـ/1116م) وأن الخليفة العباسي المعاصر له هو المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي (487-512هـ/1094-1118م)[64]. ويبدو أن حكام غانة كانوا متمسكين بالإسلام وبخلافته أشد تمسك وهو ما جعل الملك الغاني يخطب للخليفة العباسي.

لقد اهتم ملوك غانة بعد دخولهم الإسلام في تطوير الجيش وتدريبه وتزويده بأفضل الأسلحة للتصدي للقبائل الوثنية[65]، فيصف المؤرخ والجغرافي القرماني ملك غانة على زمانه بأنه (كثير الجهاد للكفار وبذلك عُرف بيته)[66] فقد أدخل العديد من المُدن الوثنية تحت طاعته لاسيما الواقعون جنوب غانة[67]، وكانت قوة جيش غانة بعد الإسلام تكمن في البدء باستخدام

الأسلحة المصنوعة من الحديد والذي دخل في صناعة السيوف والرماح والسهام[68]، فضلاً عن الأسلحة المصنوعة من خشب الأبنوس والمزروع بكثرة في غانة والمستخدم في صناعة القسي والنشاب والدبابيس[69].

وتوجد وحدات عسكرية أخرى مهمتها حماية الملك ومرافقته في تجواله ، كما امتلكت غانة قوة بحرية دُعمت ببناء مركز لصناعة المراكب والسفن[70]، إلا أن كل ذلك لم يحُل دون تعرض غانة المسلمة لمحاولات قبائل الصوصو الوثنية للسيطرة على مدن وقُرى المملكة والتي تكللت في هجوم زعيم الصوصو (سومانجورو كانتي Sumangure Kante) على عاصمة مملكة غانة واحتلالها بهدف السيطرة على طرق التجارة مع الشمال وفرض الضرائب على أهلها مما دفعهم للهروب نحو مدينة ولاته التي لا تقع ضمن سيطرة قبائل الصوصو، وما أن حقق سومانجورو انتصاره ذاك حتى هاجم مدينة (كانجابا) والتي تُعد الموطن الحقيقي للماندنجو مؤسسي دولة مالي فيما بعد وقتل حاكمها وعائلته ولم ينج منهم سوى الابن الأصغر الذي هرب من بطش (سومانجورو) وبذلك انتهت مملكة غانة التي ظهرت في موقعها اليوم منطقة (ساحل الذهب) المستعمرة البريطانية التي استقلت عام 1957م والتي لم تكن حدودها لتمثل أبداً حدود مملكة غانة القديمة[71].

ولم تكن مملكة غانة بمعزل عن المؤثرات الإسلامية التي وصلتها من المشرق والمغرب الإسلامي والتي شملت كافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي طورت المملكة وجعلتها تسير في ركب الحضارة الإسلامية الذي أكملته دولة مالي الإسلامية والتي ظهرت على أنقاض مملكة غانة[72].

2- دولة مالي الإسلامية :

كان هجوم (سومانجورو) على عاصمة غانة والهجوم على (كانجابا) إيذاناً بقيام دولة مالي، إلا أن الأمر لم يكن وليد تلك الحوادث، فمالي كإقليم كان قائماً حسب المصادر العربية منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، والذي كان يسمى (ملل)، أو كما يسميه البعض خطأً (الملم) وهو إقليم تابع لدولة مالي.

إن أول إشارة إلى إسلام حكام مالي جاءت في كتابات المؤرخ البكري الذي أشار إلى إسلام ملك (ملل) والذي تلقب بالمسلماني نتيجة دخوله الإسلام طواعية على يد أحد التجار المسلمين والذي قدَّم للملك النصح والإرشاد خلال تواجده في مالي وساعده على حل مشكلة الجفاف وامتناع المطر في البلاد حتى بعد أن قدم ذلك الملك الكثير من القرابين، فجاءت

نصيحة التاجر للملك بأن يفهم ما هو الإسلام ويفكر على نحو جدي في الدخول فيه كونه الحل الوحيد لمشكلة الملك، وهو ما حصل فعلاً من خلال دخول الملك في الإسلام وحسُن إسلامه، وبعد ذلك بمدة خرج التاجر الفقيه والملك إلى أرض مرتفعة في الإقليم وصلوا صلاة الاستسقاء وما أن انتهوا حتى أمطرت السماء بغزارة فحمد الجميع الله تعالى على نعمته، وأمر الملك بتحطيم جميع الأوثان في البلاد ليُعلن بلاده دولة إسلامية[73].

وعلى الرغم من أن البكري لم يذكر الاسم الصريح لذلك الملك الذي دخل الإسلام طواعية، فإن ابن خلدون يقول أن أول من أسلم من ملوك دولة مالي يسمى برمندانة[74] والذي يوجد فرق زمني كبير بينه وبين المسلماني الذي دخل الإسلام بعد حادثة الجفاف في حين أن برمندانة مسلم وحاج[75].

والمهم في الأمر هو أن هجوم قبائل الصوصو الوثنية على غانة واحتلالها سنة (600هـ/1203م) أسهم على نحو كبير في تأجيج رغبتهم في احتلال مناطق أخرى كمملكة (التكرور) ومن ثم التحرك نحو الجنوب حيث مناجم الذهب واستطاعوا أن يخضعوا قبائل الماندينغ لعدة قرون[76]، إلا أن لذلك الهجوم أثر إيجابي تمثل في رغبة قبائل الماندينغ في العمل على توحيد صفوفها للوقوف بوجه الصوصو وهو ما وفره الإسلام من خلال دعوته للوحدة وتجميع القوى واختيار قيادة مؤمنة قادرة على النجاح وتحقيق النصر وهو ما توفر في القائد (سندياتا) أو (ماري جاطة) وهو أحد أبناء (ناري فامغان)[77].

لقد عانى ماري جاطة الكثير على يد تلك القبائل الوثنية لاسيما حينما كان شاباً وهاجم (سومانجورو) بلاده وقتل عائلته ولم ينج منها أحد سواه حينما هرب خارج بلاده متجهاً نحو إمارة (ميمة) التي لم تكن واقعة تحت سيطرة الصوصو وكون جيشاً لمحاربة تلك القبائل الوثنية والانتقام لعائلته[78].

واستطاع من أن يؤسس دولة مترامية الأطراف شملت معظم أملاك دولة غانة، وكون جيشاً ضم عدداً كبيراً من المقاتلين الأشداء ليؤسس منهم فرقاً عسكرية مقاتلة استطاعت أن تحقق انتصارات كبيرة مكنت سندياته من تأسيس دولة قوية عمل من جاء بعده من الحكام على توسيعها وتطويرها ابتداء من عهد منسا[79] علي (653-669هـ/1255-1270م) والذي شهدت الدولة في عهده اتساعاً كبيراً وضمت إليها إقليم السنغاي[80] كما عمل على استغلال مناجم الذهب في البلاد[81].

وبعد اقتناع (سندياتا) باكتمال استعداداته قاد حملة عسكرية ضد تلك القبائل وانتصر

عليها وطردها من بلاده في معركة (كيرينا) التي حدثت سنة (633هـ/1235م)، وقد وصف انجازاته تلك المؤرخ ابن خلدون بقوله: ((وكان ملكهم - ملك مالي - الذي تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع المُلك من أيديهم اسمه ماري جاطة ولم يتصل بنا نسب هذا الملك، ملك عليهم خمساً وعشرين سنة فيما ذكروه))[82].

لقد نصب زعماء الماندنجو ماري جاطة امبراطوراً على دولتهم والبسوه (كندورة بيضاء) التي تمثل لباس الرجُل المسلم بدل ثياب الصيادين التي كان يرتديها[83]، كما أن زعماء الماندنجو أحسوا أن الإسلام جاء ليوحدهم على عكس الديانات الإرواحية التي كانت تدعو للفرقة من خلال تأكيدها على عدم الخروج إلى خارج القبيلة لأن الأعراف والتقاليد لا تسمح بذلك، فضلاً عن ذلك فإن قبول جميع الإمارات والأقاليم المسلمة بحكم ماري جاطة عليها كان دليلاً على وجود الإسلام وقوته في المنطقة[84].

وحالما تولى ماري جاطة السلطة بدأ بالسيطرة على الأقاليم والمُدن التي سقطت مسبقاً بيد قبائل الصوصو، لكنه لم يتعرض لمدينة (ولاته) والتي هرب إليها العديد من الفقهاء والعلماء خلال المعارك التي شنها ضدهم (سومانجورو)[85]، وكانت سنة (638هـ/1240م) قد شهدت تحويل ماري جاطة لعاصمة بلاده من (جارب) في كانجابا إلى مدينة (نياني) على نهر النيجر[86]، كما عمل ماري جاطة على مهاجمة عاصمة غانة (كومبي صالح) وتحريرها من أيدي الصوصو الذين كانوا قد احتلوها مسبقاً، وبذلك اتسعت حدود دولة مالي لتصبح مساحتها تعادل أكثر من نصف مساحة أوروبا[87].

وبعد وفاة (ماري جاطة) سنة (652هـ/1255م) تعاقب على حكم دولة مالي سبعة حكام اشتهر من بينهم السلطان (ولي بن ماري جاطة) (652-669هـ/1255-1270م) والذي أصبحت في ولايته مسألة توريث الحكم لابن الأخت من الماضي[88]، كما استمر منسا ولي في سياسة والده العسكرية القائمة على تحرير أكبر عدد ممكن من المدن الواقعة تحت السيطرة الوثنية كمدينة (الونجرا) الغنية بالذهب، كما امتدت حدود الدولة حتى مدينة (كوكو)[89]، إلا أن تلك العمليات العسكرية لم تكن لتمنع (ماري جاطة) من الالتفات لأداء الواجبات الدينية، فقد ذهب إلى مكة المكرمة ماراً بمصر أيام حكم الظاهر بيبرس (فترة حكمه 658-678هـ/1270-1277م)[90].

وبعد وفاة (منسا ولي) تسلم الحكم خلال عقدين ثلاثة حكام امتاز حكمهم بالاضطراب السياسي وهم كل من (منسا واتي) (699-673هـ/1270-1274م) و (منسا أبو بكر) (674-

684هـ/1275-1285م) وبعد انتهاء حكمه تسلم الحكم رجُل يُدعى(ساكورة) لا ينتمي إلى الأُسرة الحاكمة وعده البعض مغتصباً للحكم طيلة الفترة (684-700هـ/1285-1300م)، إلا أن عهده شهد فتوحات كبيرة أعادت للإمبراطورية هيبتها من خلال استعادته السيطرة على بلاد (كوكو) التي خرجت عن طاعة الدولة، ويصفه ابن خلدون بقوله ((هو الذي افتتح مدينة كوكو))[91] وقال ((وافتتح بلاد كوكو وأصارها في مملكة أهل مالي))[92].

ويشير المؤرخ القلقشندي إلى اتساع حدود الدولة بقوله ((وغلب على البلاد المجاورة له وفتح كوكو واستضافها واتصل ملكه من البحر المحيط إلى بلاد تكرور، فقوى سلطانه، وهابته أمم السودان، ورحل إليه التجار من بلاد المغرب وإفريقية)[93]، ويبدو أنه حالماً انتهى من تأمين حدود دولته حتى ذهب حاجاً لبيت الله الحرام، تلك الرحلة الإيمانية التي انتهت بمقتله وهو في طريق العودة على يد (الدناقل) في مدينة (تاجورة) قرب طرابلس سنة (700هـ/1300م)[94]. ويبدو أن الكاتب (أحمد الشكري) كان محقاً حينما ذكر أن القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي كان عصر تأسيس الدولة وتثبيت أركانها ومد حدودها مما مهد الطريق أمام من تبعه من الحكام لبناء الامبراطورية[95].

ويشير المؤرخ (إبراهيم علي طرخان) إلى أن الفترة التي تبعت وفاة (ساكورة) شهدت بعض الاضطرابات والفتن وهي أقرب ما تكون إلى حلقة ربطت بين عصري الحكام المؤسسين وحكام عظام جاءوا بعد تلك الفترة التي حكم فيها (منسا قو) (700-705هـ/1300-1305م) و (منسا قو بن محمد) (705-709هـ/1305-1310م) و (منسا أبو بكر) حكم (709-711هـ/ 1310-1312م) والذي انتهى حكمه بتسلم منسا موسى للحكم[96].

فمع حلول سنة (712هـ/1312م) تسلم حكم دولة مالي السلطان (موسى بن أبي بكر) لتبدأ مرحلة جديدة في حياة تلك الدولة امتازت باستكمال الفتوحات وتوطيد العلاقات الدبلوماسية مع بقية بلدان العالم الإسلامي، ويصف المؤرخ (محمود كعت) عهد ذلك السلطان بقوله ((وكنا نسمع من أعوام عصرنا يقولون سلاطين الدُنيا أربعة ما خلا السلطان الأعظم سلطان بغداد وسلطان مصر وسلطان برن وسلطان مل))[97]، فضلاً عن ذلك فقد شهدت لذلك السلطان الكثير من المصادر العربية الإسلامية، فيقول عنه الرحالة ابن بطوطة ((أنه يُحب البيضان ويحسن إليهم))[98]، كما وصفه المؤرخ السعدي ((بأنه رجُل عادل لم يكن فيهم - سلاطين مالي - مثله في الصلاح والعدل))[99]، ووصف السلطان موسى (بأنه سيد زنوج غينييه)[100].

لقد كانت أعمال ذلك السلطان الحسنة قد رفعته إلى مصاف الحكام البارزين، فقد فتح بلاده أمام المسلمين الهاربين من بطش النصارى بعد سقوط الأندلس، كما امتاز بالعطاء والجود على الفقراء والمحتاجين، فضلاً عن رده العطاء بأكثر منه لكل من يُحسن إليه، فقد كافأ رجُل من أهل تلمسان بسبعمائة مثقال ذهب وكسوة وعبيد مقابل سبعة مثاقيل وثلث كان قد أعطاها ذلك الرجُل للسلطان عند صغره، فهو لم يلتزم بما أشار عليه أصحابه وحاشيته من أن الحسنة بعشر أمثالها بل زاد عليها، كما منح السلطان موسى (لأبا اسحاق الساحلي) أربعة آلاف مثقال ذهب[101].

إن تمسك السلطان موسى بالإسلام دفعه إلى مواصلة الجهاد ضد القبائل الوثنية وتوسيع رقعة الإسلام لتشمل المناطق المحصورة بين المحيط الأطلسي غرباً وبلاد كوكو شرقاً ، أو كما حددها العمري لتصل إلى مدينة (تكدا) شرقاً والبعيدة جداً عن حدود عاصمة دولة مالي[102]، كما امتدت حدود الدولة الشمالية إلى مدينة (ولاته)[103].

ويُعرف السلطان موسى في بلاده باسم (منسا كنكن موسى) (Mansa Kankan Musa) أو (كونكور موسى) (Kounkour Musa) أو يسبق اسمه كلمة (كي) والتي تعني الحاكم[104]، كما سُمي باسماء أخرى كـ (جونجو) أو (كونجو) واللذان استخدما من قبل الفرنسيين ويعودان إلى أم السلطان المسماة (نانا كانجو Nana Kango) من خلال إبراز النسب للأم والذي كان سائداً في غرب إفريقيا لاسيما في فترات سابقة للإسلام[105]. ويبدو أن التركيز على النسب للأم من قبل الغربيين الذين احتلوا القارة الإفريقية وحاولوا طمس هويتها الإسلامية وقطع صلتها بالعرب المسلمين وإعادة العادات والتقاليد والنظم الوثنية التي كان يتبعها الأفارقة قبل إسلامهم ، ومسألة النسب ظهرت على عكس هذه الصورة بالنسبة للمؤرخين المسلمين والذين ربطوا نسب واسم السلطان باسم والده قائلين في ترجمته أنه (موسى بن أبي بكر التكروري ملك التكرور)[106].

لقد كانت فكرة الجهاد ضد الوثنيين الشغل الشاغل للسلطان موسى، فقد شن حملة عسكرية بعد تسلمه السلطة أسفرت عن فتح إقليم (زاغا Zagha) وهو الجزء الغربي من بلاد التكرور، فضلاً عن فتحه لمدينة (سلى) القريبة من نفس الإقليم والتي وصفها الجغرافي الإدريسي بقوله ((أنها مدينة حاضرة وبها مجتمع السودان، ومتاجر صالحة، وأهلها أهل نجدة))[107]، كما أعاد السلطان موسى السيطرة على إقليم (سنغي) الذي خرج عن سلطة دولة مالي مرتين الأولى على عهد السلطان (علي بن ماري جاطة) والثانية على عهد (ساكورة)،

ولضمان استمرار ولاء حكام الأقاليم للسلطة المركزية فقد عمل السلطان موسى على أخذ أبناء حكام الأقاليم إلى قصر السلطان ليضمن ولاء الآباء، وهو ما حصل مع حاكم إقليم السنغي حينما شن القائد (سقمنجة) هجوماً عليها وفتحها وعاد بأبناء حاكمها إلى قصر السلطان[108].

أما مدينة (تنبكتو)[109] والتي كانت تابعة لإقليم (سنغي) فقد تمكن السلطان موسى من فتحها سنة (729هـ/1328م) وبقيت تحت سلطة دولة مالي حتى هاجمتها قبائل الموسي[110] الوثنية سنة (731هـ/1330م) وخربت دورها ومساجدها ، ثم استعادت دولة مالي المدينة لتبقى تابعة لها مُدة قرن من الزمان حتى ضُمت للسنغي[111].

ولم يبقى خارج سيطرة دولة مالي سوى إمارة (جني Jenne)[112] في حوض النيجر والتي حافظت على استقلالها على الرغم من قربها من عاصمة دولة مالي، وربما يكون لإحاطتها بشبكة من الأنهار دوراً في حمايتها ضد هجمات دولة مالي الكثيرة عليها، إلا أنها قبلت أن تدفع الجزية مقابل عدم انضمامها لدولة مالي[113]، ويصف المؤرخ ابن فضل الله العمري فتوحات السلطان موسى بقوله: ((أفتتح بسيفه وجنده أربعة وعشرين مدينة من السودان ذوات أعمال وقرى وضياع))[114]، فضلاً عن ذلك فقد وصفها العمري نقلاً عن (أبي سعيد الدكالي) بقوله: ((طول هذه المملكة أربعة شهور وأزيد وعرضها مثل ذلك، وهي مربعة، وتقع جنوبي مراكش وداخل بر العدوة جنوباً بغرب حتى المحيط))[115]، وفي دلالة على كثرة سكانها يقول القلقشندي ((وجميعها مسكونة إلا ما قل))[116]، ونظراً لسعتها تلك فقد ضمت في تلك الفترة أربعة عشر إقليماً[117].

وعلى الرغم من أن شهرة دولة مالي جاءت بسبب تلك الفتوحات واتساع حدود الدولة، إلا أن لرحلة حج السلطان موسى الشهيرة دوراً كبيراً آخر في تلك المسألة والتي حصلت في سنة 724هـ/1324م حينما قرر السلطان موسى التهيئة لتلك الرحلة بالمال والمتاع والدعوة لكل من يرغب بالحج من حاشيته وعامته بالذهاب معه، كما عمل السلطان موسى على تأكيد إيمانه وغنى دولته أمام سلطان مصر المملوكي، فحرص على أن يجلب معه كميات كبيرة من الذهب تصل إلى حوالي مائة حمل وفي كل حمل ثلاثة قناطير، وعدداً كبيراً من العبيد والجواري يحمل كل عبد بيده عصا من الذهب زنته خمسمائة مثقال[118].

فضلاً عن ذلك فقد رافق السلطان حوالي الستين ألف جندي[119]، وقيل هم ثمانية الآف فقط[120] وعلى الرغم مما في الأرقام من مبالغة إلا أن ذلك يؤكد رغبة السلطان في إظهار القوة أمام الآخرين أولاً وتوفير الأمن والحماية له ولموكبه ثانياً، لكننا يجب أن ننتبه إلى مسألة

لم يراعها مؤرخو السودان السعدي وكعت والمتمثلة في جعل أولئك الناس جنوداً، إذ كيف يرافقه ستون ألف جندي وتعرض للسلب عند عودته لبلاده، كما أنه ذاهب للحج وسيمر من مصر فكيف يجلب هذا العدد الكبير من الجند وهو ذاهب لأداء فريضة الحج.

فضلاً عن ذلك فقد انفرد مؤرخ السودان محمود كعت في الحديث عن سبب خروج السلطان موسى في رحلته تلك للحج والمتمثل في قيام السلطان موسى بقتل أمه (نانا كنكن) عن طريق الخطأ فقرر التكفير عن خطأه ذاك فنصحه علماء بلاده بالحج فسمع نصحهم[121] . وهنا لابد من الإشارة إلى أن السلطان موسى لم يكن أول من حج من سلاطين دولة مالي حتى نجد له ما يبرر رغبته بالحج، كما أن مؤرخينا المسلمين المعاصرين لوقت رحلته تلك لم يذكروا لنا تلك الحادثة.

ومع إعطاء السلطان أوامره للقافلة بالتحرك اتجهت إلى مصر لتلحق بركب الحاج المصري متبعة طريق القوافل الغربي والذي يبدأ من مدينة ولاته ثم توات وصولاً إلى القاهرة بعد مرورها بمدينة ورقلان الواقعة شمال شرق توات إلى ساحل خليج (سيرتيس Syrtis) في تونس مما أتاح للتجار الأوربيين المتواجدين هناك مشاهدة موكب ذلك السلطان[122].

وفي رجب سنة 724هـ/تموز 1324م وصل موكب السلطان موسى إلى القاهرة مُستقبلاً بكل مظاهر الحُب والتقدير من قبل (المهمندار أبو العباس أحمد الخاقاني) ممثل سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون والذي رافق السلطان موسى طيلة إقامته في مصر[123]، وخلال تلك الأيام حاول السلطان موسى أن يرفع من شأن بلاده فعمل على توزيع الذهب الكثير على مرافقه المهمندار ومن لقيه من خاصة وعامة القاهرة، كما أنه ورغم إتقانه للغة العربية لكنه تكلم بلغة قومه ليرفع من مكانتها هناك[124]، فضلاً عن ذلك فقد بين السلطان موسى لسلطان مصر المملوكي أنه لايقل عنه تمسكاً بالدين وبقواعده من خلال رفضه الانحناء أمامه قائلاً: ((أنا مالكي المذهب ولا أسجد إلا لله تعالى))، فقدر السلطان المملوكي محمد بن قلاوون ذلك وقربه إليه وكرمه وجهزه بكل ما يحتاج إليه خلال رحلته للحج فضلاً عن العديد من الهدايا والمتاع والسلاح[125].

ومما يُذكر أن السلطان موسى ومرافقيه قد اشتروا عدداً كبيراً من كتب المذهب المالكي من مصر والحجاز ، كما اشتروا الحلي غير الذهبية وقطع القماش الفاخرة التي اشتهرت بها مصر والتي دفعوا الذهب ثمناً لها[126].

وحالما وصل السلطان موسى إلى مكة المكرمة لم يترك وقتاً ليضيع منه، فقد استغل جميع

وقته في أداء مناسك الحج ولقاء علماء مكة والتزود من كتب المذهب المالكي، فضلاً عن الإطلاع على ما وصلت إليه العمارة الإسلامية في تلك البقاع للحد الذي جعله يبحث عن الرجُل الذي صمم وبنى تلك الأبنية فعثر على مهندس اسمه (أبو اسحق الساحلي) المعروف بالطويجن وأخذه معه لبلاده فبنى له قصراً ومسجدين في مدينة تنبكتو على الطراز المعماري المغربي[127]. ومن المؤكد أن حج السلطان موسى بن أبي بكر التكروري ومروره بالقاهرة أسهم على نحو كبير في توطيد علاقات دولة مالي الدبلوماسية مع تلك البلدان ، فضلاً عن تعريف العالم الإسلامي بذلك الجزء من إفريقيا وهو دولة مالي.

وبعد وفاة السلطان موسى وصل إلى الحكم ابنه منسا (مغان الأول) أو منسا (مغا)، ومعنى (مغا) في لغتهم (محمد) والذي تدرب على الحكم خلال رحلة والده إلى بيت الله الحرام، إلا أن المشكلة التي واجهت السلطان (مغا) تتمثل في ازدياد خطر قبائل (الموسي) والتي هاجمت مدن دولة مالي على نحو مستمر لاسيما هجومها على مدينة تنبكتو وتخريبها وهدم دورها ومساجدها، وخلال تلك الغزوة كانت مدينة تنبكتو قد استقبلت سفارة مغربية أرسلها السلطان أبو الحسن المريني وضمت عدداً من المراكشيين وعلى رأسهم (أبن غانيه) والذي وصل إلى دولة مالي رداً على سفارة كان السلطان موسى قد أرسلها لتهنئة السلطان أبي الحسن بفتح تلمسان إلا أن السفارة المغربية وصلت بعد وفاة السلطان موسى فاستقبلها ابنه السلطان (مغا)[128].

والأمر المهم الذي حصل على عهد السلطان (مغا) هو منحه حرية كبيرة لرهائن الصنغي والسماح لهم بالتجوال في القصر من غير رقابة مما وفر لهم فرصة للهروب والعودة إلى بلادهم ليتمكنوا بعد ذلك من السيطرة على مدينة (جاو) والتطلع لضم بقية المدن إلى سيطرتهم[129].

وحالما توفي السلطان مغا تسلم حكم دولة مالي السلطان (سليمان بن أبي بكر التكروري) (639-659هـ/1241-1260م) والذي كان عهده مليئاً بالإصلاحات ومحاولة إعادة هيبة الدولة التي كانت قد ضيعها ابن أخيه السلطان (مغا)، فوجه حملات عسكرية إلى المناطق التي خرجت عن طاعة دولة مالي وتمكن من استعادتها إلا أنه لم يتمكن من استعادت مدينة (جاو) عاصمة الصنغي، وحال عودته من تلك الحملات عمل على تنظيم أمور الدولة وتحقيق الأمن على أراضيها وهو ما أكده لنا الرحالة ابن بطوطة بقوله أنه لم يحتاج إلى شخص يحميه خلال رحلته إلى دولة مالي بسبب توافر الأمن فيها، كما وصف لنا أمانة السودان وحفظهم لأموال

الغرباء المارين في بلادهم من العرب والبربر[130].

كما شهد عهد السلطان سليمان تمسكاً شديداً بالدين الإسلامي وبتعاليمه من خلال إحقاق الحق ومحاربة الباطل ومحاسبة المخالفين لأوامر الله تعالى، وكان السلطان هو الذي يقوم بمتابعة تلك المسائل والفصل بين الناس وحل الخلافات بينهم، فضلاً عن ذلك فقد رفع السلطان موسى من مكانة المسجد ودار الخطيب واعتبرهما مقدسين لا يحق لأحد أن يشهر سلاحه فيهما أو يدخلهما عنوة، وطبق ذلك حتى على نفسه فحينما هربت زوجته الملقبة (قاسا) خوفاً من أن يعاقبها على تعاونها مع ابن عمها الذي حاول الانقلاب عليه لجأت إلى دار الخطيب ونجت من العقوبة[131]، من جانب آخر فقد حظي القاضي بمكانة كبيرة في دولة مالي فهو الوحيد الذي يحق له مصافحة السلطان بينما يحيي بقية الحاشية والرعية السلطان بالتحية التقليدية والمتمثلة بوضع التراب على الرأس[132].

كما شهد عهد السلطان سليمان تشجيعاً كبيراً لحفظ القرآن الكريم لاسيما بين الأطفال للحد الذي جعلهم يتشددون في الأمر من خلال وضعهم القيود في أرجل أبنائهم حتى يكملوا حفظ ما هو مطلوب منهم من القرآن وهو يخبرنا به الرحالة ابن بطوطة خلال زيارته لدولة مالي[133].

وبعد وفاة السلطان (سليمان بن أبي بكر) تولى الحكم أبنه (قنبتا) والذي لم يحكم سوى تسعة أشهر قُتل في نهايتها سنة (762هـ/1360م) ليأتي بعده ابن (مغا بن موسى) والذي يُدعى (ماري جاطة الثاني) واستولى على الحكم سنة (776هـ/1374م) ليكون مثالاً سيئاً للحاكم المُبذر لأموال الدولة[134]، والأمر الذي زاد من معاناة دولة مالي يتمثل في تسلم (موسى الثاني) للحكم والذي شابه (ماري جاطة الثاني) في تصرفاته، وقد وصفه المؤرخ ابن خلدون بقوله: ((الأمر قد أفلت والدولة كانت قد اتجهت للانحدار فأذن ذلك بالزوال))[135]، وبوفاته تسلم الحكم أخاه (مغان الثاني) سنة (789هـ/1387م) والذي حكم لعام واحد مليء بالصراعات على السلطة حتى وفاته وتسلم شخص يُدعى صندكي[136] والذي لم يكن عهده بأفضل من سابقيه، فالفتن والانقسام والصراع على الحكم هو الذي ميز حكمه والتي استغلها أحد حفدة (سندياتا) واسمه (محمود) ويُلقب (بمغان الثالث) ويصل للسلطة سنة (793هـ/1390م)[137].

وبسبب تلك الصراعات على السلطة فقد بدء الضعف يدب في بناء الدولة وانسلخت عنها الكثير من الأقاليم وبدأت السنغاي تسيطر على مقاليد الأمور لاسيما مع تزايد هجمات

الطوارق على الأجزاء الشمالية من الدولة واستيلائها على مدينتي (تنبكتو وولاته) ونهبهما، ومن الجنوب الغربي شن الفولانيون[138] والتكارنة[139] هجمات موجعة على دولة مالي سيطروا خلالها على أجزاء منها، وفي الجنوب شنت قبائل الموسي هجمات كبيرة وواسعة على دولة مالي، فيما واصلت السنغاي هجماتها من الشرق حتى اسقطت الدولة وحولت أملاكها إليها[140].

3- دولة السنغاي الإسلامية:

السنغي مجموعة قبائل وثنية تعيش في منطقة (دندي)[141]، وانقسمت تلك القبائل إلى قسمين الأول اشتغل بالزراعة واستقر بالأرض والقسم الثاني اشتغل بصيد السمك وانتقل من مكان لآخر على طول منحنى نهر النيجر وقد عمل الصيادون على نحو مستمر على مهاجمة الفلاحين لقناعتهم أن أخوانهم الذين عملوا بالزراعة أساءوا للعادات والتقاليد، ففي الزراعة مهانة وذلة واستسلام لا تليق بالمغامرين[142].

وفي عام (81هـ/700م) هاجرت مجموعات من البربر من أسرة تسمى (ضياء) تعود في أصولها إلى مدينة طرابلس الليبية الحالية إلى المنطقة واستقروا مع الفلاحين واستطاع أحد أفراد القبيلة واسمه (زا اليمن) أن يهاجم الصيادين ويطردهم نحو الشمال مما أفرح فلاحو السنغاي ونصبوا ذلك البطل ملكاً عليهم ليبدأ حكم البيض لذلك الإقليم متخذين من مدينة (كوكيا) عاصمة لهم[143].

ومع ظهور الإسلام ووصوله إلى غرب إفريقيا بدأت السنغاي كبقية الأقاليم تتأثر به من خلال التجار المغاربة المسلمين الذي وصلوا إلى ذلك الإقليم واختلطوا بالسكان الأصليين للبلاد، وما أن حلت سنة (400هـ/1009م) حتى أعلن أحد حكام إقليم السنغاي إسلامه ويدعى (زاكوس) وقرر تحويل عاصمة بلاده إلى منطقة (جاو أو غاو) لموقعها المتميز الذي يتوسط الإقليم[144].

وبعد انتهاء حكم أسرة ضياء لملكة السنغاي سنة (736هـ/1335م) تسلم حكم البلاد عائلة (سني) التي حكمت البلاد للفترة (736-899هـ/ 1335 -1493م)، وتلك العائلة فرع من أسرة ضياء الطرابلسية، وقد تسلمت عائلة سني الحكم حينما استقل (علي كلن) عن دولة مالي[145].

ويُعد سني (علي بير) (870-898هـ/1465-1492م) المؤسس الحقيقي لدولة السنغاي لما شهده عهده من عملية ضم للكثير من الأقاليم لبلاده لاسيما بعد استيلائه على مدينة تنبكتو

سنة (873هـ/1468م) ومـدينة (جني) سنة (878هـ/1473م)[146]، وكـان سني علي شـديد الغضب غير ملتزم على نحو كامل بتعاليم الإسلام يقوم بإصدار أوامره بقتل كل من لا يتفق معـه في رأي أو قول أو كل من يُقدم له النصح من علماء بلاده الذين قتل منهم الكثير، لكنه يعود ويندم على فعلته بعد أن يتم القتل[147].

وأمام تلك التصرفات لابد من أن يكون في الاتجاه المعاكس من يمتلك الحكمة والتي تمثلت في شخصية أحد المُقربين من ذلك السلطان وهو (محمد بن أبي بكر التوري) والذي ينتمي لقبيلة السونتك[148]، وكانت حكمة ذلك القائد العسكري المُقرب من السلطان دفعته إلى التفكير في خطة تنقذ أولئك الناس من غضب ذلك السلطان، فقرر أن يقوم بإخفاء الشخص الذي يشعر أن السلطان سيندم على قتله ولا يظهره حتى يندم ذلك السلطان فعلاً على القتل، ويبدو أن ذلك العمل حبب (محمد بن أبي بكر) في نفوس الناس[149].

وبعد وفاة السلطان (علي بير) تولى الحكم في السنغاي (محمد بن أبي بكر التوري) سنة (899هـ/1493م) والذي استمر في سياسة التوسع وضم الممالك والأقاليم لبلاده لتصل حدود السنغاي في عهده إلى المحيط الأطلسي غرباً وإلى منطقتي أغادس ودندي وحدود الهوسا شرقاً[150]، ويبدو أن تحقيق تلك الانتصارات جاء نتيجة العناية بالجيش وتنظيم إدارة البلاد من خلال إنشاء عدد من الوزارات كوزارة الشؤون المالية، ووزارة شؤون الجيش وشؤون القضاء والشؤون الداخلية وشؤون الزراعة والغابات ووزارة خاصة بالشعب الأبيض (المغاربة) الساكنين على الحدود الشمالية للدولة[151].

فضلاً عن ذلك فقد قسم السلطان محمد المملكة إلى أربع ولايات الأولى في الجنوب وتمتد من دندي حتى بلاد الهوسا، والثانية في الوسط وتشمل مدينتي (غاو) و (تنبكتو)، والثالثة في الشمال وتبدأ من غاو وتنتهي ببلاد الطوارق، والرابعة في الغرب وتشمل بلاد السودان الغربي[152]، ووضع على تلك الولايات أقاربه الذين راقبهم مراقبة شديدة ليتمكن من معاقبة السيء وتكريم الجيد منهم، كما عين أخوه (عمر كمزاغ) المعروف بالحكمة وحسن التدبير نائباً له في وسط البلاد للسيطرة على الأطراف المترامية، فضلاً عن ذلك فقد تنبه السلطان (محمد التوري) إلى مسألة تطوير الجيش الذي كان يستند في تشكيله على النظام القبلي، فعمد إلى جعل الخدمة فيه دائمة يعمل فيه الرجُل على نحو مستمر لكنه لم يجعل التطوع فيه حكراً على جماعة مُعينة وأصبح بإمكان جميع أبناء البلاد العمل فيه سواء كانوا من قبيلة سنغاي أم لا وسواء كانوا أحراراً أم عبيداً[153].

إلا أن إجراءاته تلك اصطدمت برأي شيوخ العشائر الذين تمسكوا بالتنظيم القديم للجيش

والبقاء على النظام الإداري القديم للبلاد، فحصلت مناوشات بين الجانبين انتهت بحدوث معركة (بركو) بين الجانبين راح ضحيتها الكثير من أبناء قبيلة سنغاي والقبائل الأخرى، مما دفع (عمر كمزاغ) إلى تحذير أخيه السلطان من خطورة ذلك العمل على قبيلة سنغاي التي تُعد عماد الدولة، إلا أن السلطان طمأن أخاه وأزال شكوكه(154).

وبعد انتصاره في المعركة وخضوع رؤساء القبائل له ولقراراته تفرغ السلطان محمد التوري لتنظيم الولايات وربطها بنظام متكامل بعد إلغاء النظام القديم القائم على توكيل رؤساء القبائل مقابل الاحتفاظ بأبنائهم كرهائن لضمان ولائهم للسلطة المركزية، فقسم البلاد إلى ستة ولايات توزعت على مساحة المملكة وعهد بكل ولاية إلى والي معتمد من العاصمة يكون من أقربائه أو من عبيده المخلصين(155).

فضلاً عن ذلك فقد وضع الأسكيا (محمد التوري) مفتشين ومراقبين لتنظيم أمور البلاد، فأصبح هناك مفتشية للضرائب العامة وتسمى وظيفة صاحبها (موندي)، كما أصبح هناك وظيفة الإشراف على الشؤون القبلية وتسمى وظيفة صاحبها (كوري فاريما)، أما وظيفة المشرف على الغابات فتسمى (ساوفاريما) ومهمته الإشراف على قطع الأخشاب الصالحة لصناعة السُفن، فضلاً عن مراقبة الصيادين، كما أرسل الاسكيا محمد حاكم لكل مدينة كبيرة تشبه وظيفته (مدير البلدية) يقوم بمراقبة السوق ومساعدة القاضي في حل المشكلات التي تحدث فيه(156)، كما عمل الأسكيا الحاج محمد على حفر القنوات على ضفاف نهر النيجر لزيادة مساحة الأراضي الزراعية، وأوجد الأوزان والمكاييل الموحدة(157)، كما أنشأ أسطولاً صغيراً لنقل البضائع في نهر النيجر كما أنشأ نظاماً واضحاً للضرائب ساعد في ازدهار النظام المالي، فضلاً عن ذلك فقد كان لسيطرته على ممالح تغازى دور كبير على الازدهار الاقتصادي(158)، ونتيجة لتلك التنظيمات الإدارية والاقتصادية التي قام بها السلطان محمد التوري فقد وصفه أحد مؤرخي السودان بقوله: ((أن الأسكيا محمد يصلح حتى لحكم بني العباس وكل دولة أخرى غيرها))(159).

وبعد انتهائه من إصلاحاته تلك قرر الذهاب لأداء فريضة الحج سنة 902هـ/1496م برفقة أعيان بلاده وجمع عدداً كبيراً من السكان ليسير بموكب كبير وأنفق الكثير من الأموال توزعت بين الصدقات على الفقراء في مصر والحجاز، ومنها ما كان لتكاليف السفر، فضلاً عن شرائه لمبنى ضخم في مكة المكرمة ليكون مأوى للحجاج السودان، حتى قيل أنه أنفق حوالي (ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية)(160)، كما التقى بشريف مكة الذي قلده بردة وعمامة وسيف وأقام

مأدبة طعام تكريماً له[161].

من جانب أخر فقد انتهج السلطان محمد سياسة داعمة للعلم والتعلم من خلال تشجيعه على تعلم اللغة العربية وعدها اللغة الرسمية للبلاد، كما أعاد لمدينة تنبكتو مكانتها الثقافية كونها مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية، وعمل على دعم (مسجد وجامعة سنكوري) الموجودة في المدينة بكل ما يمتلك من وسائل الدعم، مما أوصل الجامعة إلى مصاف الجامعات الموجودة في تلك الفترة كجامعة القرويين في فاس، والجامع الأزهر في القاهرة أو جامعة الزيتونة في تونس، فضلاً عن تعيينه شيخ للإسلام في مدينة تنبكتو يقوم بتوجيه السكان دينياً[162].

وأصبحت السنغاي على عهد الأسكيا الحاج محمد مكاناً لتوافد العلماء وطلبة العلم من أرجاء الأمة الإسلامية، فتوافدوا إلى مدن تنبكتو وجني وغاو، وكان لزيارة الإمام (محمد بن عبد الكريم المغيلي) إلى مدينة (غاو) سنة (908هـ/1502م) أثر بالغ في تنوير المسلمين هناك بأمور دينهم، فضلاً عن ذلك فقد ألتقى (الاسكيا الحاج محمد) بالفقيه والمؤرخ (جلال الدين السيوطي) وسأله عن أمور فقهية أفتاه فيها[163].

وكان الأسكيا الحاج محمد قد تبنى حركة جهاد كبيرة ضد قبائل (الموسي) الوثنية مابين سنتي (903-904م/1497-1498م) وانتصر عليهم إلا أنه لم يستطع أن يدخلهم تحت سلطانه، وفي سنة (905هـ/1499م) تحركت قوات الأسكيا محمد لمواجهة أحد حكام إقليم مالي واسمه (عثمان) والذي استفتى فيه الاسكيا الحاج محمد (السيوطي) حول شرعية مهاجمة مسلم لايمت للإسلام سوى بالاسم[164]، وفي سنة (906هـ/1500م) توجهت قوات السنغاي نحو الجنوب الشرقي حيث منطقة (أيورو) والتي اعتصم بها (سني بارو) وقومه فانتصرت عليهم تلك القوات وسيطرت على مكان تواجدهم، وفي الفترة (912-918هـ/1506-1512م) استطاع جيش السنغاي أن يضم كل بلاد مالي القديمة لأملاكه ثم توجه شرقاً ليضم عدداً من مدن بلاد الهوسا سنة (919هـ/1513م)[165].

إلا أن تلك الفتوحات بدأت تضعف ثم تتوقف مع تقدم الاسكيا الحاج محمد في السن لاسيما بعد أن فقد بصره في سنة (924هـ/1518م) وحد من تحركاته مما حدا بأبنائه للتطلع لقيادة البلاد بدلاً عنه، الأمر الذي أدخل البلاد في صراعات على السلطة لاسيما وأن سياسة الاسكيا الحاج محمد في اختيار موظفيه كانت تقوم على أساس الكفاءة وليس العمر، فحينما توفي أخوه (عمر كمزاغ) سنة (926هـ/1519م) عين بدلاً عنه أخاه الأصغر (يحيى) مما أثار حفيظة أبنائه وغضبهم عليه لاسيما ابنه (موسى) الذي كان قد رافقه في رحلته للحج وهو أكثر

أبنائه الطامحين للسلطة ولو بالقوة، وقد قرر ذلك حينما وجد من يساعده في الأمر سنة (934هـ/1527م) وابتدأ بمستشار والده (علي فلن) من خلال إجباره على مغادرة القصر، وفي عام (935هـ/1528م) دخل القصر وأجبر والده على التنازل عن السلطة لصالحه[166].

وحالما تسلم السلطة الأسكيا (موسى بن محمد التوري) (حكم للفترة 935-938هـ/ 1528 -1531م) دخل في صراع مع أخوته حول السلطة وحاربهم بأشد ما يستطيع حتى شتت شملهم ودفعهم للهروب من البلاد نحو أطراف المملكة، فكانت سنوات حكمه خالية من أي انجاز حضاري يُذكر[167].

وبعد مقتله على يد أخوه (علي) بايع جيش السنغاي الأسكيا (محمد الثاني)، إلا أن (علي) اعترض على تلك المبايعة مبدياً أحقيته في الحكم كونه هو الذي قتل السلطان (موسى)، وأمام ذلك الأمر عمد السلطان (محمد الثاني) والذي كان يمتاز بالحكمة والعقل الراجح إلى تهدئة الأمور واحتواء غضب أخيه والتقليل من الصراعات الداخلية، فعهده لم يشهد معارك بين الأخوة، كما أنه لم يشهد معارك خارجية سوى معركته مع أمير منطقة (الكوبي) في بلاد (الحوصا) بعد أن نقض الأخير شروط الاتفاق الذي كان قد عقده معه الأسكيا الحاج محمد الأول، وبسبب حب السلطان محمد للسفر، فقد بدأ بالاهتمام بمواكب السلاطين وتنظيمها وظهر ذلك جلياً خلال زيارة السلطان (محمد الثاني) لأرجاء المملكة برفقة قادة جيشه، إذ رافق تلك المواكب الفرق الموسيقية بآلالات الطرب التي تعزف عليها والملابس التي يرتديها السلطان ومرافقيه وهو ما يعكس التطور الحضاري الذي كان قد أسس له والده السلطان الأسكيا الحاج محمد[168].

ويبدو أن حالة الوئام التي سادت بين الأخوة في بداية عهد (محمد الثاني) لم تستمر لاسيما بعد مقتله على يد أخوه ليتسلم الحكم بعده (إسماعيل) والذي حكم البلاد للفترة (944-946هـ/1537-1539م) ليبدأ حكمه بتسيير حملة عسكرية لمهاجمة أحد الأمراء الوثنيين في الجنوب الغربي من المملكة، وجرت بين الجانبين معركة انتصر فيها الاسكيا إسماعيل وجيشه وأسر عدداً كبيراً منهم فأصبح لديه أعداد كبيرة من الرقيق حتى انخفض سعر العبد في مدينة (غاو) إلى ثلاثمائة ودعة، إلا أن الأمر الذي حصل في تلك المعركة هو إصابة الاسكيا إسماعيل بمرض الطاعون ووفاته[169].

وبعد وفاة الاسكيا إسماعيل تسلم السلطة الأسكيا (إسحق الأول) (946 - 956 هـ/ 1539-1549) والذي أنتخب من قبل الجيش أيضاً، إلا أنه تنبه لمسألة تدخل الجيش في

شؤون البلاد الداخلية، فالجيش هو الذي قضى على الأسكيا الحاج محمد وهو الذي أوصل الاسكيا موسى للسلطة وهو الذي جلب إسماعيل ومن ثم انتخب (إسحق الأول)، وأمام تلك التدخلات حاول الأسكيا (إسحق الأول) الحد منها، إلا أن التغيير الجذري لم يكن ممكنا في تلك الفترة فقرر إبعاد بعض قادة الجيش واستبدالهم بموالين له على نحو مطلق[170].

لقد شهد عهد الأسكيا إسحق الأول بداية لفكرة توغل السعديين حكام المغرب في بلاد السودان الغربي، فقد تلقى الأسكيا إسحق رسالة من السلطان السعدي (أحمد الأعرج) يدعوه فيها لتسليم ممالح (تغازة)، إلا أن الاستجابة لتلك الدعوة تعني خسارة السودان الغربي لمورد مهم من موارده الاقتصادية مما دعا بالأسكيا إسحق أن يجيب على الرسالة بأسلوب ذكي بقوله ((إن الذي يطلب مثل هذا الطلب من ملك سنغاي لا يمكن أن يكون مثل مولاي أحمد الأعرج، كما أن الذي يقبل مثل هذا الاقتراح لا يمكن أن يكون الأسكيا إسحق الأول))، وأرسل بصحبة الرد على الرسالة مائتي مقاتل من الطوارق دخلت مناطق المغرب الجنوبية كاستعراض للقوة[171].

وبعد وفاة الأسكيا إسحق الأول حُسب ما أخذه من أموال تجار مدينة تنبكتو فكان سبعين ألف قطعة ذهبية كان التجار يسلمونها لأحد عبيد السلطان ويُدعى (محمود يزا)، إذ لم يجرأ أحد من التجار على الاعتراض على الأمر[172].

وفي سنة (956هـ/1549م) تسلم الأسكيا داؤد السلطة لمدة ثلاث وثلاثين عاماً حكم البلاد خلالها بحكمة سياسية فهو يجنح للسلم كلما وجد أن جيشه غير مستعد للقتال ويقاتل كلما وجد العكس، وامتاز عهده بكثرة المعارك مع القبائل الوثنية المحيطة ببلاده، ففي سنة (956هـ/1549م) هاجم قبائل الموسي الوثنية وانتصر عليها، كما هاجم قبائل (البوهل) في مدينة (ماسينا) سنة (957هـ/1550م) والتي يمتاز سكانها بنبوغهم بالفن والموسيقى فجلب عدداً كبيراً منهم من المُغنيين والمُغنيات وأسكنهم حياً خاصاً في مدينة غاو[173].

وفي سنة (960هـ/1552م) حدث خلاف بين مملكة سنغاي ومملكة (الكبي) جرت على أثره حرب طاحنة بين الجانبين انتهت بعقد صلح جديد، كما حدثت معركة بين جيش السنغاي وبلاد الحوصا في سنة (962هـ/1554م) وأخرى في سنة (964هـ/1556م)، فضلاً عن مهاجمة بلاد مالي وجلب عدداً كبيراً من الرقيق من بينهم ابنة الأمير المالي[174].

وفي نهاية عهد الاسكيا داؤد تحالف السنغاي مع الطوارق ضد (بني حسان) الذين وصلوا إلى منطقة الحوض محاولين طردهم منها، فضلاً عن ذلك فقد واجهت الاسكيا داؤد مشكلة انتشار مرض أصاب البلاد سنة (990هـ/1582م) هلك فيه حوالي ثلث السكان، كما

أن قبائل البوهيل تجرأت للمرة الأولى على الهجوم على السنغاي فخرجت لمواجهتهم قوة بقيادة (محمد الحاج) وهو ابن الأسكيا داؤد إلا أن تلك القوة هُزمت مما اضطر الأسكيا داؤد لتعزيز جيشه وملاحقة البوهيل إلى بلادهم وقتل منهم الكثير فضلاً عن السبي الذي جلبه[175].

وكان عهد الأسكيا داؤد قد شهد فتح العديد من المدارس والمساجد، واستخدم العديد من الناسخين ليقوموا بنسخ المطبوعات الدينية ولاسيما القرآن الكريم ومن ثم توزيعها على المسلمين، كما فتح مراكز لمراقبة الطُرق التجارية في الصحراء مما منح التجار مسالك آمنة، فضلاً عن ذلك فإن عهد شهد إنشاء أول خزينة للأموال ومخازن عامة ومكتبات كبيرة[176].

وبوفاة الأسكيا داؤد تسلم الحكم ابنه الأسكيا (محمد الثالث) للفترة (990-995هـ/1582-1586م) بعد وصوله إلى العاصمة واختياره من قبل أخوته سلطاناً للبلاد على الرغم من أنه لم يكن الابن الأكبر، في حين تحرك الابن الأكبر ويدعى (محمد بنقان) نحو العاصمة حال سماعه بوفاة والده إلا أنه عاد أدراجه حال سماعه بتولية أخيه (محمد الثالث) مضمراً في نفسه الغضب والحقد على أخوته ، فقرر فوراً الاستقالة من منصبه كحاكم لإحدى المُدن، وبعد سنتين من تولي الأسكيا (محمد الثالث) للحكم وصل أخوه حاكم ولاية (غورما) والمسمى (الهادي) إلى العاصمة لانتزاع السلطة من يده، وحالما دخل بقواته مدينة غاو ،برض قائد الأسطول على الأسكيا محمد الثالث القضاء على الهادي مقابل توليته ولايا غورما التي يحكمها الهادي فوافق الأسكيا محمد وفعلاً انتهت حركة تمرد أخيه الهادي عليه[177].

ولم يكن ذلك هو الخطر الوحيد الذي واجه الاسكيا محمد الثالث خلال حكمه، فقد تلقى هدية من السلطان السعدي (أحمد) المُلقب بالذهبي قابلها الأسكيا (محمد الثالث) باستقبال السفراء أحسن استقبال وأرسل معهم هدية تتكون من ثمانين خصياً وعدد من العبيد للسلطان أحمد، إلا أن المفاجأة تكمن في تجهيز السلطان أحمد الذهبي لحملة عسكرية تتكون من عشرين ألف مقاتل وصلت إلى موريتانيا الحالية ثم عادت، وبعد ذلك جهز حملة أخرى مكونة من مائتي ألف مقاتل وصلت إلى مناجم الملح في تغازة واحتلتها وطردت سكانها ومن ثم غادرتها من غير حدوث أي رد فعل من الأسكيا (محمد الثالث) الذي قرر أخوته إزاء موقفه المتخاذل ذاك تنحيته وتنصيب أخوه (محمد باني) (995-997هـ/1586-1588م) الذي انشغل خلال سنتي حكمه بتصفية أخوته الذين يشك في ولائهم له، وبعد وفاته تسلم الحكم أخوه الأسكيا إسحق الثاني (997-1000هـ/1588-1591م) والذي شهد عهده نهاية حكم الاساكي لدولة السنغاي حينما ثار أحد رجال الدولة ويُدعى (ساليكي تونكارا) بمساعدة حاكم ولاية

(بالاما) وبدعم من شعب مدينة تنبكتو، كما مثلت الرسالة التي أرسلها (السلطان أحمد المنصور السعدي) إلى الأسكيا إسحق الثاني النهاية الحتمية للدولة والتي طالبه فيها بالاعتراف بسلطان المغرب على السودان الغربي وتسليم ممالح تغازة، إلا أن الأسكيا إسحق الثاني رد بالرفض على تلك الطلبات وضمن رده استفزازاً وشتائم للسلطان السعدي الذي جهز حملة بقيادة (جوذر باشا) مكونة من (3000) أو (4000) مقاتل معظمهم من غير المغاربة وصلت السنغاي سنة (1000هـ/1591)[178].

إن أولى المعارك التي حدثت بين الجانبين كانت معركة (تنديبي Tondibi) شمال مدينة (غاو)، فالمغاربة بأسلحة نارية فتاكة لم يعهدها السودان الذين قاتلوا بالسيوف والحراب والرماح، وما كان منهم إلا أن يضعوا أمامهم الثيران لتحميهم من نيران البنادق، إلا أنها حالما سمعت صوت تلك البنادق هربت وأشاعت الفوضى في صفوف الجُند الذين خسروا المعركة وأُسر منهم عدد كبير بعد أن دخلت القوات المغربية مدينة تنبكتو، وكان من بين الأسرى العالم والمؤرخ (أحمد بابا التمبكتي)، كما فرضوا على سكان المدينة ضرائب كبيرة، وفي عام (1002هـ/1593م) دخلت القوات السعدية المغربية العاصمة غاو من غير أي مقاومة بعد أن وصلتها تعزيزات أخرى من المغرب بقيادة (ابن زرقون) الذي أصبح قائداً للحملة بدل (جوذر)، وحالما دخلت تلك القوات قتل ابن زرقون الأسكيا إسحق الثاني ووضع بدلاً عنه أسكيا نوح والذي بدوره عمل على زرع روح المقاومة بين السكان السودان لمواجهة القوات المغربية[179]، إلا أن الحملات المتتالية التي كان يرسلها المغاربة أرغمت (أسكيا نوح) على ترك البلاد والهروب مما أكد فعلاً نهاية دولة السنغاي تحت حكم الأساكي سنة (1004هـ/1591م)[180].

وفي السنوات (999-1028هـ/1590-1618م) وصل إلى السنغاي (23000) جندي، استطاعت القوات السعدية من خلالها دخول مدينة (جني) صلحاً على أن يدفع سكانها كل عام ضرائب كبيرة ليجنبوا مدينتهم التخريب والدمار، وحينما رفضت المدينة دفع الجزية دُمرت من قبل السعديين، والأمر الجدير بالملاحظة هو أن تلك القوات الكبيرة التي أرسلها المغاربة لم تفلح في السيطرة على الأراضي الشاسعة للسودان الغربي، كما أنها لم تفلح في السيطرة على الأراضي الواقعة تحت حكمها[181].

ونتيجة لذلك فقد ازدادت المشكلات وضعف الأمن وعم الظلم وانتشرت المجاعة حتى شعر المغاربة بعدم جدوى إرسال قوات إضافية إلى السنغاي وتركوا للجند المتواجدين هناك تقرير مصيرهم فأجمع أولئك الجند على إنشاء طبقة يُطلق عليها اسم (الباشوات) تقوم بقيادة البلاد وسمحوا لأبناء السودان بالدخول في الجيش على أن يبقى الضباط وكبار القادة من المغاربة

ثم تطور الأمر ليسمح لأبناء أولئك الضباط من زوجات سودانيات بالعمل كقادة وضباط[182]، ونتيجة للضعف الذي أصاب الباشوات فقد بدأت البلاد تدفع الضرائب للحكام الوثنيين من ملوك (البامبارا) في عام (1081هـ/1670م) وبقي الحال هكذا حتى احتل الفرنسيون المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وسموها (إفريقيا الاستوائية الفرنسية)[183] .

ثالثاً: دعوة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية:

مع بدايات وصول الاستعمار إلى غرب إفريقيا وتفشي الوثنية بين سكانها، ظهرت في الفترة ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين حركات إصلاحية تجديدية وأخرى جهادية ضد الاستعمار حاربت بكل قوة الأفكار الوثنية والتطلعات الاستعمارية على حدٍ سواء، وكان من بين أولى تلك الحركات حركة الشيخ (عثمان بن فودي)[184].

لقد هاجرت قبيلة الشيخ عثمان بن فودي الفولانية الأصل من (فوتاتور) (الواقعة على نهر السنغال) إلى بلاد الهوسا في نيجيريا حوالي القرن 9هـ/15م بقيادة الشيخ (موسى جكل) الجد الأكبر للشيخ (عثمان بن فودي)، وقد اعتنت عائلة الشيخ (عثمان) بولدها وثقفته وفق مذهب الإمام مالك فحفظ القرآن الكريم على يد والده الشيخ (محمد فودي)، كما كانت والدته (حواء) وجدته (رقية) من بين النساء المتعلمات المتفقهات اللواتي عملن على تدريسه[185].

وكان (عثمان) يتجول كبقية طلبة العلم في أرجاء البلاد ويدرس الفقه هنا ويدرس الحديث هناك، والتفسير في مكان آخر فتتلمذ على يد أساتذة من الهوسا ومن بلاد البرنو وغيرهم، فتلقى الفقه على يد (محمد تنبو بن عبد الله)، وعلم التفسير على يد (أحمد بن محمد هاشم الزنغري) وأخذ الصحاح الست على يد (محمد بن راجي) وعن الشيخ (جبريل بن عمر) الذي لازمه مدة في بلاد (أير Air)[186].

لقد تأكدت رغبة الإصلاح لدى (عثمان بن فودي) حينما ذهب لأداء فريضة الحج والتقى بالعديد من شيوخ وعلماء بلاد الحجاز[187]، فبعد أن عاد إلى بلاده بدأ بمعالجة التقاليد الوثنية التي كانت لا تزال شائعة في بلاده، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من الأولياء، وهاجم رذيلتين لازالتا موجودتين في بلاده هما شرب الخمر وفساد الخلق[188]، لاسيما بعد أن هاله ما رآه من تحول مسلمي (غوبر) إلى الوثنية نتيجة للضغط الذي مارسه عليهم ملكهم (نفاتا Nafata) للعودة إلى الوثنية وحرم عليهم التحول إلى الإسلام[189].

بدأ الشيخ (عثمان بن فودي) بحملته لمواجهة (نفاتا) بالطرائق السلمية الدعوية وهو ما أطلق

عليه (بالجهاد القولي)، والذي استخدمه في إرسال رسائل إلى كافة فئات المجتمع لحضهم على الالتزام بالإسلام والابتعاد عن الكفر[190]، فكون قوة تساعده في دعوته مؤلفة من جميع الذين استجابوا لدعوته بالإصلاح[191]، وكان قد ركز في تلك الفترة على مسألة المرأة والفارق بين مكانتها في الإسلام وما كانت عليه في العصور الجاهلية، وقد أكسبه ذلك انضمام الكثير من النساء إلى حركته وشكلت تلك المسألة تحدياً كبيراً للأفكار السائدة من خلال دعوة المرأة للتحرر من الاستعباد وألف رسالة في ذلك (تنبيه الأخوان على جواز اتخاذ المجلس لأجل تعليم النسوان على فروض الأعيان من دين الله تعالى الرحمن)[192].

وفي الفترة (1188-1219هـ/1774-1840م) استخدم الشيخ (عثمان بن فودي) أسلوباً محبباً إلى قلوب الناس لإيصال تعاليم الإسلام من خلال استخدام الشعر والموشحات الدينية بطريقة بسيطة وتعتمد على قيم شعبية قريبة إلى قلوب الناس، وكان الشيخ نفسه بارعاً في كتابة موشحات تتناول مسائل أخلاقية وإرشادية وتربوية تعليمية بلغات ولهجات محلية يفهمها الناس هناك، تنتقل من ألسنة الدعاة إلى ألسنة الناس[193].

وبعد وفاة ملك (غوبر) (نُفاتا) تولى حكم الولاية ابنة (يُنفا Yunfa) وهو من تلاميذ الشيخ (عثمان بن فودي) إلا أنه انحاز لوالده (نُفاتا) المتوفى وقرر الانقلاب على شيخه والتخلص منه وقتله، لكنه فشل في مسعاه هذا وزاد من محبة الشيخ (عثمان) بين الناس بعد ذلك، واضطر (يُنفا) إلى استخدام القوة لتحقيق مبتغاه، فسار على رأس قوة إلى مدينة (دغِل Degel) بلدة الشيخ عثمان التي تقع بالقرب من مدينة (سكوتو) فاضطر الشيخ للهجرة واللجوء إلى بلدة (غودو Gudu) سنة (1219هـ/ 1804م)، والذي كان يُحتفل به في كل عام ويسمى بيوم الهجرة[194].

لقد نجح الشيخ (عثمان بن فودي) في مسعاه للتجديد فكان قدوة لطلابه ومريديه المجاهدين، وكان متواضعاً على سعة علمه وعلو مكانته، وقد ذكر ابنه (محمد بللو) صاحب كتاب (انفاق الميسور) جانباً من سيرة أبيه بقوله: ((ثم أعلم إني رأيته إذا أراد الخروج إلى الناس يقف في زاوية الدار هنية ويتكلم بكلام ثم ينصرف إلى الناس، فسألته عن ذلك فقال أجدد النية وأعاهد الله على الإخلاص فيما أخرج إليه، وأسأله أن يفهم الحاضرون ما أحدث به ..)) [195].

وكان اهتمام الشيخ عثمان ومن سبقه أو عاصره من العلماء بمسألة الولاء والبراءة كبيراً سواء في أفعاله أو كتاباته، كما برر الشيخ محمد الأمين الكانمي مقاله لسلطان (برنو) بحجج وأدلة شرعية، ومن ذلك ما جاء في إحدى رسائله (أما سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلطان (برنو) وأهله، فأعلم أنا ما قاتلناهم لكفرهم بالأصالة، وإن كان يؤثر عنهم تواتراً ما

يوجب الحكم بالتكفير، مثل ما يفعلونه في مكان يسمى (بيكو) لعدم علمنا بذلك حقيقة، وإنما قاتلناهم لابتدائهم لنا بالقتال واعتدائهم علينا موالاة للكفار وتعصباً لهم ونصرة لهم ..)) ومن كتاباته في ذلك الموضوع كتاب (إحياء السنة وإماتة البدعة) و (بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية) وغيرها الكثير(196).

رابعاً: قيام دولة سكوتو الإسلامية:

بدأ الشيخ (عثمان بن فودي) بالتهيئة لتأسيس دولة والتخبط لقيامها من مكان هجرته، فقد أطلق مناصريه ومريديه عليه لقب (ساركين مسلماني) والتي تعني (أمير المسلمين) فاقتنع أن مسؤوليته تزايدت وأن واجباته الدينية والدنيوية تحتم عليه التصدي لتلك المسؤولية القيادية بكل جدية، فتهيأ لتأسيس خلافة إسلامية، وأصدر الشيخ عثمان وثيقة (أهل السودان) أعلن فيها الجهاد ضد حكام الهوسا من خلال مبادئ تلك الوثيقة والتي نصت على (أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إجماعاً، وأن الهجرة من بلاد الكفر واجبة إجماعا وأن الجهاد واجب إجماعاً وأن قتال البغاة واجب إجماعا))(197).

لم يُعر حكام الهوسا الاهتمام الكبير لحركة الشيخ (عثمان بن فودي) لقناعتهم بمحدوديتها، إلا أن حاكم (غوبر) تنبه للمسألة وأرسل رسائل لحكام (كانو وكاتسينا(198) ودورا) يطلب منهم فيها مد يد العون والمساعدة للوقوف بوجه الشيخ عثمان، إلا أن عدم اهتمامهم في بداية الأمر تحول إلى اهتمام واضح لاسيما بعد أن كانت دعوات الشيخ (عثمان) لهم بالعودة عن غيهم والرجوع إلى الإسلام تتزايد وتتسع(199).

وفي عام (1219هـ/ 1804م) تقدمت قوات الشيخ (عثمان) متجه نحو بحيرة (تابكين كوتو Tabkinkwto)وتقابل الجيشان في معركة كبيرة انتهت بهزيمة جيش المشركين، لكنهم عادوا وتقابلوا مرة أخرى بعد عام (1220هـ/ 1805م) في معركة (تسونسو) التي هُزم فيها المسلمون في بادئ الأمر ثم عادوا وصمدوا بوجه أعدائهم(200).

استمرت المعارك بين الجانبين حتى بدأت مدن بلاد الهوسا تتساقط أمام زحف القوات المسلحة ، فسقطت مدينة (كبي Kebli) التي اتخذت عاصمة للجهاد ضد بقية المدن لتسقط بعد ذلك مدينة (زاريا) عام (1220هـ/ 1805م) وتبعتها مدينة (كاتسينا) بعد حصار طويل ومن ثم سقطت مدينة (كانو) من غير مقاومة(201)، وقد تنبه الشيخ (عثمان) إلى مسألة خطورة (برنو) التي تهدد حدود بلاده الشرقية وتقدم العون لبعض زعماء بلاد الهوسا، لذلك قرر عام (1223هـ/1808م) محاربة البرنويين وهزيمتهم، فقرروا الاستعانة بقوات (محمد الأمين

الكانمي) الذي لبى نداءهم وهاجمت قواته قوات الشيخ عثمان وطردهم إلى الغرب (أي إلى بلاد الهوسا)، ورغم ذلك استمرت قوات الشيخ عثمان في الإغارة على (البرنو) بين الحين والآخر[201].

توج ذلك النجاح وتلك الانتصارات بدخول قوات الشيخ عثمان عاصمة بلاد (غوبو) المسماة (الكالاوا Alkalawa) وقتل السلطان (يُنفا) وجنده عام (1223هـ/ 1808م) وتوسعت حدود دولة الشيخ (عثمان) حتى شملت جميع بلاد الهوسا لاسيما عام (1225هـ/1810م) فكون إمارة إسلامية ضمت مناطق شمال نيجيريا والسودان الغربي، وانتقل من مدينة (سيفاوا) الواقعة الآن شرق نيجيريا قرب الحدود مع الكامرون إلى عاصمة جديدة اسمها (سكوتو) وقسم البلاد إلى قسمين، قسم شرقي تحت سيطرة ابنه (محمد بللو) وقسم غربي يحكمه أخيه (عبد الله) واكتفى الشيخ عثمان بالزعامة الروحية[203].

لقد تأثرت دعوة الشيخ عثمان بالحركات الإصلاحية السابقة لعهده أو المعاصرة له، فدعوته جاءت لتقويم وتعديل ما شذ المسلمون عنه وتحول بعضهم عن دينه عائداً إلى الوثنية، وقد عالج الأمر بدعوته لأولئك الناس بالرفق واللين والإرشاد وحينما لم يستجب بعضهم شن عليهم حرباً لإعادتهم إلى الطريق القويم، وهو أمر مشابه لما جاءت به دعوة الشيخ (عبد الله بن ياسين) مؤسس دولة المرابطين والذي أسس رباطه في السنغال ليعود بعدها لدعوة قومه إلى الإسلام الصحيح وحينما رفضوا حاربهم، كما أنها دعوة مشابهة للنصائح التي قدمها الإمام (محمد بن عبد الكريم المغيلي) لحكام دولة الهوسا لاسيما (كانو) و(كشنة) في شمال نيجيريا، و زار (كاغو) أو (جاو) الواقعة في (دولة مالي حالياً)، كما زار (تكده) في منطقة (أهير) التابعة للنيجر حالياً وغيرها من المدن والإمارات[204].

ويبدو أن النصائح والإرشادات التي كان يقدمها الشيخ (عثمان بن فودي) قد أتت أكلها بين الكثير من قبائل الهوسا والتي دخلت في الإسلام وتمسكت به، ويصف تلك الحالة أحد المستشرقين بقوله: ((في كل دولة أو بلاد على جانبي النهر توجد جماعة ذات بشرة سوداء يدعون (الفولز) أي (الفولاني)، وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية لأنهم تعلموا في مدارسها، ولأن القرآن، وهو أيضاً شريعتهم مكتوب بهذه اللغة، وإلمامهم على وجه العموم أكثر بالعربية من إلمام أهل أوربا باللاتينية إذ أن معظمهم يتكلمها مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى (فولى) ...)) [205]. ويتضح مدى تأثير دعوة الشيخ (عثمان بن فودي) في نفوس الناس والتي حببت الإسلام واللغة العربية إلى قلوب الناس.

جاءت تلك الانتصارات للإسلام نتيجة للنشاط الذي قام به (عثمان بن فودي) في دولته

(سكوتو) والتي أعلن فيها حربه على الوثنية وكل ما يتصل بها مثل اعتقاد الضرر والنفع في الأشجار والأحجار، وادعاء معرفة المغيبات وخفايا الأمور، وممارسة التنجيم، والخط في الرمال التي كان يتبعها بعض العلماء المنتسبين للإسلام، كما نفذت دولته الشريعة الإسلامية فكانت إمارات الدولة الثلاثون تطبقها وتطبق القضاء الإسلامي على مذهب الإمام مالك، وأنشأت مؤسسات ودواوين ومناصب كانت موجودة في بلدان إسلامية أخرى كالوزير والقاضي والوالي والمحتسب وشيخ الإسلام والحاجب، وأطلق على نفسه لقب (أمير المؤمنين) وعلى أولاده لقب خليفة(206).

كما تم إنشاء مسجد في كل قرية تحت إشراف معلم، وكان المجلس في المسجد يضم فصلين للتعليم، أحدهما للطلبة المتقدمين في العلم وآخر لعامة الناس وسميت المدارس القرآنية للمتقدمين، والدهاليز للعامة، وجذبت مدن المملكة مثل كانو وزاريا وكاتسينا من أشهر مدن الدولة التي وصلها طلاب العلم ، فكانت الدروس تعطى في المسجد طوال اليوم(207).

وقرر الشيخ عثمان جعل اللغة العربية هي لغة التعليم الرئيسة، فلا يحق لمن يمارس الدعوة إلى الإسلام أن يتكلم ويدعو بغير العربية، فساعد ذلك على انتشار اللغة العربية وثقافتها، وأصبحت المنطقة تضم عدد كبيراً من المدارس والمعاهد والمراكز العلمية التي تدرس اللغة العربية، كما أن لغة الهوسا أصبحت تكتب بحروف عربية حتى جاء الاستعمار الأوربي واستبدلها باللاتينية(208).

كما كان من نتائج قيام الشيخ (عثمان بن فودي) وقيام دولة (سكوتو) انتشار الأمن والأمان وتوحيد القبائل المتناحرة سابقاً تحت راية واحدة إسلامية وصبغت الدولة بصبغة إسلامية حتى أصبحت نيجيريا أكبر دولة إسلامية في القارة بسبب جهود تلك الحركة الإصلاحية(209)، فضلاً عن ذلك فقد قسم الشيخ عثمان امبراطوريته إلى قسمين كبيرين الأول شرقي وعاصمته (سكوتو) وعين عليه محمد بللو ، والثاني غربي وعاصمته (جاندو) ويحكمه أخوه (عبد الله بن فودي) ، وكان الشيخ يريد أن يضمن حسن الإدارة من خلال التقسيم، أما هو فقد اكتفى بالزعامة الروحية من سكوتو، ويشمل القسم الشرقي معظم بلاد الهوسا، وأهم ولاياته (جوبر) و (كاتونجورا) و (أداماوا) ، أما القسم الغربي فيشمل ولايات اليوربا وبعض بورجو(210).

لقد حدد عثمان بن فودي في بعض مؤلفاته لاسيما كتاب (الفرق بين الإسلام وأهل الكفر) ما ينبغي على الحاكم فعله في إدارته العادلة للبلاد بقوله (إن دعائم الحكومة خمس: القوة

(السلطان) لاتمنح لمن يسعى إليها، والحاجة إلى الشورى، التخلي عن القسوة، والعدل، والأعمال الصالحة، ويصف النظام الحكومي بقوله: ((ينبغي أن تقصر أعمال الحكومة على أربعة وزراء: أولهم وزير مخلص للأمانة العامة عليه أن يوقظ الحاكم إذا نام وأن يجعله يبصر إذا عمى، وأن يُذكره إذا نسى، وياسوء حظ الحكومة إذا والشعب إذا ابتليت بوزير غير أمين، وأهم صفات هذا الوزير الرحمة والعطف نحو الناس، وثاني الوزراء القاضي الذي يخشى الله، وثالثهم رئيس الشرطة الذي يعطي لكل ذي حق حقه ويناصر الفقراء ضد جشع الأقوياء، والرابع هو المسؤول عن جباية الضرائب في نطاق واجبه المرسوم فلا يعسف أحداً))[211].

لقد استمر الشيخ عثمان بتسيير البلاد وفق ذلك النظام حتى وفاته سنة (1233هـ/ 1817م) بمدينة (سكوتو) ليخلفه ابنه (محمد بللو) الذي اتبع أسلوب الدعوة السلمية والإقناع لحض الوثنيين في الدخول على الإسلام، كما استمر في دعم وتطوير النظام الإداري الذي اتبعه والده عثمان، وكان حاكم كل إقليم يُلقب بـ (ساركي Sarki) وهي كلمة هوسية معناها حاكم أو والي أو أمير، ويساعد ذلك الحاكم مجلس استشاري وحامية لحفظ الأمن، وكان على كل ولاية إرسال قوات عسكرية إلى الشيخ في العاصمة للاشتراك في الحملات الحربية، ولكي يضمن محمد بللو خضوع حكام الأقاليم له أو على الأقل تحت رقابته عين عدداً كبيراً من عبيده في مناصب سياسية كبرى للإشراف على الإدارة المحلية وعلى جباية الضرائب وذلك لكي يوجد قوة موازية لسلطة حكام الأقاليم الارستقراطية الوراثية[212].

لقد سار أبناء محمد بللو وأحفاده على الأسلوب نفسه الذي كان يدير فيه والدهم وجدهم الدولة حتى احتل البريطانيون الدولة سنة (1321هـ/ 1903م) .

خامساً : العلاقات الدبلوماسية للسودان الغربي :

لم تكن دول وممالك السودان الغربي بمعزل عن بقية دول العالم الإسلامي لاسيما المغرب الإسلامي، فقد امتلكت دول السودان الغربي علاقات دبلوماسية مع دول المغرب الإسلامي، فقد استقبل أحد ملوك السودان سفارة بقيادة (محمد بن عرفة) أحد رجال بلاط السلطان الرستمي (أفلح بن عبد الوهاب 208–258هـ/328-872م) والذي وصل حاملاً هدية إلى بلاد السودان[213].

وفي سنة (382هـ/992م) وصلت من السودان الغربي هدية فيها زرافة إلى حكام المغرب آنذاك من الزيريين، كما وصلت هدية أخرى في عهد المُعز بن باديس (406–454هـ/1016–1062م) من بلاد السودان وصفها المؤرخ ابن عذاري بقوله: ((هدية جليلة فيها رقيق كثير

وزرافات وأنواع من الحيوان))[214]. ويبدو أن وجود الزرافة ضمن الهدايا والتي لم يعتد المغاربة على رؤيتها دفع بالكثير من السكان إلى الخروج في استقبال تلك السفارة.

وضمن المراسلات بين حكام السودان والحكام المغاربة لاسيما على عهد الدولة المرابطية فقد تسلم (يوسف بن تاشفين) رسالة من ملك غانة[215]، فيما لم يشهد عهد دولة الموحدين (524-668هـ/1130-1269م) تواصلاً بارزاً بين تلك الدولة وحكام السودان وذلك لانشغال دولة الموحدين بمعركة العقاب (609هـ/1212م) والتي انتهت بخسارتهم وهيأت لتشتيت ملكهم، كما أسهمت عملية هجرة قبيلة بني هلال إلى المغرب الإسلامي في تقليل التواصل مع بلاد السودان بسبب الأعداد الكبيرة التي وصلت إلى الصحراء الكبرى واستقرت فيها ومارس بعض أبنائها التضييق على القوافل التجارية والاعتداء عليها، إلا أن تلك الاعتداءات لم تدُم فقد ألقى (السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله) المتوفى سنة 604هـ/1208م القبض على مجموعة من الأشخاص الذين قطعوا الطريق بين سجلماسة وغانة وأمر بقطع رؤوسهم[216]، إلا أن تواجد الهلاليين في الصحراء لم يمنع من قيام علاقات تجارية ودبلوماسية بين جانبي الصحراء ، فقد أرسل (أبو الربيع سليمان) رسالة إلى ملك غانة يُنكر فيها احتجاز عدد من التجار المغاربة من قبل السودان[217].

وغالباً ما تكون السفارات أو العلاقات الدبلوماسية كما تسمى في العصر الحديث نتيجة لعلاقات جيدة بين بلدين، ويلعب القرب الجغرافي والتبادل التجاري دوراً في تطوير تلك العلاقات، وذلك الأمر ينطبق هنا على الدولتين المرينية ومالي الإسلامية.

لقد تم التركيز على القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي لكونه القرن الذي كانت فيه الدولتان في أوج عظمتهما ولاسيما في عهد السلطان أبي الحسن المريني[218]، والذي يقابله أواخر عهد سلطان مالي المشهور منسا موسى ومن تبعه من السلاطين لاسيما عهد أخيه منسا سليمان (742-762هـ/1341-1360م) .

والدولة المرينية هي إحدى الدول التي حكمت بلاد المغرب بعد أن قامت على أنقاض دولة الموحدين في سنة 668هـ/1269م، وقبيلة بني مرين هي إحدى قبائل زناتة الكبيرة التي تتخذ من الصحراء الكبرى موطن لها، وقد تزعم تلك القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقوى، وعملوا على تكوين دولة وتوحيد بلاد المغرب تحت حكمهم لاسيما في عهد السلطان أبي الحسن المريني (731-752هـ/1331-1351م) وابنه السلطان أبي عنان فارس (752هـ/1351م)، وقد بقيت الدولة تحكم المغرب حتى تدهورت أحوالها وكثرت الثورات ضدها مما أدى إلى سقوطها سنة (869هـ/1465م) في عهد آخر سلاطينها عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي

العباس (823-869هـ/1420-1465م)[219].

وقبل الخوض في تلك السفارات ونتائجها يتبادر للذهن مجموعة تساؤلات يمكن طرحها هنا، يتمثل أولها في الأسباب التي دعت المرينيين إلى التقارب مع السودان في دولة مالي، ولماذا لم تكن تلك السفارات قد تمت في وقت سابق لعهد المرينيين، وهل أن لوصول دولة مالي إلى مكانة كبيرة والتي زاد من شهرتها في تلك الفترة رحلة الحج التي قام بها حاكمها منسا موسى دور في ذلك، كما أننا يمكن أن نسأل هنا هل كانت تلك السفارات مقدمة لتوطيد علاقات كانت الغاية منها الإطلاع على السودان الغربي وما يحويه من ثروات كالذهب على نحو كبير، لاسيما أن تلك التحركات قد أسفرت فيما بعد في عهد الدولة السعدية (940-1012هـ/ 1532 -1603م) للسيطرة على البلاد على عهد أحمد المنصور السعدي[220]. وأخيراً فربما كان حنين السلطان أبو الحسن المريني لأخواله دافعاً وراء تقربه من المنطقة القريبة نوعاً ما من بلاد أمه الحبشية[221].

وإذا ما حاولنا الإجابة عن تلك التساؤلات ابتداءً من الأول فإن الظروف التي كانت تحيط بدولة غانة لم تكن مواتية لكي تقيم علاقات دبلوماسية مع حكام المغرب أو أي بلد آخر، فغانة كانت في بداية الأمر وثنية وحينما دخلت رسمياً في الإسلام كان حكامها هم أنفسهم حكام المغرب وهم المرابطون[222]، وبعد خروج المرابطين منها انشغل حكامها المسلمون من السوننك بتثبيت أركان الدولة ونشر الإسلام[223]، وفي الوقت الذي بدأت بالوقوف كدولة غزاها الوثنيون من الصوصو[224]، لذا لم تكن مهيأة لتقيم مثل تلك العلاقات. وللإجابة عن التساؤل الثاني فقد كان لشهرة دولة مالي في تلك الفترة دور كبير في ذلك التقارب من خلال متابعة الجميع وليس المرينيين فقط لرحلة حج منسا موسى، لان ما خلفته تلك الرحلة كان قد وصل إلى أوروبا أيضاً من خلال كتابة التجار البنادقة عنها لبلادهم ورسم الكثير من الغربيين لخرائط تحدد تلك الرحلة أو رسمهم لصور تشير لمنسا موسى جالساً وهو يرتكز على عصا من الذهب[225]، وفيما يتعلق بالمرينيين فقد وصلت شهرة تلك الرحلة إلى بلادهم منذ عهد السلطان أبي سعيد عثمان والد أبي الحسن (710-730هـ/1310-1330م)، كما أن وجود الصلات التجارية والثقافية في تلك الفترة بين الجانبين ساعد على زيادة التواصل بينهما، وربما كان لانشغال المماليك في مصر في محاربة الصليبيين والمغول وتثبيت أركان الدولة سبباً في عدم تقربهم من السودان مما دفع حكام السودان إلى الالتجاء للمغرب الإسلامي[226].

ويضيف أحد المؤرخين المحدثين سبباً آخر إلى الأسباب التي قربت بين الدولتين والذي تمثل في الخصال المتشابهة في السلطان المريني أبي الحسن ومنسا موسى والمتمثلة في

الالتزام بالشريعة الإسلامية، وحبهما لأهل العلم والدين، والحرص على مصالح المسلمين، فضلاً عن الورع[227] . لا بل إننا نستطيع أن نتبنى التساؤل الذي طرحناه حول رغبة المرينيين في الإطلاع على تلك البلاد ومعرفة ما بداخلها من مواد خام يأتي في مقدمتها الذهب، وربما يعزز ذلك الشكوك التي دارت حول زيارة الرحالة ابن بطوطة للمنطقة واتهامات الكثيرين له بأنه جاء ليستطلع المعلومات بطلب من السلطان أبي عنان المريني[228] . أما التساؤل الذي جمع بين التقارب وبين أم السلطان المريني الحبشية فهو مقبول لكنه لم يكن سبباً رئيساً .

إن أولى السفارات التي حصلت بين المرينيين ودولة مالي كانت تلك التي أرسلها منسا موسى سنة 737هـ/1337م إلى بلاد المغرب وهي محملة بالهدايا القيمة والتي غالباً ما كانت تُهدى مثيلاتها لحكام مصر وبلاد الشام، وقد استقبلت تلك السفارة من قبل السلطان أبي الحسن المريني أفضل استقبال[229]. ويستبق ابن خلدون تاريخ تلك السفارة قائلاً أن السنة التي بدأت فيها السفارات بين المغرب والسودان هي سنة 733هـ/1333م من غير تحديد اسم السفارة أو من كان فيها[230] ورغم أهمية تلك السفارة إلا أن فتح تلمسان وما له من أهمية سياسية في تاريخ المغرب والذي سلب اهتمام مؤرخي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي قلل من اهتمامهم بها[231].

لقد أراد السلطان موسى أن تكون سفارته معبرة وتوصل كل ما يريد قوله إلى السلطان أبي الحسن، لذا انتدب رجلاً من أصل صنهاجي ليكون ترجماناً لها[232]. فكان منسا موسى حريصاً على أن يظهر كل معاني حسن الجوار والاحترام للمرينيين، وإظهار البهجة بانتصارهم[233]. كما أن تلك السفارة وذلك الاستقبال الذي حظيت به من قبل أبي الحسن أقنعت منسا موسى بأن السلطان المريني لم تكن لديه رغبة في ضم الأراضي المالية إلى أملاكه، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود تخوف ولو على نحو بسيط في نفس حكام مالي من خلال نظرتهم إلى الماضي المتمثل في وصول المرابطين إلى غانة والسيطرة عليها[234].

وإذا كان تخوف حكام مالي من أن يجتاحهم المغاربة سبباً من الأسباب الممكنة لتطويرهم العلاقة معهم واستئمان جانبهم، فإن هناك أسباب أساسية أسهمت في تطوير تلك العلاقة منها التبادل التجاري المتقدم والممتد حتى فترات سابقة للإسلام في المنطقة، مروراً بسنوات تطوره على يد العرب والبربر المسلمين، وكان لدولة غانة السابقة لدولة مالي دور كبير في تأمين طرق التجارة وتوفير المياه وأدلاء الطرق، إلا أن للعلاقات المتطورة فيما بعد بين المرينيين ودولة مالي دور أكبر في تأمين تلك الطرق من هجمات أعراب الصحراء على القوافل التجارية، لذا فقد اعتمد المرينيين على أبناء عمومتهم من عرب المعقل[235] في تمنطيت[236] والشبانات[237]

في تأمين طرق التجارة البرية لاسيما بعد الحملة التي قادها السلطان المريني يوسف الناصر بن يعقوب[238] إلى تلك الجهات يتبعه جيش مكون من اثني عشر ألف مقاتل وصلت إلى حدود بلاد السودان سنة 686هـ/1287م أي قبل تولي منسا موسى حكم دولة مالي بعشرين سنة [239].

وكان بعض المتخوفين من حكام السودان قد اعتمدوا في تخوفهم ذاك على الحادثة التي ذكرها المؤرخ ابن خلدون مشيراً إلى قيام أبو علي ابن السلطان سعيد وشقيق السلطان أبي الحسن المريني بالاستقلال بسجلماسة والهجوم على درعة[240] غرباً وكوكيا جنوباً، إلا أن تدخل أبي الحسن وحسمه الموقف من خلال الهجوم على الأمير المنفصل وإعادة حسن الجوار مع بلاد السودان إلى سابق عهدها بداية عام 732هـ/1331م عمل على تحسين الموقف[241].

ورغم ذلك فإن علاقات الود والصداقة المتبادلة كانت قد سبقت قيام السفارات، فقد أرسل منسا موسى وهو في طريقه لأداء فريضة الحج سنة 724هـ/1323 م رسالة إلى السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب يخبره فيها بمرور قافلته من الطريق الذي تمر منه قوافل سلاطين المغرب والمحاذي لساحل البحر الأبيض المتوسط[242]، كما قابل منسا موسى في مصر حاجب السلطان المريني واسمه هلال[243].

إن من بين النتائج الإيجابية للسفارة التي أرسلها منسا موسى إلى المغرب أن توطدت العلاقات الثقافية بين الجانبين، فقد أرسل موسى البعثات من بلاده إلى مدينة فاس على نفقة الدولة، وكان من يحصل على علومه في المغرب يعود إلى بلاده ليعمل في وظائف متقدمة كالقاضي والإمام أو المعلم في مدارس المدن السودانية كتنبكتو وجني وغاو[244] نياني[245]، وقد اشتهر من بين أولئك الطلبة كاتب السلطان موسى والذي تلقى تعليمه في فاس[246]. كما ذكر الرحالة ابن بطوطة عدداً من العلماء المغاربة الذين استقبلتهم دولة مالي بالذات، منهم محمد بن الفقيه الجزولي كبير جماعة البيضان في مالي، والقاضي أبو العباس الدكالي، ومحمد الفيلالي إمام مسجدهم، وأبو إبراهيم إسحاق الجاناتي قاضي مدينة تكدا[247].

لقد أخذت مراحل التعليم في دولة مالي تتشابه مع ما كان يُتبع في الدولة المرينية ، فقد كان التعليم في عهد السلطان المريني أبي عنان يتألف من مرحلتين الأولى يكون فيها تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، والمرحلة الثانية يتم فيها تعلم النحو واللغة والأدب والفقه وغيرها[248]، وهو ما حصل فيما بعد في السودان الغربي حينما أصبح التعليم أيضاً يتم على تلك المرحلتين[249]. كما كان للكتاتيب والتي سماها المؤرخ محمود كعت بدار معلم الصبيان

لقد توسعت المساجد الجامعة في بلاد المغرب فيما بعد لتصبح جامعات كجامع القرويين[252]، وهو ما حصل فعلاً بعد ذلك في بلاد السودان حينما تحول مسجد سنكرى إلى جامعة تُدرس فيها العلوم المختلفة، فضلاً عن قيامها بتدريس مواد مشابهة لتلك التي تدرس في جامعة فاس من خلال تدريس كتاب الموطأ للإمام مالك، وصحيح مسلم والبخاري[253].

وكرد على سفارة منسا موسى تلك عمد السلطان أبو الحسن المريني على تهيئة سفارة مماثلة لتذهب إلى بلاد السودان محملة بكمية كبيرة من الهبات والمتاع المغربية، وأرسل معها عدداً من رجاله في مقدمتهم كاتب ديوانه (أبو طالب بن محمد بن أبي مدين) ومولاه (عنبر الخصي) يرافقهم عدد من الأعراب الذين أوعز لهم السلطان بمرافقة السفارة ومنهم (علي بن غانم) أمير أولاد جار الله من عرب المعقل[254].

ويشير ابن خلدون إلى أن تلك السفارة وصلت إلى دولة مالي بعد وفاة منسا موسى وتسلم أخيه منسا سليمان للحكم والذي جعله ابن خلدون ابناً لمنسا موسى[255]، كما أنه أغفل عهد منسا مغا بن منسا موسى (738-742 هـ/ 1337-1341م) والذي يقع بين حكم منسا موسى ومنسا سليمان[256]، وإذا كان ابن خلدون واثقاً من روايته فان السلطان أبي الحسن كان قد أرسل سفارته تلك بعد سنة 741هـ/1340م أي بعد وفاة منسا مغا وتسلم منسا سليمان للحكم[257]. ويبدو أن الوفد المريني كان قد نقل لمنسا سليمان تعازيه بوفاة أخيه منسا موسى، وقد قدر منسا سليمان للوفد ذلك العمل واقتدى به كسلوك إسلامي يدعو إلى التخفيف عن ذوي المتوفى ومواساتهم والدعاء للميت بالمغفرة[258]. وهناك من يتمسك بفرضية كون السفارة لم تتم في عهد منسا سليمان بل في عهد منسا مغا وكانت تضم عدداً من المراكشيين في مقدمتهم رجل يدعى ابن غانيه[259].

ورغم ما كانت تمر به دولة مالي خلال تلك السفارة المرينية من ظروف صعبة بسبب هجوم قبائل الموسي[260] على مدينة تمبكتو ونهبها وحرقها إلا أن منسا سليمان استقبلها بحفاوة وأرسل معها عند عودتها وفداً من رجال دولته وصلوا عند أبي الحسن ((يعظمون سلطانه ويوجبون حقه، ويؤدون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته))[261].

وفي سنة 748هـ/1348م أرسل السلطان منسا سليمان سفارة جديدة إلى بلاد المغرب يهنئ فيها السلطان المريني أبا الحسن على فتح تونس والانتصار على الحفصيين[262] إلا أن تلك السفارة تعرضت للسلب والاعتداء كبقية السفارات القادمة من أماكن أخرى بعد قيام السلطان المريني أبي عنان بالانقلاب على والده السلطان أبي الحسن فذهبت السفارة إلى

تونس لملاقاة أبي الحسن دون هدايا برعاية أمير الزواودة (يعقوب بن علي)[263] بعد أن دخلت مدينة بسكرة[264] قبل وصولها إلى تونس[265]. وكان من بين أفراد تلك السفارة الحاج موسى الونجراتي الذي لقيه الرحالة ابن بطوطة خلال وجوده في دولة مالي الإسلامية[266].

وما أن حلت سنة 762هـ/1360م حتى كانت إحدى السفارات قد علقت في مدينة ولاته لاسيما بعد وفاة منسا سليمان، وبقيت هناك حتى مجيء منسا ماري جاطة الثاني (762-776هـ /1360-1374م) والذي عمل على استردادها وضم إليها هدايا أخرى كان من بينها الزرافة التي لم يكن أهل المغرب قد شاهدوها بعد وأمر بتوجيهها إلى المغرب، والتي حظيت باهتمام السلطان أبي سالم المريني[267] والرعية معاً فقد خرج السلطان وحاشيته إلى الصحراء لاستقبال السفارة المالية وخرجت معه جموع المستقبلين الذين يصف وقوفهم المؤرخ ابن خلدون بالزحام وأنهم وقفوا الواحد فوق الآخر لمشاهدة الزرافة، واحتفاءً بتلك المناسبة انشد الشعراء أجمل القصائد، وعند وصول الوفد قدم الترجمان المرافق له الاعتذار للسلطان عن التأخير شارحاً له ما آلت إليه الأمور في البلاد بعد وفاة منسا سليمان، وكتأكيد لما يقوله الترجمان وجرياً على عادتهم يقوم بقية الوفد بوضع التراب على رؤوسهم وينزعوا أوتار قسيهم[268].

ويأتي في ختام تلك السفارات رحلة ابن بطوطة إلى دولة مالي سنة (753هـ/1352م) بأمر من السلطان المريني أبو عنان[269] والتي دارت الشكوك حول دوافعها إلا أنها رغم ذلك قدمت لنا الكثير من المعلومات عن المنطقة لاسيما دولة مالي والتي وصلها الرحالة ابن بطوطة على عهد ملكها منسا سليمان الذي استقبله هناك[270]، وقد وصف لنا الرحالة مجلس السلطان الذي يكاد يكون مشابهاً لما كان قد ألفه الرحالة في مجالس سلاطين الدولة المرينية[271]. وكان الرحالة قد شارك في مجلس عزاء أقامه منسا سليمان على روح السلطان أبي الحسن المريني[272]، وهو تقليد لم يكن موجوداً فيما سبق في بلاد السودان فلم تذكره المصادر من قبل بينما كان مألوفاً في المغرب إذ يبدو أن منسا سليمان كان قد تعلم ذلك التقليد من خلال ما نقلته تلك السفارات فضلاً عن التجارة .

فضلاً عن ذلك فقد نقل لنا الرحالة ابن بطوطة طريقة احتفال السودان بعيدي الفطر والأضحى وشهر رمضان المبارك، واصفاً لنا ما كان يرتديه السلطان وحاشيته وبقية الناس خلال تلك الأيام الفضيلة، كما تدخل المدينة في جو من الإيمان وتلاوة القرآن الكريم وقراءة كتب المالكية لاسيما في ليلة القدر وبقية ليالي شهر رمضان[273]، وتلك الاحتفالات كانت تتم على نحو أوسع في بلاد المغرب خلال العصر المريني[274].

لقد تمثلت سياسة أبي الحسن إزاء حكام دولة مالي بالأخوة والمحبة وكسب الود والصداقة واستخدام الكلمة الطيبة من خلال تطبيق مبدأ الأخوة في الدين[275] وكنتيجة لتلك السفارات فقد توطدت العلاقات التجارية بين البلدين ووصلت القوافل التجارية من المغرب الأقصى وبقية المدن المغربية لاسيما مدن درعة وسوس وسجلماسة وفاس إلى دولة مالي ومدينة تمبكتو التي تُعد سوقاً مهماً لتجارة الذهب[276].

فضلاً عن الذهب فإن التجار المغاربة يجلبون النحاس من منطقة تكدا في بلاد السودان ليقوموا بتصديره إلى بقية الأماكن التي يتاجرون معها، بينما يصنع قسم آخر في بلادهم في دكاكين النحاس الموجودة في فاس[277]، وكانت تلك المحاور التجارية التي يتم من خلالها التبادل بين المغرب وبلاد السودان مزدهرة وتعمل على نحو مستمر حتى وفاة السلطان أبي عنان المريني (759هـ/1359م) ووفاة منسا سليمان (760هـ/1360م)[278].

وكان عهد منسا سليمان مكملاً لسابقيه من الحكام السودان في توطيد العلاقة مع المرينيين وتوسيع التبادل التجاري والاقتصادي، كما أن تلك العلاقات وتبادل السفارات لها نتائج إيجابية منها كبح جماح الأعراب ومنعهم من مهاجمة القوافل التجارية والعمل على تأمين طرقها، كما أنها شجعت الكثيرين على السفر والإطلاع على أحوال الآخر، ولم يتوقف الأمر عند التجارة فقد ازدهرت الزراعة بسبب دخول أنواع جديدة من البذور والآلات الزراعية الحديثة من بلاد المغرب، كما عمل حكام دولة مالي على توظيف المغاربة في بلاطهم، فضلاً عن ذلك فإن الأئمة والخطباء في المساجد كانوا من المغاربة ، كما وجد طلبة العلم السودان ملاذهم في مدارس فاس والقيروان[279].

وشملت التأثيرات الحضارية المغربية بلاطات الملوك والحكام، فكانت الطبول المستخدمة للتنبيه بخروج السلطان سليمان في دولة مالي تستخدم في المغرب تحت اسم (تريال)[280] كما كان بلاط سلاطين دولة مالي صورة لما كان سائداً في بلاط مراكش[281]. كما كان السلطان في بلاد المغرب يجلس بنفسه لقضاء المظالم ويحضر معه حاشيته[282]، والأمر نفسه شاهده الرحالة ابن بطوطة في دولة مالي حينما وصف لنا جلوس منسا سليمان لحل المشكلات والاقتصاص من الظالم[283].

فضلاً عن ذلك فإننا لم نسمع قبل عهد منسا سليمان أي مشاركة للمرأة في الحياة العامة لاسيما السياسة، إذ أصبحت في عهده الزوجة الكبرى الملقبة بقاسا تشارك السلطان في الحكم[284]. وظهور المرأة للحياة العامة في بلاد المغرب على عهد المرينيين يكاد يكون مألوفاً، فقد ساهمت المرأة المغربية في بناء النهضة العلمية وظهرت منهن عالمات شهيرات (كست

العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي)، فضلاً عن الأديبة (صفية العزفية السبتية) وهي من فضليات نساء عصرها في العلم[285]. وربما كان لعلاقة السلطان موسى بالمغرب وتبادله السفارات مع حكامها دور في إقدامه على السماح لزوجته بالمشاركة في الحكم.

ونتيجة لتفوق المدن المغربية علمياً على مدن بلاد السودان فقد تطلع الكثير من علماء دولة مالي إلى زيارة تلك المدن والدراسة فيها والالتقاء بعلمائها وفقهائها، إذ يُذكر أن (عبد الرحمن التميمي) القادم من الحجاز إلى دولة مالي توجه في عهد منسا موسى إلى فاس ونهل من علومها ثم عاد ثانية إلى مدينة تنبكتو ليعلم طلبته هناك ما تعلمه هو في فاس[286]، فضلاً عن ذلك فقد استخدم السودان الخط المغربي في مخاطباتهم الرسمية، ولعل الرسالة التي وجهها منسا موسى للسلطان المملوكي محمد بن قلاوون خير دليل على ذلك[287]، كما أن لتلك العلاقات دور في زيادة عملية انتشار المذهب المالكي في بلاد السودان، والتي تبعها عملية شراء لكتب المالكية على نحو كبير أسهم فيها حكام دولة مالي وفي مقدمتهم منسا موسى[288].

ومن المؤثرات الأخرى التي وصلت إلى بلاد السودان من المغرب الجانب العمراني، وكان للمهندس المراكشي (أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن) الذي قدم مع منسا موسى من الحجاز دور كبير في بناء مسجد مدينة (جني) والذي يُعد مثالاً على تمازج الفن العربي الإفريقي، فضلاً عن دوره في تصميم وبناء مساجد وقصور أخرى في البلاد[289]. وقد أكد المؤرخ السعدي أن العمارة في بلاد السودان جاءت في أغلبها من بلاد المغرب بقوله: (ولم تأته العمارة إلا من المغرب، لا في الديانات، ولا في المعاملات)[290]. ويبدو أنه شمل كل تطور حضاري وليس العمارة بمعناها المحدد بذلك القول فقط .

كما شملت تلك التأثيرات التي وصلت دولة مالي في نفس القرن الذي حصلت فيه تلك السفارات الملابس فكانت ملابس سكان مملكة مالي مشابهة لملابس المغاربة كالجباب والدراريع، فضلاً عن العمائم ذات الحنك[291].

ويبدو من خلال ما سبق أن تلك السفارات بين الجانبين أسهمت بشكل أو بآخر في تطوير العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتي كانت قائمة بالفعل بين بلاد السودان على نحو عام والمغرب الإسلامي.

سادساً : التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية في السودان الغربي :

كان للإسلام دور كبير في نقل الحضارة إلى سكان إفريقيا بواسطة التجار المسلمين من العرب والبربر لاسيما إلى منطقة السودان الغربي، ذلك التأثير الإسلامي الذي كان مرحباً به

في المنطقة لأنه لم يأتي على نحو مفاجئ كما أنه لم يجبر السكان على الانسلاخ من هويتهم الزنجية ويحولهم إلى العروبة أو البربرية قسراً، كما أنه لم يقضي على اللغة السودانية أو اللغات واللهجات المحلية الإفريقية بل على العكس أبقى عليها، فضلاً عن ذلك فإنه لم يقضي على تاريخ وخصوصية الأفارقة ولا على عاداتهم وتقاليدهم لاسيما التي لم تكن تصطدم مع الشرع الإسلامي.

وكانت خصوصية تعامل الإسلام مع البشر ثابتة تشمل الجميع ولا تفرق بين الناس على أساس القومية والفئة أو اللون بل جعلت التقوى هي المقياس تنفيذاً لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾(293)، فكان الإسلام والمسلمون عوامل تأثير إيجابية في المجتمع الإفريقي على عكس الأوربيين الذين وصلوا المنطقة في وقت كانت مؤثرات الإسلام بارزة على نحو واضح فيها، فحاربوها وأصبحوا عامل تخريب وتدمير للقارة الإفريقية على نحو عام، وهنا لابد من الإشارة إلى أبرز المؤثرات التي انتقلت إلى السودان الغربي والتي تم الحديث عنها في ثنايا الموضوع إلا أن أهميتها استدعت إفرادها على نحو منفصل وهي:

1- على مستوى النظافة فقد تعلم الإفريقي من التاجر المسلم نظافة البدن والملابس، فضلاً عن الاحتشام لاسيما لدى المرأة.

2- نقل المسلمون إلى إفريقيا مبادئ إنسانية إسلامية في التعامل مع الآخرين كالصدق في الأقوال والأفعال، وتحريم الربا والغش، والتعامل بأمانة.

3- أدخل المسلمون إلى السودان الغربي نظام الإدارة وهو ما ظهر جلياً حينما اعتمد الملك الوثني في غانة على تجار مسلمين في إدارة شؤون البلاد فأصبح تراجمة الملك ووزرائه وصاحب بيت ماله من المسلمين .

4- وفي الجانب الإداري أيضاً فقد تم تقسيم البلاد إلى ولايات لاسيما حينما اتسعت حدود المنطقة في عهد دولة مالي والتي ضمت أربعة عشر إقليماً على رأس كل إقليم والي يساعده نائب.

5- أصبح للملك أو السلطان مستشارون كما هو معمول به في باقي الأمة الإسلامية وأصبحت مجالس السلاطين مشابهة للمجالس في المغرب والمشرق الإسلامي.

6- بسبب حب الأفارقة للإسلام فقد ربطوا نسبهم بالنسب العربي، فمنهم من ربط نسبه بآل البيت الأطهار، ومنهم من أعاد نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وهكذا.

7- قلد الحكام في السودان الغربي المسلمين في لبس العمامة ووجهوا العامة للبسها، فضلاً عن بحثهم عن عملية الاعتراف بهم رسميا كخلفاء للمسلمين في بلادهم وهو ما حصل عليه الأسكيا الحاج محمد عند لقائه أمير مكة المكرمة.

8- بعد استقرار الإسلام في المنطقة انتقلت المؤثرات المعمارية، فتحولت الدور البسيطة البناء إلى دور فخمة ذات طوابق متعددة بفضل الخبرات الهندسية والفنية التي وصلت المنطقة كالمهندس أبي اسحق الساحلي المعروف بالطويجن الذي وصل دولة مالي بصحبة السلطان موسى بن أبي بكر التكروري.

9- أصبح للثقافة دور كبير في بلاد السودان فأصبحت الكتاتيب نواة للمدارس والجامعات التي أقيمت هناك كجامعة (سنكري) في تنبكتو، فضلاً عن إرسال البعثات العلمية إلى مدن فاس والقيروان والقاهرة، ومع زيادة أعداد الطلبة عمد سلاطين المنطقة إلى دفع الأموال لرجُل اسمه (ابن رشيق) لافتتاح مدرسة يأوي إليها طلبة السودان خلال تواجدهم في مصر.

10- أسهمت هجرة علماء وفقهاء الأمة الإسلامية إلى السودان الغربي في تطوير البلاد ورفعتها، فنبغ من بين سكانها من كانت لديه تطلعات علمية كبيرة ساعدتها على النمو والازدهار جهود سلاطين السودان في تطوير تلك المعارف وإرسال الطلبة للتعلم في مدن العلم خارج السودان لينتج لنا جيل من العلماء كالعالم (أحمد بن محمد أقيت) النحوي البارع والذي بقي لمدة طويلة في مصر ثم عاد إلى تنبكتو وعمل في التدريس حتى وفاته سنة 1492هـ/1535م، كما اشتهر منهم (صبح بن عبد الله التكروري) الذي اشتغل بالتدريس في القاهرة ودمشق حتى وفاته سنة (731هـ/1330م)، فضلاً عن الكثير من صلحاء التكرور كالعالم الزاهد (رشيد الأسود التكروري) الذي اتخذ من جامع راشد بالقاهرة مكاناً للخلوة والزهد حتى وفاته سنة (976هـ/1567م) وغيرهم الكثير.

الهوامش

(1) الشكري، الإسلام، ص60.

(2) J.F.A . Ajay , History Of West Africa , (New York : 1976), Vol . 1, P.1.

(3). Levtzion , Nehemia , Ancient Ghana And Mail , Muthuen And Co : Ltd , (London :1973), P.3.

(4) المسعودي، مروج الذهب: 422/1.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى: 284/5. وللمزيد حول غانة انظر: إبراهيم علي طرخان، امبراطورية غانة الإسلامية، (القاهرة: 1970) .

(6) ابن خلدون، العبر: 554/7.

(7) أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، الأستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، (الدار البيضاء :1997) : 151/1.

(8) زكي، تاريخ الدول، ص22.

(9) الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف، ص35.

(10) حسن أحمد محمود، انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص227–229 .

(11) السلاوي الاستقصا: 183/1.

(12) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، (تونس: 1968)، ص109–122.

(13) ابن عذاري، البيان المغرب: 72/1؛ إدريس صالح الحرير، العلاقات الاقتصادية، ص2 .

(14) الحرير، العلاقات، ص2 .

(15) البكري، المُغرب، ص173.

(16) أودغست: هي مدينة تبعد عن سجلماسة شهرين على سمة المغرب، وتقع منحرفة بمحاذاة السوس الأقصى كأنها مع سجلماسة مثلث طويل الساقين اقصر أضلاعه من السوس إلى اودغست، ومن اودغست إلى غانة بضعة عشر يوما. انظر: أبو القاسم محمد بن علي النصيبي المعروف بابن حوقل، صورة الأرض (بيروت: 1979) ، ص91. وقد ذكرها اليعقوبي باسم (غطس) . انظر: كتاب البلدان، ص360.

(17) البكري، المُغرب، ص159.

(18) التجارة الصامتة: وهي عملية تبادل مادة الملح الذي كان يجلبه التجار البربر من بلادهم والذي كانت تفتقده بلاد السودان بمادة الذهب المتوافرة هناك والذي يرغب العرب والبربر بشرائه، وسبب تسميتها بالتجارة الصامتة لأنها تتم من غير تكلم أحد الجانبين مع الجانب الآخر بسبب عدم معرفة أحدهما للغة

الآخر، فضلاً عن رغبة الأفارقة في عدم التكلم مع الآخرين كي لا تنكشف مناجم الذهب لهم. يُنظر : أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق وتعليق: مصطفى أبو ضيف أحمد، ط1، (الرباط: 1988)، ص76 .

(19) صورة الأرض، ص151 .

(20) المُغرب، ص176.

(21) تحفة النظار : 269/2.

(22) البكري، المغرب، ص175.

(23) صورة الأرض، ص99 .

(24) ولاته: اختلف المؤرخون في تسميتها فبعضهم يسميها (ايوالاتن). انظر: ابن بطوطة، الرحلة، ص675؛ المقري، نفح الطيب: 205/5 . وآخر يسميها (ولاتن). انظر: ابن خلدون، العبر: 117/7. في حين يسميها السعدي (ولات) . انظر: تاريخ السودان، ص21. ويسميها الوزان (ولاته) . انظر: وصف أفريقيا: 161/2. وولاته مدينة من مدن السودان تقع على مسافة (450كم) غرب تنبكتو. انظر: الوزان، وصف إفريقيا: 161/2؛ السعدي، تاريخ السودان، ص22؛ نوري، تاريخ، ص302.

(25) جمال زكريا قاسم، الروابط العربية الإفريقية، ص37–38 .

(26) جوزيف، الإسلام، ص47 .

(27) إبراهيم علي طرخان، امبراطورية غانة الإسلامية، (القاهرة: 1970)، ص17 .

(28) آدم عبد الله الآلوري، موجز تاريخ نيجيريا، (بيروت: 1965)، ص152.

(29) عائدة محمد عبيد الجبوري، مملكة غانة – دراسة في الجوانب الحضارية من القرن 1-6هـ/7-12م –، رسالة ماجستير غير منشورة، (الموصل: 2003) ، ص19.

(30) كعت، التاريخ الفتاش، ص41.

(31) الخشاب والمشهداني، أفريقيا، ص140.

(32) فاضل عبد الواحد وعامر سليمان، عادات وتقاليد الشعوب القديمة، (بغداد: 1979) ، ص94-95.

(33) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 191/1.

(34) بولم، الحضارات الأفريقية، ص49.

(35) ابن حوقل، صورة الأرض، ص97؛ كعت، التاريخ الفتاش، ص41–42.

(36) الماندنجو: قبائل إفريقية انتشرت في المنطقة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي. ينظر: الجبوري، مملكة غانة، ص30.

(37) Murphy . E . L , History of African Civilization , (New York: 1972), P . 105)

(38) يسري الجوهري، السلالات البشرية، (الأسكندرية: 1967)، ص400.

(39) البكري، المُغرب، ص176؛ مجهول، الاستبصار، ص220 .

(40) الغرناطي، تحفة الالباب، ص38 .

(41) البكري، المغرب، ص179 .

(42) الجبوري، مملكة غانة، ص37.

(43) كعت، التاريخ الفتاش، ص41.

(44) كعت، المصدر نفسه.

(45) كعت، نفسه.

(46) طرخان، دولة غانة، ص27.

(47) الجبوري، مملكة غانة، ص41 .

(48) البكري، المُغرب، ص175.

(49) كعت، التاريخ الفتاش، ص114.

(50) البكري، المُغرب، ص175 . وتشير الاختبارات الأثرية على أن أقدم مسجد في غانة العاصمة يعود إلى نهاية القرن 3هـ/9م . يُنظر: احمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني - امبراطورية مالي 1230-1430م، ط1، (ابو ظبي: 1999)، ص99.

(51) البكري، المُغرب، ص175.

(52) الشكري، الإسلام، ص100 .

(53) البكري، المُغرب، ص174-175.

(54) البكري، المُغرب، ص179.

(55) الإدريسي، صفة المغرب، ص6-7؛ طرخان، امبراطورية غانة، ص29 .

(56) ابن أبي زرع، الأنيس المُطرب، ص134-135.

(57) الزهري، كتاب الجغرافية، ص125.

(58) ابن أبي زرع، الانيس، ص134-135.

(59) ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص135-136.

(60) الشكري، الإسلام، ص150-155.

(61) ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص92.

(62) ابن خلدون، العبر: 91/1.

(63) القلقشندي، نهاية الآرب، ص287.

(64) أبو الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (حيدر أباد: 1395م) : 200-93/9.

(65) ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص92.

(66) القرماني، أخبار الدول، ص397.

(67) الزهري، الجغرافيا، ص135؛ الإدريسي، وصف إفريقيا، ص8-10 .

(68) الزهري، الجغرافيا، ص125.

(69) الإدريسي، صفة المغرب، ص6 .

(70) الأنصاري، نخبة الدهر، ص110.

(71) زبادية، مملكة سنغاي، ص20؛ الجبوري، مملكة غانة، ص109-110.

(72) للمزيد حول المؤثرات الإسلامية يُنظر: فوزية يونس فتاح، التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي، رسالة دكتوراه غير منشورة (جامعة الموصل: 1994) .

(73) البكري، المُغرب، ص119 وما بعدها.

(74) ابن خلدون، العبر: 413/6.

(75) الشكري، الإسلام، ص172 .

(76) الشكري، الإسلام، ص179 .

(77) ناري فامغان: وهو أحد ابناء موسى الاكوي أحد حكام مالي، وقد سمي نارى نسبة إلى أمه، ولا يعرف عنه سوى أنه حكم من حوالي سنة 1218م إلى 1230م، واستطاع أن يوسع حدود دولته الناشئة وبذل جهوداً كبيرة في نشر الإسلام ولاسيما بين البامبارة والبوزو وهما من فروع الماندنجو. ينظر: إبراهيم علي طرخان، دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة: 1973)، ص37.

(78) الشكري، الإسلام، ص183.

(79) منسا: وهو لقب من الألقاب التي اتخذها سلاطين السودان الغربي وتعني الحاكم عند الماندنجو، وفي البداية كان لقب رئيس القرية ثم توسع. ينظر: نوري، تاريخ الإسلام، ص299.

(80) الشكري، الإسلام، ص183. والسنغاي: وتكتب أيضاً بالصاد (الصنغاي) وهي قبيلة كانت تسكن النيجر حول الغابات الاستوائية أولاً ثم أنتقلت إلى الشمال وأسست حوالي القرن الأول الهجري / السابع الميلادي إقليم عرف أطوار القوة والضعف وتدهور قبل أن يتولاه الأساكي ليصبح دولة متكاملة وقوية تحت حكمهم. ينظر: الحسن بن محمد الفاسي الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط1، (الرباط: 1982): 2/هامش رقم (6) ص182.

(81) طرخان، دولة مالي، ص65.

(82) ابن خلدون، العبر: 413/6.

(83) العمري، مسالك الإبصار، ص64.

(84) الشكري، الإسلام، ص181 .

(85) طرخان، دولة مالي، ص42 .

(86) طرخان، دولة مالي، ص42 .

(87) القلقشندي، صبح الأعشى: 293/5.

(88) البكري، المغرب، ص175.

(89) الشكري، الإسلام، ص183 .

(90) ابن خلدون، العبر: 414/6.

(91) العبر: 5 /494.

(92) العبر: 200/6 .

(93) القلقشندي، صبح الاعشى: 294/5.

(94) العبر: 414/6 .

(95) الشكري، الإسلام، ص185.

(96) دولة مالي، ص70 .

(97) تاريخ الفتاش، ص38 .

(98) تحفة النظار: 281/2.

(99) السعدي، تاريخ السودان، ص7 .

(100) طرخان، دولة مالي، ص73.

(101) ابن بطوطة، تحفة النظار: 281/2 .

(102) العمري، مسالك الأبصار، ص74.

(103) ابن بطوطة، تحفة النظار: 271/2.

(104) السعدي، تاريخ السودان، ص8 .

(105) طرخان، دولة مالي، ص73.

(106) العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان: 383/4.

(107) الإدريسي، صفة المغرب، ص3 .

(108) طرخان، دولة مالي، ص75.

(109) تنبكتو: مدينة في السودان الغربي تقع عند الحافة الجنوبية لمنحنى نهر النيجر، وهي حلقة وصل بين الصحراء الكبرى والسودان الغربي، تشير أغلب الآراء أنها تأسست في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي على يد الطوارق. ينظر: الهادي المبروك، العلاقات، ص16.

(110) قبائل الموسي: تكتب أيضاً بالشين (الموشي)، وهي قبائل وثنية تسكن جنوب منحنى نهر النيجر في منطقة فولتا العليا، وقد بقوا على وثنيتهم وقاوموا الإسلام خلال حكم دولتي مالي والسنغاي، وامتهنوا السلب والنهب. ينظر: نوري، تاريخ، ص300 .

(111) السعدي، تاريخ السودان، ص69–70.

(112) جني: جني: مدينة من مدن السودان الغربي تأسست سنة 435هـ/1033م ويسميها التجار الأفارقة جنة، تقع على مسافة (60كلم) إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكتو. ينظر: نوري، تاريخ، ص286 .

(113) طرخان، دولة مالي، ص76.

(114) العمري، مسالك الأبصار، ص67–68 .

(115) العمري، مسالك الأبصار، ص60.

(116) القلقشندي، صبح الأعشى: 283/5.

(117) العمري، مسالك الأبصار، ص60 .

(118) المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك، (القاهرة: 1955)، ص112؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 396/5؛ نوري، دور الحج، ص255 .

(119) السعدي، تاريخ السودان، ص7 .

(120) كعت، التاريخ الفتاش، ص .

(121) كعت، المصدر نفسه، ص32.

(122) طرخان، دولة مالي، ص81.

(123) طرخان، المرجع نفسه، ص86.

(124) القلقشندي، صبح الأعشى: 460/5.

(125) المقريزي، الذهب المسبوك، ص112.

(126) ابن حجر، الدرر الكامنة: 383/4.

(127) زكي، تاريخ الدول، ص109.

(128) طرخان، دولة مالي، ص93–94.

(129) السعدي، تاريخ السودان، ص5-6.

(130) ابن بطوطة، تحفة النظار: 272/2.

(131) ابن بطوطة، تحفة النظار: 281/2 .

(132) كعت، التاريخ الفتاش، ص35.

(133) ابن بطوطة، تحفة النظار: 282/2 .

(134) طرخان، دولة مالي، ص107 .

(135) ابن خلدون، العبر: 201/6.

(136) صندكي: وتعني رئيس الرقيق أو الوزير، وهذا الرجُل هو زوج أم السلطان (مغان الثاني). يُنظر: نوري، تاريخ، ص33 .

(137) باري، المسلمون، ص87 .

(138) الفولانيون: قبائل شبه زنجية يرجعهم البعض إلى كونهم نتاج مصاهرة البربر أو المصريين أو الهنود مع زنوج التكلور القاطنين على جانبي نهر السنغال. ينظر: نوري، تاريخ، ص33.

(139) التكارنة: وهم سكان منطقة تكرور في السنغال. ينظر: باري، المسلمون، ص87.

(140) باري، المسلمون، ص87.

(141) دندي: منطقة تقع على نهر النيجر وتقع اليوم بين شمال بنين وغرب نيجيريا. ينظر: باري، المسلمون، ص117.

(142) شلبي: 121/6.

(143) شلبي، المرجع نفسه: 121/6–122. وكوكيا: وهي في البداية قرية في عهد إمبراطورية غانة الإسلامية، ثم اتسعت لتصبح عاصمة السونغاي قبل أن ينتقلوا إلى عاصمتهم الجديدة نياني، وتقع كوكيا في موقع مهم على طرق التجارة والمواصلات البرية والنهرية. ينظر: نوري، تاريخ الإسلام، ص297.

(144) زبادية، مملكة سنغاي، ص25–26.

(145) زبادية، مملكة سنغاي، ص26.

(146) Trimingham , p .93.

(147) قداح، إفريقيا الغربية، ص69.

(148) السوننك: وهم إحدى قبائل الماندنجو الذين كانوا يقيمون في الصحراء ثم تركوها واتجهوا إلى الحافة الجنوبية وامتزجوا بالبربر والفولانيون، وهم زراع مرتبطون بالأرض إلا أن ذلك لم يمنع عملهم في حرف أخرى، ويُعد السوننك مؤسسوا دولة غانة الإسلامية. ينظر: إبراهيم علي طرخان، امبراطورية غانة الإسلامية، (القاهرة: 1970)، ص51.

(149) شلبي: 260/6.

(150) زبادية، مملكة سنغاي، ص28 .

(151) شلبي: 279/6.

(152) باري، المسلمون، ص117.

(153) زبادية، مملكة سنغاي، ص31-32.

(154) السعدي، تاريخ السودان، ص226.

(155) زبادية، مملكة سنغاي، ص34-35.

(156) زبادية، مملكة سنغاي، ص35 .

(157) نعيم قداح، إفريقيا الغربية، ص73 .

(158) باري، المسلمون، ص120 .

(159) كعت، التاريخ الفتاش، ص22.

(160) السعدي، تاريخ السودان، ص83 .

(161) نوري، دور الحج، ص257.

(162) باري، المسلمون، ص118-119.

(163) السعدي، تاريخ السودان، ص73 .

(164) زبادية، مملكة السنغاي، ص38.

(165) زبادية، مملكة سنغاي، ص38-39 .

(166) كعت، التاريخ الفتاش، ص148.

(167) كعت، المصدر نفسه، ص148.

(168) زبادية، مملكة سنغاي، ص42.

(169) السعدي، تاريخ السودان، ص95 .

(170) السعدي، تاريخ السودان، ص95.

(171) زبادية، مملكة سنغاي، ص45.

(172) السعدي، تاريخ السودان، ص100 .

(173) كعت، التاريخ الفتاش، ص41 .

(174) السعدي، تاريخ السودان، ص104 .

(175) زبادية، مملكة سنغاي، ص49.

(176) نوري، تاريخ، ص157 .

(177) زبادية، مملكة سنغاي، ص50.

(178) زبادية، المرجع نفسه، ص51–52.

(179) قداح، إفريقيا الغربية، ص75–76.

(180) باري، المسلمون، ص122.

(181) باري، المرجع نفسه، ص123.

(182) شلبي: 6/275.

(183) قداح، إفريقيا الغربية، ص78.

(184) باري، المسلمون، ص187. والشيخ عثمان بن فودي: هو عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد الملقب بأبن فودي (وتعني بلغة الفولانيين) الفقيه، ولد في بلدة (ماراتا Maratta) بولاية غوبر Gobirحالياً في ولاية سوكوتر بنيجيريا عام 1168هـ / 1754م. ينظر: باري، ص188 .

(185) علي الشاب، عثمان بن فوديو، شيخ الصوفية المجاهدة. نقلاً عن باري، ص188 .

(186) باري، ص188–189؛ حورية توفيق مجاهد، وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا، الزعامات الدينية – السياسية والجهاد الإسلامي، بحث على الشبكة الدولية .

(187) أرنولد، ص360 .

(188) أرنولد، المرجع نفسه ، ص360 .

(189) شلبي، مج6 ، ص226.

(190) باري، ص189 .

(191) أرنولد، الدعوة، ص362 .

(192) باري، المسلمون، ص190.

(193) باري، المسلمون، ص190 .

(194) باري، المسلمون، ص191 .

(195) السلطان محمد بلو بن عثمان، اتفاق الميسور في تاريخ التكرور، (القاهرة: 1964) ، ص67.

(196) محمد إبراهيم أبو سليم، الحركة الفكرية في المهدية، (الخرطوم: 1970)، ص44 .

(197) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (الكويت: 1989)، سلسلة المعرفة، ع139 ، ص44 – 45.

(198) كاتسينا: مملكة مجاورة لكانو من جهة الشرق مشتملة على تلال صخرية قليلة الارتفاع وأراضيها وعرة ولكنها جيدة لزراعة الشعير والدخن فيها، وللمزيد. انظر: الوزان، وصف افريقيا: 2/173–174.

(199) ابراهيم، المسلمون، ص45.

(200) باري، المسلمون، ص193.

(201) زكي، تاريخ الدولة الإسلامية؛ باري، المسلمون، ص193 .

(202) باري، المرجع نفسه .

(203) باري المرجع نفسه، ص194 .

(204) زكي، تاريخ الدول، ص192 .

(205) أرنولد، الدعوة، ص361 .

(206) باري، المسلمون، ص195.

(207) باري، المسلمون، ص195 .

(208) فيج، موجز تاريخ، ص165.

(209) زكي، تاريخ الدول، ص37 .

(210) طرخان، امبراطورية الفولانيين، ص122–123.

(211) طرخان، المرجع نفسه، ص123.

(212) طرخان، نفسه، ص124.

(213) ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين، ص71؛ الشكري، الإسلام، ص260.

(214) البيان المغرب: 1/246.

(215) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص219.

(216) نفح الطيب: 3/107.

(217) الشكري، الإسلام، ص262.

(218) أبو الحسن المريني: هو السلطان المريني علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق الملقب بأبي الحسن المنصور بالله، وهو يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لسمرة لونه، أمه حبشية، وقد بويع بفاس بعد وفاة أبيه سنة 731هـ/1330م بعهد منه، وقد استنجد به بنو الأحمر حينما احتل الإفرنج جبل طارق فلبى نداءهم وأرسل الجيوش وأفتتح الجبل وحصنه، استمر في الحكم حتى خلعه ابنه أبو عنان. ينظر: الزركلي، الأعلام: 5/126.

(219) علي محمد محمد الصلابي، إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين، ط1، (القاهرة: 2003)، ص234–235.

(220) أحمد المنصور: هو السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله بن السلطان أبي عبد الله، ولد بفاس سنة 956هـ، وهو أحد خلفاء الدولة السعدية وكان قد بويع بالإمامة سنة 986هـ/1578م بعد انتصاره على البرتغاليين في معركة وادي المخازن وعاصر السلطان العثماني مراد بن سليم، وكان المنصور غزا بلاد السودان الغربي واحتلها، وتوفي سنة 1012هـ. ينظر: السلاوي، الاستقصا: 89/5.

(221) السلاوي، الاستقصا: 23/3.

(222) الزهري، كتاب الجغرافية، ص125 .

(223) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، ص92.

(224) ابن خلدون، العبر: 200/6.

(225) طرخان، دولة مالي، ص88.

(226) الشكري، الإسلام والمجتمع، ص272.

(227) الشكري، المرجع نفسه، ص272–273 .

(228) الشكري، المرجع نفسه، ص275–276 .

(229) السلاوي، الاستقصا: 152/3.

(230) ينظر: ابن خلدون، العبر: 532/7؛ الشكري، الإسلام، ص273.

(231) الشكري، الإسلام، ص273.

(232) ابن خلدون، العبر: 266/7 .

(233) مزاحم علاوي الشاهري، الدولة المرينية في عصر السلطان ابي الحسن علي بن عثمان (731–752هـ/1331–1352م)، دراسة حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: 1985)، ص73.

(234) حسن، انتشار الإسلام والعروبة، ص56–57؛ الشاهري، الدولة المرينية، ص73.

(235) عرب المعقل: وهم قوم دخلوا بلاد المغرب مع الهلاليين وكان عددهم يقارب المائتين فقط، وتقربوا من زناتة فكان لهم تأثير في صحارى المغرب الأقصى فملكوا قصور السوس غرباً ثم توات بودة ووارگلان وتمنطيت. ينظر: السلاوي، الاستقصا: 178/1 .

(236) تمنطيت: وهو قصر من قصور الصحراء الكبرى، كان في فترة قيام الدولة المرينية محكوماً من قبل بنو معقل. ينظر: السلاوي، الاستقصا: 178/1.

(237) الشبانات: وهم قوم من العرب الساكنين في الصحراء وفي منطقة السوس مجاورين لبني حسان، وكان الشبانات وبنو حسان قد رغبوا أبا علي ابن السلطان أبي سعيد بالقصور الموجودة في الصحراء بعد أن استولى على سجلماسة رغماً عن أبيه ثم حافظ عليها صلحاً. ينظر: ابن خلدون، العبر: 69/6.

(238) يوسف الناصر: هو الأمير المريني يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ويكنى بأبو يعقوب، ولقبه الناصر لدين الله، بويع سنة 685هـ /1286 وقتله مولاه الخصي سعادة وهو يحاصر مدينة تلمسان سنة 706هـ / 1306م وله ست وستون سنة. ينظر: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، النفحة النسرينية واللمحة المرينية، حققه وقدم له: عدنان محمد آل طعمة، دار سعد الدين للطباعة والنشر، (دمشق: 1992)، ص38.

(239) ابن خلدون، العبر: 139/7؛ الغربي، بداية الحكم المغربي، ص48-49.

(240) درعة: إقليم يبتدئ عند البحر المتوسط ويمتد جنوباً مسافة 25 ميلاً (500كم) عبر صحراء ليبيا وهو اقليم ضيق. ينظر: الوزان، وصف أفريقيا: 118/2.

(241) ابن خلدون، العبر: 139/7.

(242) الغربي، بداية الحكم، ص48.

(243) ابن خلدون، العبر: 236/7.

(244) غاو: مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر وتلتقي بوادي تلمس الذي يبدأ بقلب الصحراء وهي تشابه مدينة كومبي صالح عاصمة غانة الإسلامية إذ تنقسم إلى قسمين يعيش في الأول المسلمين والآخر للوثنيين. ينظر: عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المؤسسة العربية الحديثة، (القاهرة: 1961)، ص134.

(245) نعيم قداح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مراجعة: عمر الحكيم، مطبعة الوحدة العربية (دمشق: 1960)، ص55. ونياني: عاصمة دولة مالي الإسلامية والتي أخذت الدولة اسمها منها ثم حُرف إلى مالي، وكان سندياته قد حول العاصمة المالية من جارب في كانجابا إليها. يُنظر: زكي، تاريخ الدول، ص97.

(246) قداح، المرجع نفسه، ص139.

(247) ابن بطوطة، تحفة النظار: 275/2-284.

(248) روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، ترجمة الدكتور: نقولا زيادة، مكتبة لبنان، (بيروت:1967)، ص169-170.

(249) قداح، إفريقيا الغربية، ص180.

(250) محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني التنبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور، وقف على طبعه هوداس ودولافوس، مطبعة بردين، (أنجة: 1913)، ص180-181.

(251) الشكري، الإسلام والمجتمع، ص212.

(252) علي حامد الماحي، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، ص197.

(253) محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت: 2007) ، ص105.

(254) ابن خلدون، العبر: 266/7؛ السلاوي، الاستقصا: 3/151-152؛ محمد الغربي، بداية الحكم، ص49-50.

(255) ابن خلدون، المصدر نفسه: 7/310-311.

(256) القلقشندي، صبح الأعشى: 285/5.

(257) الشكري، الإسلام والمجتمع، ص274.

(258) الشكري، نفسه، ص274 .

(259) طرخان، دولة مالي، ص94.

(260) الشاهري، الدولة المرينية، ص72 .

(261) ابن خلدون، العبر: 555/7.

(262) ابن خلدون، العبر: 277/7. وقد ذكر ابن خلدون أن السنة هي 647هـ/1249م بينما الصحيح هو سنة 748هـ/1347م لان في السنة التي ذكرها لم يكن السلطان أبي الحسن ومنسا سليمان قد استلما الحكم.

(263) أمير الزواودة: والزواودة عرب من بني رياح من بطون الهلاليين القادمين إلى بلاد المغرب، دخلوا في معارك مع بني الأثبج من هلال أيضاً وانتصروا عليهم ونزلوا قرى الزاب، وأميرهم هو علي بن يعقوب بن أحمد، وهو أمير رياح كلها الساكنين بضواحي قسنطينة وبجاية والزاب ينظر: ابن خلدون، العبر: 22/6.

(264) بسكرة: هي قاعدة بلاد الزاب ويحدها من الشمال بلاد المسيلة وفيها نخل وزرع كثير ويجلب منها الثمار إلى بجاية وتونس. ينظر: ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص126.

(265) ابن خلدون، العبر: 362/6؛ الشاهري، الدولة المرينية، ص73.

(266) الشاهري، الدولة المرينية، ص72.

(267) أبو سالم المريني: هو المستعين بالله إبراهيم بن أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، أمه رومية، وقد بويع بالمدينة البيضاء سنة 760هـ/1358م ومات مقتولاً بعد حكم للبلاد استمر سنتين وثلاثة أشهر. يُنظر: ابن الأحمر، النفحة النسرينية، ص56.

(268) ابن خلدون، العبر: 7/310-311؛ السلاوي، الاستقصا: 4/34-35؛ طرخان، دولة مالي، ص158.

(269) أبو عنان: هو المتوكل على الله فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، بويع بتلمسان حينما قام على أبيه سنة 749هـ/1348م وقد بقي في الحكم تسع سنين وتسعة أشهر حتى مات مقتولاً من قبل وزيره الحسن بن عمر. ينظر: ابن الأحمر، النفحة النسرينية، ص51.

(270) ابن بطوطة، تحفة النظار: 276/2.

(271) ابن بطوطة، المصدر نفسه: 280/2.

(272) ابن بطوطة، نفسه: 275/2.

(273) ابن بطوطة، نفسه: 279/2.

(274) لو تورنو، فاس، ص194–207 .

(275) الشكري، الإسلام، ص274.

(276) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، حققه وذيله بجامع مفردات: حسين مؤنس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، (مدريد: 1960)، ص31؛ فتاح، التأثيرات الحضارية، ص123.

(277) الوزان، وصف إفريقيا: 248/1؛ الشاهري، الدولة، ص76 .

(278) الشكري، الإسلام، ص238 .

(279) الغربي، بداية الحكم المغربي، ص51.

(280) القلقشندي، صبح الأعشى: 289/5؛ الماحي، المغرب، ص269.

(281) قداح، إفريقيا الغربية، ص106.

(282) لو تورنو، فاس، ص118–119 .

(283) ابن بطوطة، تحفة النظار: 280/2 .

(284) ابن بطوطة، نفسه: 281/2.

(285) الماحي، المغرب، ص236.

(286) السعدي، تاريخ السودان، ص51؛ الشاهري، الدولة المرينية، ص80.

(287) القلقشندي، صبح الأعشى: 298/5.

(288) المقريزي، الذهب المسبوك، ص112–113.

(289) السلاوي، الاستقصا: 152/3؛ قداح، إفريقيا الغربية، ص160.

(290) السعدي، تاريخ السودان، ص15.

(291) العمري، مسالك الإبصار، ص65 ؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 287/5.

(292) سورة الحجرات، آية (13).

الملاحق

ملحق (1)

نص معاهدة البقط بين المسلمين والنوبة نقلا عن المقريزي، في كتابه المواعظ والاعتبار في ج1/ص200.

(عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة، إن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي ﷺ أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تعترضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا يدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز وطفل لم يبلغ الحلم يدفعون ذلك إلى والي أسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان فإن أنتم أويتم عبد المسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا أو تعرضتم إلى المسجد الذي ابتناه المسلمون في فناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس والستين رأسا فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك، كتبه عمر بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين).

المصادر والمراجع

أولاً. المصادر الأولية:

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت 560هـ/1154م) .

1- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، مطبعة بريل، (ليدن: 1968) .

- الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت حوالي النصف الأول من القرن4 هـ/10م).

2- المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، دار القلم للطباعة (القاهرة: 1961) .

- الأنصاري، شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بشيخ الربوة (ت 727هـ/1326م) .

3- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، إعتناء: Amchren، (لايبزك: 1923) .

- ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779هـ/1377م) .

4- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، اعتنى به وراجعه: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، (بيروت: 2007) .

- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ/1094م) .

5- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشره: ديلان، (الجزائر: 1857م) .

6- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، (القاهرة: 1945) .

- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279 هـ/892م) .

7- فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1978) .

- بيلو، محمد بن عثمان بن فودي (ت 1203هـ/1837م) .

8- انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، (لندن: 1957) .

- ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1469م) .

9- النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، (القاهرة:د/ت) .

- التنبكتي، أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن الحاج عمر بن محمد أقيت الصنهاجي (1036هـ /1627م) .

10- معراج الصعود لنيل مجلب السود (أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق)، (الرباط: 2000) .

11- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، التزم بطبعه: عباس بن شقرون، (القاهرة: 1351هـ) .

- الحكيم، أبو الحسن علي بن يوسف (ت حوالي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)

12- الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، (مدريد: 1958) .

ـ الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م) .

13- معجم البلدان، دار الفكر (بيروت:د/ت) .

ـ الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت 900هـ/1494م) .

14- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس ، ط2، مكتبة لبنان، (بيروت: 1984) .

ـ ابن حوقل، أبي القاسم محمد بن علي النصيبي (ت 367هـ/977م) .

15- صورة الأرض، (بيروت: 1979) .

ـ الحيمي، الحسن بن أحمد بن صلاح (ت 1071هـ/1661م) .

16- سيرة الحبشة، تحقيق: مراد كامل، مطبعة دار العالم العربي، (القاهرة:د/ت)

ـ ابن خردذابة ، ابي القاسم عبد الله بن عبد الله (ت 300هـ/912م) .

17- المسالك والممالك، (ليدن 1889) .

ـ خسرو ، ناصر (ت حوالي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) .

18- سفرنامة رحلات ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في ق 5هـ ، ترجمة: يحيى الخشاب، ط2، دار الكتاب العربي (بيروت: 1983)

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م) .

19- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت: 1956) .

ـ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ/1282م)

20- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: 1968) .

ـ الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت بعد 417هـ/1026م) .

21- تاريخ إفريقيا والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، الناشر: رفيق السقطي، (تونس: 1967) .

ـ ابن أبي زرع ، علي بن عبد الله الفاسي (ت 727هـ/1326م) .

22- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، (الرباط: 1972) .

ـ الزهري، أبو عبيد الله محمد بن أبي بكر (توفى أواسط ق 6هـ) .

23- كتاب الجغرافية، اعتنى بتحقيقه: محمد حاج صادق (دمشق: 1968) .

ـ السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر (ت 1066هـ/1655م) .

24- تاريخ السودان، وقف على طبعه: هوداس (باريس: 1967) .

- السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد (ت 1315هـ/1897م) .

25- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، (الدار البيضاء: 1997) .

- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحسن (ت581هـ/1185م) .

26- الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية، دار المعرفة ، (بيروت:1978)

- الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م) .

27- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط5، (القاهرة: 1967) .

28- تفسير الطبري، (بيروت:1403هـ) .

- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن محمد (ت 257هـ/870م) .

29- فتوح مصر والمغرب، (القاهرة: 1961) .

30- فتوح مصر وأخبارها، مطبعة بريل (ليدن: 1920) .

- ابن عذارى، المراكشي (ت حوالي ق 7 هـ/13م) .

31- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة : ج.س.كولان و أ .ليفي بروفنسال ، دار الثقافة، (بيروت:د/ت) .

- العسقلاني، شهاب الدين بن حجر (ت 852هـ/1448م) .

32- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (القاهرة:د/ت) .

33- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1989) .

- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت 749هـ/1349م) .

34- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (الرباط: 1988) .

35- التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، (القاهرة:1312هـ) .

- الغرناطي ، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم (ت 565هـ/1170م) .

36- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق : إسماعيل العربي ، (المغرب: 1993) .

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت732هـ/1331م) .

37- تقويم البلدان، (باريس: 1840) .

- القرماني، ابن العباس أحمد بن يوسف بن أحمد (ت 1119هـ/1610م) .

38- أخبار الدول وآثار الأول ، (بيروت:د/ت) .

- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م) .

39- آثار البلاد وأخبار العباد ، (بيروت: 1960) .

- القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م) .

40-صبح الاعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه: نبيل خالد الخطيب ، ط1، دار الكتب العلمية (بيروت: 1987) .

41- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (بغداد: 1332هـ) .

- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1372م) .

42- البداية والنهاية ، ط2، (بيروت: 1977) .

- كعت ، محمود بن الحاج المتوكل (ت 1002هـ/1593م) .

43- التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور ،تحقيق: هوداس، مطبعة بردين (انجة : 1913).

- ابن المجاور، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب (ت 630هـ/1232م) .

44- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة بتاريخ المستبصر، (الرياض: 1986) .

- مجهول، مؤلف (من القرن 6هـ/12م) .

45- الاستبصار في عجائب الأمصار، (الإسكندرية : 1958) .

– المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م) .

46- التنبيه والأشراف (بيروت : 1965) .

47- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر ، (بيروت: 1965). المغربي، أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد (ت 685هـ/1279م) .

48- كتاب الجغرافية ، (بيروت: 1970) .

49- كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، (تطوان: 1958) .

- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري (ت 387هـ/979م) .

50- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط2، مطبعة بريل، (ليدن: 1909) .

- المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ/1631م) .

51- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، حققه : ووضع فهارسه : يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر ، ط1، (بيروت: 1986) .

- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ/1441م) .

52- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة: 1955) .

53- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، (مصر: 1895م) .

54- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد ، (القاهرة: 1963) .

55- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية ، (القاهرة:د/ت) .

56- السلوك لمعرفة دول الملوك ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة: 1958).

- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م) .

57- لسان العرب المحيط ، ط6 ، دار صادر للطباعة ، (بيروت:1997) .

- ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت 218هـ/833م) .

58- السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: إبراهيم الأبياري وآخرون، دار إحياء التراث العربي، (بيروت:د/ت) .

- الهمداني، لسان الدين بن أحمد بن يعقوب (ت 350هـ/961م) .

59-صفة جزيرة العرب، (بغداد: 1989) .

- ابن الوردي، سراج الدين عمر (ت 749هـ/1348م) .

60- خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، (القاهرة : 1316هـ) .

61- تاريخ ابن الوردي والمسمى تتمة المختصر في أخبار البشر، إشراف وتحقيق : أحمد رفعت البدراوي، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (بيروت: 1970) .

- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي (كان حياً سنة 957هـ/1550م) .

62- وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر، ط1، (الرباط: 1982) .

- الولاتي ، أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر (ت 1219هـ/1804م) .

63- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط1، (بيروت: 1981) .

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت 284هـ/897م) .

64- تاريخ اليعقوبي، دار صادر ودار بيروت للطباعة، (بيروت: 1960) .

65- كتاب البلدان، (النجف: 1955) .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم ، إبراهيم إسحاق

1- هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، (الرياض: 1996) .

- إبراهيم ، محمد عبد الفتاح

2- إفريقيا – الأرض والناس – مع العناية بسمات ومؤثرات بعض الطوابع الثقافية الإفريقية، مكتبة الأنجلو المصرية ، (القاهرة:د/ت) .

أحمد ، حسب الله محمد

3- قصة الحضارة في السودان – الفترة التاريخية من 3400 ق.م إلى 1900 م، (القاهرة: 1966) .

أرنولد ، توماس

4- الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ط3، (القاهرة:1970).

- أسود، عبد الرزاق محمد

5- المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ط1، الدار العربية للموسوعات (بيروت: 1981)

. الألوري، أدم عبد الله.

6- موجز تاريخ نايجيريا، قاموس صغير يلقي الضوء على تاريخ هذه البلاد قديمه وحديثه، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت: 1965).

- أوليفر، رولاند و جون فيج

7- موجز تاريخ إفريقية، ترجمة: دولت أحمد صادق ، مراجعة: محمد السيد غلاب، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، (القاهرة:د/ت) .

. باري، محمد فاضل علي وسعيد إبراهيم كريدية.

8- المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت: 2007)

- بافقيه ، محمد عبد القادر

9- تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت: 1973) .

- باقر ، طه

10- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ط2، مطبعة الحوادث ، (بغداد: 1971) .

- البراوي ، راشد

11- الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث ، (القاهرة: 1961)

برستيد ، جيمس هنري

12- انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم)، ترجمة: أحمد فوزي، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة: 1966).

- بغدادي، عبد السلام إبراهيم

13- اليهود في أثيوبيا في ضوء التهجير الأخير ، (بغداد: 1985) .

بوركهارت ، جون لويس

14- رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ، ترجمة : فؤاد أندراوس ، أشرف على نشره : محمد شفيق غربال ، (القاهرة : د/ت) .

- بيرم ، مصطفى

15- تاريخ الجامع الأزهر ، (القاهرة: 1902) .

- ترمنجهام ، سبنسر

16- الإسلام في شرق إفريقيا، (القاهرة: 1973) .

. جدعان، فهمي و توفيق مرعي.

17- عُمان والحضارة الإسلامية، وزارة التربية والتعليم، (عُمان : 1984م)

- جرادات ، وليد محمد

18- الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر ، (الدوحة: 1986) .

- الجمل ، شوقي

19- تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها ، (القاهرة: 1971) .

- جوزيف ، جوان

20- الإسلام في ممالك وامبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة : مختار السويفي، ط3، دار الكتاب اللبناني ودار الكتب الإسلامية، (القاهرة: 1984) .

- جوهر ، حسن محمد

21- الحبشة ، مطبعة مصر ، ط1 ، (القاهرة:د/ت) .

22- السودان – أرضه وتاريخه وحياة شعبه ، (السودان: 1970) .

- الجوهري، يسري عبد الرزاق

23- السلالات البشرية ، ط3، دار المعارف ، (القاهرة: 1967) .

– جيان ، ريان سفينة

24- وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية، ترجمة: يوسف كمال، ط1، (القاهرة: 1927) .

- الحداد ، محمد أحمد مشهور

25- حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في إفريقيا الشرقية، دار الفتح، ط1، (بيروت: 1973) .

- حسن ، حسن إبراهيم

26- انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية ، ط2 ، (القاهرة: 1963).

- حسن ، يوسف فضل

27- دراسات في تاريخ السودان ، (بيروت: 1967) .

- حكيم ، سليم

28- تعليم اللغة العربية في نيجيريا، (بغداد: 1966) .

- حمد ، حسين علي

29- قاموس المذاهب والأديان، دار الجيل، ط1، (بيروت: 1998) .

- دافيدسون ، باسيل

30- إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ترجمة: نبيل بدر وسعد زغلول، مراجعة: محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة:د/ت) .

31- إفريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة : جمال محمد أحمد ، دار الثقافة للطباعة (بيروت: 1961) .

- دوزي ، رينهارت

32- المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، (بغداد: 1971) .

- ديشان ، هوبير

33- الديانات في إفريقيا السوداء ، ترجمة : أحمد صادق حمدي، مراجعة: محمد عبد الله دراز، دار الكتاب المصري ، (القاهرة : 1956) .

- زبادية ، عبد القادر

34- مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، (الجزائر:د/ت) .

- الزركلي، خير الدين

35- الإعلام – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (بيروت: 1969).

- زكي ، عبد الرحمن

36- تاريخ الدول الإسلامية السودانية بافريقيا الغربية ، المؤسسة العربية الحديثة للنشر، (القاهرة: 1961) .

37- المسلمون في العالم اليوم ، (القاهرة: 1958) .

- زيدان ، جرجي

38- طبقات الأمم ، (بيروت: 1969) .

. السيار، عائشة علي

– دور اليعاربة في عُمان وشرق آسيا، مطابع دار الصحف الوحدة ، ط3 ، (أبو ظبي : د/ت)

ـ سيلا ، عبد القادر محمد

39- المسلمون في السنغال معالم الحضارة وآفاق المستقبل، سلسلة كتاب الأمة ، ط1 ، (قطر: 1406هـ) .

ـ شاكر ، أمين وسعيد العريان

40- أضواء على الحبشة ، دار المعارف ، (مصر:د/ت) .

ـ شرف الدين ، أحمد حسين

41- اليمن عبر التاريخ ، (د.م/د.ت) .

ـ شقير ، نعوم

42- جغرافية وتاريخ السودان ، (بيروت: 1967) .

ـ الشكري ، أحمد

43- الإسلام والمجتمع السوداني (امبراطورية مالي 1230–1430م) ، (أبو ظبي : 1999).

ـ شلبي ، أحمد

44- مقارنة الأديان، (القاهرة: 1967) .

. الصغيرون ، إبراهيم الزين .

45- الإسهام العُماني في المجالات الثقافية والفكرية والكشف عن مجاهل القارة الإفريقية في العهد البوسعيدي، المنتدى الأدبي، حصاد ندوة 1991 ـ 1992م، وزارة التراث القومي، سلطنة عُمان، 1993.

ـ طرخان ، إبراهيم علي

46- امبراطورية البرنو الإسلامية، (القاهرة: 1975) .

47- دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة: 1973).

48- دولة غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة: 1970) .

ـ عابدين ، عبد المجيد

49- بين الحبشة والعرب، (دار الفكر العربي:د/ت) .

50- صور من وحدة الفكر العربي في إفريقيا، دراسة في ميدان اللغة والأدب، معهد البحوث والدراسات العربية، (القاهرة: 1970) .

51- تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث، ط2، (بيروت: 1967) .

ـ العارف ، ممتاز

52- الأحباش بين مأرب وأكسوم، لمحات تاريخية من العلاقات الحبشية ونشوء دولة أثيوبيا الحديثة، منشورات المكتبة العصرية، (بيروت: 1975) .

- عاشور ، سعيد عبد الفتاح

53- تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، (بيروت : 1962) .

- عبد الجليل ، الشاطر بصيلي

54- تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط ، (القاهرة: 1972) .

. عبد الحليم ، رجب محمد

55- العُمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام، مكتبة العلوم، (عُمان، 1929م) .

- عطية الله ، أحمد

56- القاموس الإسلامي ، (القاهرة: 1996) .

- العقاد ، صلاح وجمال زكريا قاسم

57- زنجبار، دار الطباعة الحديثة، (القاهرة:د/ت) .

- علي ، جواد

58- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت: 1969) .

- عويس ، عبد الحليم

59- بنو هلال أصحاب التغريبة في التاريخ والأدب ، (الرياض: 1980) .

- عيسى ، محمود خيري

60- العلاقات العربية الإفريقية – دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة –، دار الطباعة الحديثة، (القاهرة:د/ت).

- الغربي ، محمد

61- بداية الحكم المغربي للسودان الغربي، إشراف: نيقولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، (الكويت: 1982) .

- غيث ، فتحي

62- الإسلام والحبشة عبر التاريخ، (شركة الطباعة المتحدة : د/ت) .

- فخري ، أحمد

63- اليمن ماضيها وحاضرها ، (القاهرة: 1957) .

- فليجة ، أحمد نجم الدين ويسري عبد الرزاق الجوهري

64- إفريقيا جنوب الصحراء دراسة إقليمية ، (الإسكندرية : 1977) .

- قاسم ، جمال زكريا

65- الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، معهد البحوث والدراسات العربية، (القاهرة: 1975) .

- قداح ، نعيم

66- حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، (دمشق: 1965) .

67- إفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، مراجعة : عمر الحكيم ، (دمشق: 1960) .

- القناني ، أحمد الحفني

68- الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان بما جاء عن الله والرسول وعلماء التاريخ في الحبشان ، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق ، ط1 ، (القاهرة:1321هـ) .

- القوصي ، عطية

69-تاريخ دولة الكنوز ، (القاهرة: 1981) .

- كرونباوم ، جي . ئي

70- الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ترجمة: صدقي حمدي، مراجعة: صالح أحمد العلي، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (نيويورك :1966) .

. الكيلاني ، شمس الدين .

71- الآخر في الثقافة العربية – صورة الشعوب السوداء عند العرب في العصر الوسيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (دمشق :2009) .

- كيمبل ، جورج . هـ . ت

72- إفريقية المدارية – الأرض وطرق المعيشة – ، مكتبة الأنجلو المصرية ، (القاهرة:1967) ، الجزء الأول ترجمة : مصطفى كمال منيرو و أخرون .

- المبروك ، الهادي

73- العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الإفريقي من القرن 7-9هـ /13-15م ، (الكتاب مسحوب من شبكة الإنترنت – موقع قبائل عرب ازواد).

– محمد ، محمد عوض

74- الشعوب والسلالات الإفريقية ، (القاهرة: 1965) .

- محمود ، حسن أحمد

75- الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة: 1958) .

- محمود ، حسن سلمان

76- تاريخ السودان في العصور القديمة ، (الفجالة : 1958) .

- المغيري ، سعيد بن علي

77-جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار ، (بيروت:د/ت) .

- الملاح ، هاشم يحيى

78- الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (الموصل: 1994) .

- مندلسون ، جاك

79- الرب والله وجوجو ، (القاهرة: 1971) .

- النشار ، علي سامي

80- نشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة ، (الإسكندرية : 1949) .

- النقيرة ، محمد عبد الله

81- انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له ، (الرياض: 1982) .

- نوري ، دريد عبد القادر

82- تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ، (الموصل: 1985) .

- هامرتن ، السير جون

83- تاريخ العالم، ترجمة: إدارة الثقافة بوزارة التعليم العالي، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة:د/ت) .

- هنتس ، فالتر

84- المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمه عن الألمانية: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، (عمان:1970) .

- ودنر ، دونالد

85- تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، دار الجيل للطباعة ، (القاهرة :د/ت) .

. وندل ، فليبس

86- تاريخ عُمان، ترجمة : محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي، (عُمان : 1981)

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- Abir , Mordechai

1- Ethiopia and red sea (London : 1980).

- Ajay , J . F . A

2- History of west Africa (new york : 1976).

- Brill , E . J

3- Encyclopaedia of Islam , (London : 1960).

- Budge , E . A . wallis

4- A History of Ethiopia : Nubia and abyssinia Anthropological publications, (London:1966).

- Coupland , R

5- East Africa and its Invaders , oxford . the claredon press : 1938

- Gray , John

6- History of zanzibar from middle Ages to 1856 (London : 1962).

- Greniville , G . S . P . Freeman

7- Trade Relation of the East coast with Europe, Arabia and the Far East (clarendon press , oxford : 1962).

8- The Medieval History of the coast of tanganyika , (Berlin : 1962).

- Hiskett , M

9- The Devlepmont of Islam in west Africa (London : 1984).

- Hodgkin , T

10- Nigerion prespectives An Historical Atholoyy (London : 1960)

- Hogben , S . J

11- An introduction to the History of Islamic states of northern nigeria . oxford university press : 1967.

- John , S . Mbit

12- Historical Atlas of the religons of the word, Editor Isaic ragial Faruqi , London .

- Leslau , Walf

13- Ethiopia speek (univercity of california press: 1968).

- Levtzion , Nehermia

14- Ancient Ghana and Mail , muthuen and co : Ltd), London : 1973).

- Lipsky , George . A

15- Ethiopia its people its culture (American university : 1962).

- Markakis , John

16- Ethiopia Anatomy of traditional polity (pall mall press , London : 1967).

- murphy , E . J

17- History of African civilzation , (new yourk : 1979).

- Al - naqar , Umar

18- The pilgrimage tradition in west Africa (khartom : 1972).

19- Oliver , R and Fagan , B M

20- The middle age of African History , London , oxford university press , 1967.

- Oliver , R and Crowder , M

21- The cambridge encyclopeadia of Africa, cambridge university press : 1981.

- Oliver , R

22- African in the iron c . 500 to A. D 1400 (cambridge university : 1975).

- palmer , H . R

23- Sudanese memoirs , three volumes in one , London , Frank cass and company Ltd , 1967.

- Shinne , Margreat

24- Ancient Africa Kingdoms (London : 1968)

- Trimingham , J . S

25- The Influnce of Islam upon Africa (London : 1968).

26- Islam in Etheopia (oxford university : 1976).

27- Islam in west Africa , (London : 1959).

28- A History of Islam in west Africa , (London , oxford university : 1979).

- Usman , Band Alkli , N

29- Stusies in the pre - colonial Borno , northern nigeria , publishing company , 1983.

- G . S . P . Freeman Grenvill

30- Some Preliminary Observations on medival mosques Near Dar es salam . Tanganika Notes and Records . NO . 36.1954.

رابعاً : البحوث والدوريات :

- أمين، محمد محمد

1- علاقات دولتي مالي وسنغاي بمصر في عصر سلاطين المماليك (1250–1517م)، بحث منشور في مجلة الدراسات الأفريقية، ع4، 1975.

2- العرب والدعوة الإسلامية في الصومال في العصور الوسطى، بحث منشور في مجلة الدارة، ع2، س10 (سبتمبر: 1984) .

. الحراصي ، عبد الله .

3- السواحلية لسان شعب إفريقي وهويته، مجلة نزوى، العدد السابع، يوليو 1996م

. حسن ، يوسف فضل .

4- الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، بحث منشور في كتاب العرب وإفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، (بيروت : 1984) ، ص33 .

- حسن ، يوسف فضل

5- جذور العلاقات بين الثقافات الإفريقية والثقافة العربية، بحث منشور في المجلة العربية للثقافة، (تونس: 1982) .

6- الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، بحث منشور في كتاب العرب وإفريقيا، (بيروت: 1984) .

- خصباك، شاكر

7- رواد الجغرافية العربية، بحث منشور في مجلة الأستشراق، (بغداد: 1990) .

. الزبيدي، محمد حسين

8- هجرة العرب والمسلمين إلى شرق إفريقيا – بداياتها الأولى –، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث والعشرون ، 1983.

- زكي ، عبد الرحمن

9- الإسلام والحضارة العربية في شرق إفريقيا، بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية، العدد الحادي والعشرون .

- الزلباني، محمد محمد

10- تشكل الإنسان في صور الحيوان في المعتقدات الشعبية السودانية على ضوء النظريات الأنثروبولوجية والاجتماعية ، بحث منشور في مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، العدد الثالث، 1972.

. الشيخ ، محمود عبد الرحمن.

11- انتشار الإسلام في شرق إفريقيا، بحث منشور في كتاب وقائع مؤتمر الإسلام في إفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية ، (26–27 نوفمبر / 2006) ، ص345.

- الشيخلي ، صباح إبراهيم

12- الوجود العربي في كانم في السودان الأوسط حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، السنة الرابعة عشرة ، العدد الخامس والثلاثون .

13- ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء ، بحث منشور في مجلة آفاق الثقافة والتراث ، السنة العاشرة ، العدد الثامن والثلاثون ، (تموز: 2002) .

- طرخان ، إبراهيم علي

14- الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقيا ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب في جامعة القاهرة ، المجلد السادس والعشرون ، الجزء الأول والثاني ، (ديسمبر: 1964) .

15- الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى ، بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن ، (القاهرة: 1959) .

- الطيبي ، أمين توفيق

16- الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الأيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى ، بحث منشور في مجلة البحوث التاريخية ، السنة الثانية ، العدد الثاني ، (يوليه: 1980) .

17- كانم – برنو بالسودان الأوسط في العصر الوسيط علاقات تاريخية مع العرب والمسلمين ، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي ، العدد السابع والثلاثون ، السنة الرابعة عشرة ، 1988 .

. الطيواني ، محمد

18- العُمانيون ودورهم في تطوير اللغة السواحلية، جريدة عُمان، عدد 1408، رجب 1405هـ/ 23 مارس 1985م.

- عباس ، محمد جلال

19- الوحدانية في الأديان الإفريقية ، بحث منشور في مجلة الأزهر ، المجلد الثالث والثلاثون ، 1961.

- عبد القادر ، عبد الشافي غنيم

20- البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية ، بحث منشور في مجلة قضايا عربية ، ع4، س4 ، (أبريل : 1980) .

- العربي ، إسماعيل

21- مسالك الإسلام والعروبة إلى الصحراء الكبرى ، بحث منشور في مجلة الثقافة ،العدد الثاني والستون ، (الجزائر: 1981) .

- عوض الله ، الشيخ الأمين

22- تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي ، بحث منشور في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، (بغداد: 1984) .

- قاسم ، جمال زكريا

23- الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوربي في القرن الخامس عشر الميلادي، بحث منشور في كتاب العلاقات العربية الإفريقية – دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار – ، (القاهرة: 1977) .

24- استقرار العرب في شرق إفريقيا ، بحث منشور في آداب عين شمس .

- كاني ، أ . م

25- مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة 700 و 1700م مع إشارة خاصة إلى كانم – برنو وأرض الهوسا، بحث منشور في مجلة البحوث التاريخية، السنة الثالثة، العدد الأول، (يناير: 1981) .

- كرستنس، جيمس

26- الوظائف التكيفية للنظام الكهنوتي عند الأفانتي ، بحث منشور في كتاب الثقافة الإفريقية

- ماتييف، ف . ف

27- طور الحضارة السواحلية، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، (اليونسكو:1988).

- ماجد ، عبد المنعم

28- روابط الإيمان بين مصر وإفريقيا ، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، العدد الرابع، 1977 .

- مسعد ، مصطفى محمد

29- البجة والعرب في العصور الوسطى، بحث منشور في مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة، المجلد الحادي والعشرين، الجزء الثاني، (ديسمبر: 1959) .

. المعولي، زياد بن طالب

30- العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا، مقال منشور في دورية الحياة، العدد (11)، 2007.

- مؤنس ، حسين

31- فزان ودورها في انتشار الإسلام في إفريقيا، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية، العدد الثالث، (بنغازي: 1969) .

- ميكوربا ، تكلي صادق

32- اكسوم المسيحية، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني، (اليونسكو: 1985) .

- نوري، دريد عبد القادر

33- دور الحج في ربط السودان الغربي بالوطن العربي بعد القرن الخامس الهجري، بحث منشور في مجلة رسالة الخليج العربي، العدد التاسع، 1983.

خامساً: الرسائل الجامعية :

ـ جاسم، خليل إبراهيم

1- امبراطورية مالي الإسلامية – دراسة حضارية – (632-793هـ / 1253-1390م) رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل:1980) .

–الجاسم، عبد الرزاق ذنون

2- العلاقات السياسية والاقتصادية بين المماليك وبلاد النوبة (648-923هـ/1250-1517م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: 1980) .

. الجبوري، عائدة محمد عبيد.

3- مملكة غانة – دراسة في الجوانب الحضارية من القرن 1-6هـ/7-12م –، رسالة ماجستير غير منشورة، (الموصل: 2003) .

ـ جوبان ، محمد محفوظ عمر

4- انتشار الإسلام في الحبشة – دراسة في التأثيرات السياسية والأقتصادية – أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة الموصل : 2001) .

– حمادي ، عبد العباس إبراهيم .

5- الحركة الفكرية والعلمية بمدينة مراكش منذ تأسيسها حتى سقوط الدولة الموحدية وأثرها على المراكز الثقافية الإسلامية جنوب الصحراء (454-668هـ/1062-1269م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة القاهرة: 1980) .

ـ الدجيلي ، خولة شاكر محمد

6- العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الشرقي حتى القرن التاسع الهجري ، أطروحة دكتوراه غير منشورة (جامعة بغداد :1980) .

ـ صديق ، عمر سلهم

7- الحركة الصليبية في ساحل شرق إفريقيا (669-950هـ/1270-1543م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: 2001) .

ـ صلاد ، بشير أحمد

8- التاريخ السياسي لسلطنة عدل الإسلامية في القرن الأفريقي (818-949هـ/1415-1543م)، رسالة ماجستير غير منشورة في معهد البحوث والدراسات العربية ، (بغداد: 1987) .

ـ فتاح ، فوزية يونس

9- التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، (جامعة الموصل: 1994) .

ـ محمد، شوكت عارف محمد

تاريخ الإسلام في أفريقيا







